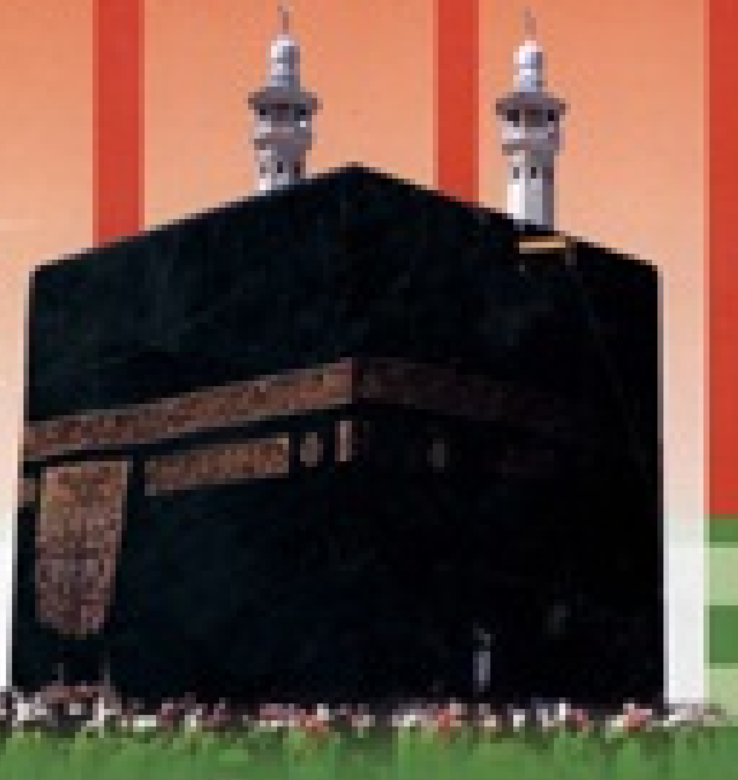
ميقات الحج

مجلة نصف سنوية تعنى بالشؤون الثقافية
والتاريخية والسياسية والاجتماعية للحج



١٠

بسم الله الرحمن الرحیم

دو فصلنامه « میقات الحج »

کاتب:

محمدی ری شهری

نشرت فی الطباعهٔ:

مشعر

رقمی الناشر:

مرکز القائمیهٔ باصفهان للتحریات الکمبیوتریهٔ

الفهرس

میقات الحج المجلد۱۰

اشارة

عنوان و نام پدیدآور : میقات الحج[پیایند: مجله]

مشخصات نشر : تهران: منظمة الحج و الزیارة، ۱۴۱۷ ق. - = ۱۳۷۵ -

فاصله انتشار : شش ماه یکبار

یادداشت : عربی

فهرست‌نویسی براساس سال۳ شماره۵ سال۱۴۱۷ق.

یادداشت : این نشریه در بیروت نیز منتشر می‌شود

یادداشت : المدیرالمسؤول: محمد محمدی‌ری‌شهری

رئیس‌التحریر: علی قاضی‌عسکر

یادداشت : کتابنامه

ترجمه عنوان : Mighat al - haj

موضوع : حج -- نشریات ادواری

شناسه افزوده : محمدی ری‌شهری، محمد، ۱۳۲۵، -مدیر مسئول

Muhammadi Reyshahri, Muhammad

قاضی عسکر، سیدعلی، ۱۳۲۵، - سردبیر

شناسه افزوده : سازمان حج و زیارت

رده بندی کنگره : BP۱۸۸/۸

رده بندی د... : ۲۹۷/۳۵۷۰۵

ص:۱

الحج فی احادیث الامام الخمینی قدس سره

ص:2

ص:۳

ص: ۴

ص: ۵

العدد العاشر

الحج فی أحادیث الإمام الخمینی قدس سره

الحجُّ هو نداء لإیجاد وبناء المجتمع البعید عن الرذائل المادیة والمعنویة. الحجُّ ومناسکه هو تجلّی عظیم لحیاة کریمة ومجتمع متکامل فی هـذه الـدنیا. ومن ذلک المکان ومن ذلک الموقع الـذی یتواصل فیه مجتمع المسـلمین من أی قومیـة کانوا ویصـبحوا یـداً واحدة، ینطلق أداء هـذه الفریضـة المبارکـة، الـتی یجب أن یکون أداؤهـا وجوهرهـا توحیـدیاً إبراهیمیـاً محمـدیّاً. إنّ الحـج هو ساحـة عرض ومرآةصادقـة للاسـتعدادات والقابلیات المادیـة والمعنویة للمسـلمین، الحج کالقرآن یسـتفید منه المجتمع. فالمفکرون والعارفون بآلام الأمـة الإسـلامیة إذا ما فتحوا قلوبهم، ولم یهابوا الغوص عن قرب فی أحکامه وسـیاساته الاجتماعیـة، سیصـطادون الکثیر منصدف هذا البحر، جواهر الهدایة والرشد والحکمة والحریة، وسیرتوون إلی الأبد من زلال حکمته ومعارفه، ولکن ماذا نفعل؟

وأقولهـا بألم وحزن: إن الحـج أصـبح مهجوراً کالقرآن وبنفس النسـبة التی اختفی فیها هـذا الکتاب- کتاب الحیاة والکمال والجمال- بسبب حجب النفس التیصنعناها

ص: ۶

بأيدينا، ودفنا هذا الكنز، كنز أسرار الخلق، فكذلك الحج أصبح أسيرَ هذا القدر، قدر أن الملايين من المسلمين يجتمعون كلّ سنة ويضعون أقدامهم محل قدم محمد وإبراهيم وإسماعيل وهاجر ولا يوجد أحد يسأل ماذا فعل إبراهيم ومحمد؟ ما هو هدفهما؟ ماذا طلبا منّا؟ وهذا ما لا نفكر فيه!

من المسلّم أن حجّاً دون معرفة ووعى ودون روح ودون حركة ونهوض، وحجّاً دون براءة، وحجّاً دون وحدة، وحجاً لا ينتج هدماً للكفر والشرك، ليس حجّاً. وخلاصة الأمر أنه يجب على جميع المسلمين السعى لأجل تجديد حياة الحج والقرآن وإعادتهما ثانية إلى ساحة حياتهم، وعلى المحققين المؤمنين بالإسلام أن يبينوا التفاسير الصحيحة والواقعية لفلسفة الحج، ويرموا فى البحر كلّ نسيج خرافات وادعاءات علماء البلاط..

وإننى اوصى جميع العلماء المحترمين والكتاب والمتحدّثين الملتزمين أن يوضّحوا لجميع المسلمين وخاصة الحجاج منهم أهداف هذه الفريضة المقدّسة..

كما أنى أوصيهم بتعليم الحجاج مناسك الحج وكيفية أدائها بشكلها الصحيح حتى يكون عملهم خالياً من الأخطاء، وعدم الاكتفاء بأننا أدينا الفريضة وأنجزنا الواجب كيفما كان، فإنّ الأخطاء فى هذه الفريضة تترك آثاراً واشكالات عليصحتها قد تكلفهم وقتاً وجهداً مضاعفاً لتصحيحها..

ص: ۷

الحجّ فی أحادیث الإمام الخامنئی

- مد ظله العالی-

أیّها الحجاج الکرام... امتنا الإسلامیة تمتلک الیوم أکثر مصادر النفط، التی تعدُّ بدون مبالغة شریان حیاة الحضارة العالمیة الراهنة، وهی الیوم موجودة فی أرض العالم الإسلامی، أکثر المناطق استراتیجیة فی العالم وتحت تصرّفکم کما أنّ القسم الأعظم من المصادر الأرضیة الضروریة لبناء العالم فی الحاضر والمستقبل تتوفر فی بلدان المسلمین، وأن خمس سکان العالم مسلمون، کما أنّ أکبر الأسواق الاستهلاکیة لمصنوعات البلدان التی فرضت نفسها علی المسلمین تکون فی بلدانکم، هذا وأنّ ثقافة المسلمین الغنیة العریقة وعلومهم ومعارفهم شکلت الدّفعة الأولی لاعتلاء الغربیین ذروةصرح علوم العالم المعاصر، فللمسلمین حقّ الحیاة علی علوم الغرب وحضارته... ومع کلّ ذلک لا یمتلک المسلمون الیوم علی الساحة العالمیة وفی معترک السیاسة الدولیة أیّ دور فی اتخاذ القرارات الکبری وفی تعیین النظام الدولی، وأفظع من ذلک فإنّ کثیراً من البلدان الإسلامیة تنهج فی سیاستها الوطنیة منهجاً ذیلیاً تابعاً، وتخضع لإحدی البلدان المستکبرة المتعنتة...

ص: ۸

حکوماتها عمیلة، وضعیفة النفس، وشعوبها مضطهدة أو مغفلة، وعلماؤها ومثقفوها مصابون بالخوف والتغافل، وبحبّ البطر والراحة... وکانت النتیجة أن تبددت ثروات الأمة الإسلامیة، وأصبح تعیین مکانتهم السیاسیة بإشارة القوی المستکبرة، وأن لا یحسب لعددهم وعدتهم حساب، وأن تحرم الأمة الإسلامیة من قسم عظیم من إمکاناتها، وأن یستفید أعداء الإسلام والمسلمین، من تلک الامکانات للاضرار بالإسلام والمسلمین بینما کان ینبغی أن تستفید الأمة الإسلامیة الکبری من کلّ ما تمتلکه من طاقات لاستحصال ما تستحقه من عزّة واقتدار.

إنّ الأوضاع الراهنة للعالم الإسلامی والحوادث والمحن التی أذاقت المسلمین القهر والمرارة، کمأساة فلسطین المغتصبة وافغانستان وغیرها.. ووضع الأقلیات المسلمة فی بعض البلدان الأوربیة.. کلها شواهد ناطقة علی هذه الحقیقة المرّة..

فعلیکم أیها الحجاج الکرام أن تجعلوا فریضة الحج مؤتمراً تتداولون فیه تلک المشاکل والمحن، وتتدارسون فیه أفضل السبل لحلّها ولتوعیة شعوبکم بکل ذلک..

فالأمة الإسلامیة الکبری تعدُّ أکبر سندٍ للعالم الإسلامی وأن الشعوب المسلمة بوحدتها وتلاحمها وتفاهمها وبما فیها من ثرواتٍ طبیعیةٍ وخیراتٍ کثیرةٍ..

تذیب قلب کل مستکبر وتصم إذنه وتقصم ظهره. والحج هذه الفریضة المبارکة، یعرض لنا مظهراً جمیلًا ونموذجاً رائعاً لهذا السند العظیم.

مفرحة الانام فی تأسیس بیت اللّه الحرام

ص: ۹

مفرحة الأنام فی تأسيس (۱) بيت اللّه الحرام

تأليف: الشهيد زين العابدين بن نور الدين على الحسينى الكاشانى (۱۰۴۰ ه)/ تحقيق: محمد رضا الأنصارى القُمّى

تقديم

هذه الرسالة تتحدث عن قضية تاريخية حدثت عام ۱۰۳۹ ه بمكة المكرمة وهى هطول أمطار غزيرة يوم الأربعاء التاسع عشر من شهر شعبان المعظّم، فتجمعت فى وديان مكة وشعابها، ومن ثمّ توجّهت على شكل سيول مدمرة صوب قلب مكة أى المسجد الحرام والكعبة المشرفة، فامتلأت ساحة المسجد الحرام وأروقته بمياه السيول، بحيث عجز الناس عن الطّواف والصَّلاة، ثمّ ازدادت نسبة الماء حتى بلغت عتبة الكعبة الشريفة فدخلها مما سبّب فى تصدّع أركانها، فانهارت وسقطت معها جدرانها، وعلى اثر هذا السيل قتل ۴۴۲ شخصاً بينهم ثلاثونصبيّاً مع معلمهم حيث كانوا متحلقين حوله فى المسجد الحرام يعلمهم القرآن. وبعد أن توقف اندفاع

۱- ۱ وردت كلمة «تأسيس» فى أصل المخطوطة، وكان الأولى أن تكون «تجديد بيت اللّه الحرام» فما حدث هو تجديد للبناء بعد أن هدّم لا تأسيس له.

ص: ۱۰

میاه السیولصوب المسجد الحرام، وتمّ إخلاء المسجد من الماء المتبقی فیه، شرعوا فی تقییم الخسائر، والسعی فی إعادة بناء البیت العتیق، فانتدب الباب العالی ناظراً لیشرف بنفسه وبمعاونة أمیر مکّة وقاضیها علی إعادة بناء البیت. وکان من حُسن حظّ مؤلف رسالتنا هذه وتوفیقه أنّه کان من المشارکین فی بناء الکعبة، وقد شرح فی رسالته تفاصیل الحدث بدقة وحسب الأیام، ثمّ تحدّث عن بناء الکعبة المشرّفة ومساهمته فی ذلک، وأنّه کیف تمکن بلباقة وذکاء أن یُدخِل نفسه وجماعة من المؤمنین ضمن المجموعة العاملة فی بناء البیت، هذا فضلًا عن أنّ المؤلف عقد فصلین تحدث فیهما بإسهاب عن الکعبة وما بداخلها وما یتعلق بها وبالمسجد الحرام من الأبواب والأساطین والمآذن والأرکان وسائر الأماکن المقدسة فیه کالحِجر ومقام إبراهیم وغیرها.

ومصنّف هذه الرسالة هوالمولی میرزا زین العابدین بن نور الدین علی الحسینی الکاشانی من علماء الإمامیة فی القرن الحادی عشر. هاجر من بلاده الی مکّة المکرمة، فاختار جوارها، وکان بیته مواجهاً لأحد أبواب المسجد الحرام ومقابلًا للکعبة. تتلمذ عند المولی محمد أمین الاسترابادی (رأس الأخباریین المتأخرین، والمنظِّر العنید للمدرسة الإخباریّة، ومؤلف کتاب الفوائد المدنیّة) وورد ذکره فی «ریاض العلماء» ج ۲/ ۳۹۹، و «حدیقة الشیعة» لعبدالحیّ الرضوی، کما نقل العلّامة المجلسی فی «بحار الأنوار» ج ۱۰۷/ ۱۴ إجازته الروائیة التی أعطاها لتلمیذه عبدالرزاق المازندرانی.

ومن المؤسف أنّ هذا السید الشریف، والعالم الجلیل، والمهاجر فی سبیل اللّه، والمجاور لبیته العتیق، والمشارک فی تجدید بناء قواعده، نالته ید الغدر والخیانة.. ممن کانوا یضمرون الحقد والبغضاء لمبدئه، فتوفی رحمه اللّه شهیداًصابراً محتسباً بمکّة المکرّمة، ومَن یخرج من بیتهِ مُهاجراً إلی اللّه ورسُولِه ثمَّ یُدرِکه الموت فقد وقع أجرُهُ علی اللّه.

اعتمدنا فی طبع هذه الرسالة علی نسخة فی (کتابخانة مجلس شورای اسلامی)

ص: ۱۱

[راجع فهرست مخطوطات كتابخانه مجلس شورى اسلامى ج ۱۲/ ۷۰] وهى من الورقة ۴۲ لغاية ۵۷ بخط نستعليق من خطوط القرن الحادى عشر.

ولهذه الرسالة عدة ترجمات الى اللغة الفارسيّة [مخطوط رقم ۸۶ فى كلية الآداب- بجامعة طهران (۱)، مخطوط رقم ۸۱۳۳ مكتبة السيد المرعشى بقم] ولها تحرير ثانٍ باللغة العربية كتبه فتح اللّه بن مسيح اللّه وسمّاه ب (أبنية الكعبة). ويبدو أنّ ناسخ رسالتنا هذه لم يكن يُجيد العربيّة، فقد وقع فى هفوات كثيرة خاصة فيما ذكره من أشعار لم نعثر على مصدرها، حاولنا قدر الإمكان إزالة العُجمة عنها.

۱- ۱ قام بنشرهاصديقنا المحقق الفاضل الشيخ رسول جعفريان فى ميراث اسلامى ايران، دفتر أول‌ص ۳۹۲- ۳۶۷.

ص: ۱۲

الحمد للّهالذی جعل بیته الحرام بین جبالٍ خَشنةٍ، وأمر عباده بالحجّ به (کذا) لیحیی مَن حیَّ من المطیعین بمناسکهم الحسنة عن بیّنة، ویَهلَکَ من هَلَکَ من المتمردین بعقیدتهم الفاسدة عن بیّنة، وصلّی اللّه علی سیّدنا محمّد، المبعوث علی حین فترة من الرُّسل من الأزمنة، وآله المعصومین الذین مَن تبعهم جعله اللّه من أصحاب المیمنة.

أمّا بعدُ: فلمّا کان إدخال السرور علی المؤمنین مِن السعادة العُظمی، کما رُویت أحادیث کثیرة فی «أصول» الکلینی فی باب (إدخال السرور علی المؤمن) وأنا أروی طرفاً منها:

حدّثنی سلطان المحققین والمدقّقین الشیخ محمد أمین الاسترابادی- رحمه اللّه- بأسانیده الصحیحة وطرقه المضبوطة فی مضانها عن ثقة الإسلام محمد [بن] یعقوب الکلینی، عن عدّة من أصحابنا، عن سهل بن زیاد، ومحمد بن یحیی، عن أحمد بن محمد بن عیسی، جمیعاً عن الحسن بن محبوب، عن أبی حمزة الثمالی قال:

«سمعت أبا جعفر علیه السلام یقول: قال رسول اللّهصلی الله علیه و آله: مَنْ سَرَّ مؤمناً فقد سَرّنی، ومَنْ سرّنی فقد سرّ اللّه» (۱).

وعن عبیداللّه بن الولید الوصّافی قال: «سمعتُ أبا جعفر علیه السلام یقول: إنّ فیما ناجی اللّه به عبده موسی علیه السلام قال: إنّ لی عباداً أبیحهم جنّتی وأحکّمهم فیها.

قال: یاربّ ومَن هؤلاء الذین تبیحهم جنّتک وتُحکّمهم فیها؟

قال: مَن أدخل علی مؤمن سروراً.

ثمّ قال: إنّ مؤمناً کان فی مملکته جبّارٌ، فولع به فهرب منه الی دار الشرک، فنزل برجلٍ من أهل الشرک، فأظلّه وأرفقه وأضافه. فلما حضره الموت أوحی اللّه عز وجل إلیه: وعزّتی وجلالی لو کان فی جنتی مسکنٌ لأسکنتک فیها، ولکنّها مُحرمة علی من مات بی مشرکاً، ولکن یانار هیدیه ولا تؤذیه، ویؤتی برزقه طرفی النهار.

۱- ۱ الکافی ۲: ۱۸۸.

ص: ۱۳

قلتُ: مِنَ الجنّهٔ؟

قال: من حيث ما شاء اللّه» (۱).

وعن محمـد بن يحيى، عن محمـد بن جمهور، قـال: كـان النجاشـى- وهو رجلٌ من الـدهاقين- عاملًا على الأهواز وفارس، فقال بعض أهل عمله لأبى عبداللّه عليه السلام: إنّ فى ديوان النجاشى علىّ خراجاً، وهو مؤمن يدين بطاعتك، فإن رأيت أن تكتب لى اليه كتاباً.

فقال: فكتب اليه أبو عبداللّه عليه السلام:

«بسم اللّه الرحمن الرحيم، سرّ أخاك يسرك اللّه».

قال: فلمّا أورد الكتاب عليه وهو فى مجلسه، فلمّا خلى ناوله الكتاب فقال له:

هذا كتاب أبى عبداللّه عليه السلام!

فقبّله ووضعه على عينيه وقال له:

ما حاجتک؟

قال: خراجٌ علىّ فى ديوانک.

فقال له: وكم هو؟

قال: عشرهٔ آلاف درهم.

فدعا كاتبه وأمره بأدائها عنه، ثمّ أخرجه منها وأمر أن يثبتها له لقابل.

ثمّ قال له: سررتک؟

قال: نعم جُعلتُ فداک.

ثمّ أمر له بمركبٍ وجاريةٍ وغُلامٍ، وأمر له بتخت ثيابٍ، فى كلّ ذلک يقول له:

هل سررتک؟

فيقول: نعم جُعلت فداک.

فكلمـا قـال: نعم زاده حتى فرغ، ثم قال له: أحمل فراش هـذا البيت الـذى كنت جالساً فيه حين دفعتَ الىّ كتاب مولاى الـذى ناولتنى فيه، وارفع إلىَّ حوائجک.

قال: ففعل، وخرج الرّجلُ الى أبى عبداللّه عليه السلام، فحدّثه الرجل بالحديث على جهته، فجعل يسرُّ بما فعل.

فقال له الرجل: يابن رسول اللّه كأنّه قد سرّک ما فعل بى؟

فقال: إى‌واللّه، لقد سرّ اللّهَ ورسولَه» (۲).

وإظهـار معجزهٔ المعصومين عليهم السـلام من المقصـد الأقصـى، [ف] أردتُ أن ادخل السـرور على المؤمنين، وإظهار معجزاتهم التى ظهرت منهمصلوات اللّه عليهم سنهٔ ألف وأربعين فى تأسيس الكعبهٔ المشرفهٔ- زيدت مهابتها- فكتبتُ هذه الرسالهٔ مشتملهٔ على ثلاثهٔ

۱- ۱ الكافى ۲: ۱۸۹- ۱۸۸.

۲- ۲ الكافى ۲: ۱۹۱- ۱۹۰.

ص: ۱۴

فصول وخاتمة وسمّيتها ب «مفرحة الأنام في تأسيس بيت اللّه الحرام» وأرجو من كرم اللّه أن يجعلها سبباً لمرضاته عنّي وعن جميع المؤمنين، بجاه محمدٍ وآله الطيبين.

***

الفصل الأول: في سبب سقوط الكعبة المعظّمة- زادها اللّه مرتبةً وتعظيماً- وكيفية بنائها.

الفصل الثاني: في علة بناء الكعبة في الأرض، وبدء الطواف بها، وذكرصفة الكعبة المشرفة، وطولها وعرضها وارتفاعها من خارجها وداخلها وسقفها وأساطينها، وغلظ جدارها، وبابها وسلميها الداخل والخارج، والحِجر، والميزاب، والحَجَر الأسود، والحطيم، والمستجار، وكسوتها الخارجة والداخلة، وشاذروانها، ومطافها، والمقام والمنبر.

الفصل الثالث: في ذكرصفة المسجد الحرام، وأبوابه وأسمائها، وأساطينه، وما فيه من القباب فيصحن المسجد، وفي رواقه، وصفة زمزم المكرّم.

الخاتمة: فيصفة الأمكنة المشرّفة التي بمكة المعظمة- سوى ماذكر- مثل المولد الشريف لسيد المرسلينصلى الله عليه و آله، ومولد سيّدة نساء العالمينصلوات اللّه عليها، وعلامة مرفقه الشريف في الحَجَر المبنيّ، وذكر الجّبانتين المُعلّى والشبيكة، وما في المُعلّى من قبور أهل الصلاح، والكلام على نثرها وسجعها يوم الأربعاء سابع شوال عام ألف وأربعين.

وألتمس من إخوان الصَّفا وخلّان الوفاء إذا نظروا فيها ورأوا خللًا يُصلحونه، ويذكرونني بالخير، فإنّ الإنسان محلُّ الخطإ والنسيان، إلّامن عصمه اللّه في كلّ امرءٍ، وجَلّ من لا فيه عيبٌ وعُذر، وحسبنا اللّه ونعم الوكيل.

*** الفصل الأول

(في سبب سقوط الكعبة المعظمة- زيدت مهابتها- وكيفيّة بنائها)

اعلم ياأخي وفّقك اللّه وإيّاي في الدارين، أنّ نهار الأربعاء التاسع عشر

ص: ۱۵

من شـهر شـعبان المعظّم سـنة تسع وثلاثین بعد الألف أمطرت السـماء بمکّة المعظمة- زادها اللّه شرفاً وتعظیماً- ودخل سیلٌ عظیمٌ فی المسـجد الحرام، وامتلأ المسـجد الی أن دخل الماءُ فی جوف الکعبـة طول إنسان مربوع القامة وشبرٍ واصـبعین مضـمومتین، وأنا الذی قستُ الماءَ بطولی، حیث دخلتُ الکعبة بعد سقوطها. وکانَ عَرشُه عَلی الماء (۱)

وخرب بیوتاً کثیرةً، وأهلک من الناس کبیرهم وصـغیرهم أربعمائة واثنتین وأربعین نسمةً تخمیناً- واللَّه أعلم- من جملتهم معلّم أطفال مع ثلاثین طفلًا فی نفس المسجد، لأنه کانَ فیصُفةٍ مرتفعة فی أصل جدار من جدرانه، ولمّا دخل السیل من أبواب المسجد ماقدر علی الخروج مع أطفـاله، ورجـا نقصـان السـیل، وآخر الأـمر ما قـدر أحـدٌ من خارج المسـجد یصل الیهم حتی غرقوا. نعوذ باللَّه من شـرور أنفسنا.

ثمّ فتحوا دربَ خروجِ الماء من باب إبراهیم، وخرج السیل وبقی الماء حوالی البیت الشریف الی (۲)... الآدمی.

ودخلتُ یوم الخمیس نهار عشـرین من الشـهر المذکور، ورأیت المطاف خالیاً من الطائفین بسبب ماء السیل الذی حوالیه، فدخلتُ فی الماء وطفتُ بالبیت الشـریف سـبعة أشواط، فلمّا دعوتُ فی الحطیم [و] أردتُ أن أصـلی ما لَقیتُ مکاناً اصـلّی فیه؛ لأنّ کل واحـدٍ من مقام إبراهیم وحِجر إسـماعیل- علیهما السـلام- والمطاف کان ممتلئاً من ماء السـیل، فطلعتُ (۳) المنبر فصـلیّتُ رکعتی الطواف علیه، ولمّـا نزلتُ من المنبر سـقطت الکعبـة الشـریفة تمـام العرض الشـامی، وطول وجه الکعبـة الی الباب تقریباً، وطول ظهرها الی قریب من النّصف تخمیناً، وکنتُ آخر طائفٍ بالبیت الشریف،...

فتعجبتُ وقلتُ فی نفسـی سـبحان اللّه هـذه إشـارة عجیبـة من المعصومین علیهم السـلام لأـن تجدیـد الأساس کان من سـیّد العابـدین والزاهدین علی بن الحسـین زین العابدین علیهما السـلام (۴)(۵) فکان انتهاء قیام جـداره بطواف عبـدٍ من عبیـده زین العابدین بن نور الدین الحسینی والحمد للّه.

۱- ۱ هود: ۷.

۲- ۲ بیاض فی الأصل.

۳- ۳ یقصد أنه اعتلی المنبر.

۴- ۴ یشـیر المصـنف الی بناء الکعبة الشـریفة أیام عبدالملک بن مروان حیث هدّمها الحجاج حین حاصـر المسجدالحرام لإخراج ابن الزبیر حیث کان متحصـنا فیه، وحینما أراد الحجاج إعادة بناء الکعبة طلب من الإمام علی ابن الحسـین زین العابدین علیهما السـلام أن یتصـدی لبنائها، فوضع الإمام الأساس وأمر الناس أن یحفروا حتی انتهوا الی موضع القواعـد، قال لهم علی بن الحسـین علیهما السـلام: تنحوا فتنحوا فدنا منها وغطّاها بثوبه ثم بکی ثم غطاها بالتراب بید نفسه ثم دعا الفعلة فقال: ضـعوا بناءکم، فوضعوا البناء، فلمّا ارتفعت حیطانها أمر بالتراب فقلّب فألقی فی جوفه، فلذلکصار البیت مرتفعاً یصـعد الیه بالدرج» هذا ما رواه الشـیخ الکلینی بسنده فی «الکافی» فی کتاب الحج ۴: ۲۲۲.

۵- ۴ یشـیر المصـنف الی بناء الکعبة الشـریفة أیام عبدالملک بن مروان حیث هدّمها الحجاج حین حاصـر المسجدالحرام لإخراج ابن الزبیر حیث کان متحصـنا فیه، وحینما أراد الحجاج إعادة بناء الکعبة طلب من الإمام علی ابن الحسـین زین العابدین علیهما السـلام أن یتصـدی لبنائها، فوضع الإمام الأساس وأمر الناس أن یحفروا حتی انتهوا الی موضع القواعـد، قال لهم علی بن الحسـین علیهما السـلام: تنحوا فتنحوا فدنا منها وغطّاها بثوبه ثم بکی ثم غطاها بالتراب بید نفسه ثم دعا الفعلة فقال: ضـعوا بناءکم، فوضعوا البناء، فلمّا ارتفعت

حيطانها أمر بالتراب فقلّب فألقى فى جوفه، فلذلكصار البيت مرتفعاً يصعد اليه بالدرج هذا ما رواه الشيخ الكلينى بسنده فى «الكافى» فى كتاب الحج ۴: ۲۲۲.

ص: ۱۶

وکنت قبل هذه القضیّة قرأتُ فی کتاب الحجِّ من کتاب الکلینی فی باب (ورود تُبّع...) حدیث تأسیس علی بن الحسین علیهما السلام الکعبة المشرفة، وخطر ببالی أنّ الشیعة- رضی اللّه عنهم- کانت تفتخر بأنّ مؤسس الکعبة الشریفة بعد إبراهیم علیه السلام کان النبیّصلی الله علیه و آله وبعد النبیّصلی الله علیه و آله کان علی بن الحسین علیهما السلام فإذا جاء رجلٌ من عند سلطان الروم وبنی الکعبة الشریفة ینسَّدُ بابُ هذا الافتخار عن الشیعة... واجتهدتُ اجتهاداً عظیماً، و [کنت] أقول عسی تبنی [البیتَ] بدراهم المؤمنین بأیّةِ حیلة تکون، واحاول مع شریف مکّة المعظمة، حتی أرضیه بأن نبنیها ظاهراً باسم سلطان الروم (۱)، وباطناً بمال أخی فی اللّه وسلطان العارفینصدر الدین علی (۲)، الملقب بمسیح الزمان- أطال [اللّه] بقاه، وبلّغه غایة ما یتمناه- لحسن ظنی به، ویکون لی طریقٌ الی أساسها، وکلّما أرضیه یجیء الناس یخوّفونه من سلطان الروم، حتی وقف علی البناء، وأُرسل الخبرُ الی مصر وقسطنطینیة، فلمّا سمعوا أرسلو رجلین وکیلًا من جهة السلطان ومباشراً، وشرعوا یوم الثلاثاء الثالث من جمادی الثانی «الآخرة» سنة ألفٍ وأربعین فی هدم بقیة جدران البیت الشریف، فحثنی داعی الشوق وغلبة الوجد، ودخلت معهم فی الشُّغل (۳).

واللَّهُ یْعلَمُ المُفْسِدَ مِنَ المُصْلِح (۴)

، وسألت اللّه أن یمنحنی حُسن الأدب فی ذلک المحل العظیم، ویُلْهِمنی ما یستحقه مِنَ الإجلال والتعظیم، وأن یرزقنی منه القبول والرضا والتَّجاوز عمّا سَلَف ومضی، وکنتُ فی بعض الأوقات أجلسُ فی وسط الکعبة الشریفة وأتلو القرآن، فلمّا رآنی الوکیل والمباشر والبنّاؤون والفَعَلة اعتقدوا فیَّ اعتقاداً عظیماً ببرکة المعصومین علیهم السلام وکلّ کلام أقول لهم من جهة البیت الشریف یقولون: سمعاً وطاعةً، حتّی هدموا بقیة جدران البیت إلّاالحَجَر الفوقانی الذی علی الحجر الأسود، والحَجَر الذی تحته، فرأیت الفعلة یدوسون بأرجلهم علی الحَجَر الفوقانی الذی علی الحجر الأسود، فقلتُ للمباشر: الوقوف علی الحجر الفوقانی وقوفٌ علی الحجر

۱- ۱ یقصد به الخلیفة العثمانی فقد کانت العرب تسمّی بلاد الأناضول وترکیا الحالیة باسم الروم.

۲- ۲ لم نعثر علی ترجمته فی المصادر الموجودة.

۳- ۳ أی أقدمت علی العمل فی بناء البیت مع بقیة العمال.

۴- ۴ البقرة: ۲۲۰.

ص: ۱۷

الشريف بواسطة، فينبغي أن يُمنع الركنُ من الدّوس بأن تجعله خارجاً عن محطّ أقدام المشتغلة، فقال: بسم اللّه، فطلبتُ ألواح الخشب وجعلنا الزاويـة خارجاً عن محل تردد الفَعَلة، فانسترت (۱) الزاوية بخمسة ألواح من الخشب عدد آل العباء عليهم السلام (۲)(۳)فخطر ببالى أنّ هذه إشارة من آل العباء عليهم السلام بأنّهم يحفظون الحَجَر الأَسود... وذكرتُ لبعض الصالحين هذه الإشارة، وآخر الأمرصار كما خطر ببالي والحمد للّه.

فلما فرغوا من هدم الجُدران لقينا أساس الجدران الثلاثة فى غاية الاستحكام، ودخلوا فى الاساس من جهة العرض الشامى الذى فيه الميزاب قريب ذراعٍ وربع، وأخرجوا الصخور العظيمة، والذى احتاج الى التغيير غيّروه، وليلة الأحد الثانى والعشرين من الشهر المذكور وقع القول بأنّ غداً فى الصبح يشرعون فى التأسيس، وكنتُ أنا أُفكر تلك الليلة وأقول فى نفسى: ياربّ وقت الصبح إذا حضر أشراف مكّة والقاضى وشيخ الحرم ووكيل السلطان والمباشر وعلماء مكة... كيف يكون حالى حين التأسيس؟ وأتضرع الى من له الحول والقوة، وأناجى بهذه الابيات:

بالبيت، بالحرم الشريف، بزمزم بالحِجر والميزاب والأستار

بمقام إبراهيم مع ما حوله بالركن إلّا... سيد الأحجار

بالمروة العُظمى فضلًا بالصَّفا بفضيلة المسعى وجرى الجار

بمنى بجميع المشاعر كلّها بالواقفين بموقف الأخيار

بمحمدٍ بوصيّه وبنيّه بأئمة النجباء والأبرار أسألك أن تجعلنى مؤسساً لبيتك الحرام، وقمتُ سحر تلك الليلة، واغتسلتُ غسل دخول الكعبة ودخلتُ المسجد، وصلّيتصلاة الليل وصلاة الصبح، فرأيتُ المباشر دخل الكعبة مع جماعة قليلة من البنّائين وليس معهم أحدٌ من أهل المناصب، حتى الوكيل، كأنَّ اللّه سبحانه وتعالى قيّدهم فى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُها سَبْعُونَ ذِراعاً (۴)

فدخلتُ معهم، فقال المباشر: ياسيّد

۱- ۱ أیاخفيت وسترت.

۲- ۲ أشارة الى الحديث المشتهر بحديث الكساء وقد رواه الخاصة والعامة عن جابر بن عبداللّه الأنصارى رضى الله عنه ومفاده أن النبیصلی الله علیه و آله أحسّ فى بدنه الشريف ضعفاً فأمر فاطمة عليها السلام فغطّاها بكساء يمانى، ودخلت هى وزوجها وابناها الحسن والحسين تحت الكساء فنزل الأمين جبرائيل فأوحى الى النبیصلی الله علیه و آله قوله تعالى: إنما يريد اللّه ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً. راجع: مسند أحمد بن حنبل ۶: ۳۲۳، ۱: ۳۳۰، ۷: ۱۳۰. فضائل الصحابة ۲: ۶۳۲ ح ۱۰۷۷ و ۲: ۶۷۲ ح ۱۱۴۹، ۲: ۶۸۵ ح ۱۱۷۰.

۳- ۲ أشارة الى الحديث المشتهر بحديث الكساء وقد رواه الخاصة والعامة عن جابر بن عبداللّه الأنصارى رضى الله عنه ومفاده أن النبیصلی الله علیه و آله أحسّ فى بدنه الشريف ضعفاً فأمر فاطمة عليها السلام فغطّاها بكساء يمانى، ودخلت هى وزوجها وابناها الحسن والحسين تحت الكساء فنزل الأمين جبرائيل فأوحى الى النبیصلی الله علیه و آله قوله تعالى: إنما يريد اللّه ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً. راجع: مسند أحمد بن حنبل ۶: ۳۲۳، ۱: ۳۳۰، ۷: ۱۳۰. فضائل الصحابة ۲: ۶۳۲ ح ۱۰۷۷ و ۲: ۶۷۲ ح ۱۱۴۹، ۲: ۶۸۵ ح ۱۱۷۰.

۴- ۳ الحاقة: ۳۲.

ص: ۱۸

العابدين اقرإ الفاتحة.

فرفعت يـدى وقرأت الفاتحـة، بعـدها دعوتُ بالـدعاء المسـمّى بـدعاء سـريع الإجابة، الذى رواه محمد بن يعقوب الكلينى فى (أصول الكافى) فى كتاب الدعاء وهو هذا:

«اللهم إنّى أسألـك باسـمک العظيم، الأعظم، الأجلّ، الأكرم، المخزون، المكنون، الحقّ، البرهان المبين، الـذى هو نورٌ على نور، ونورٌ من نور، ونورٌ فى نور، ونورٌ على نور، ونورٌ فوق كـلّ نور، ونورٌ على كـلّ نور، ونور يُضـىء به كُلّ ظُلمـة، وتكسرُ به كلّ شـدة، وكلّ شيطان مريد، وكلّ جبار عنيد، ولا تقرُّ به أرضٌ، ولا تقوم به سـماءٌ، ويا من يؤمن به كلّ خائف، ويُبطل به سِـحرُ كلّ ساحر، وبغى كلّ باغ، وحسد كلّ حاسد، ويتصدّع لعظمته البرُّ والبحر، ويستقر به الفلك حين يتكلم به الملك فلا يكون للموج عليه سبيل، وهو اسمک الأعظم، الأجلّ، الأكرم، النور الأكبر الـذى سـمّيت به نفسک، واسـتويت به على عرشک، واتوجَّه إليک بمحمـدٍ وأهل بيته، وأسألک بک وبهم أن تُصلّى على محمدٍ وآل محمد».

ودعوتُ... وأخـذتُ حَجَر الركن المبارك الغربى وهو الآن فى داخل الأساس، وجاء رجلٌ من المؤمنين اسـمه محمـد حسـين من أهل أبرقوه (۱)بطاسٍ من النّورة وكبّ (۲) فى الأساس، وفرشتُ تلک النُّورة بيدى، وقلتُ:

«بسم اللَّه الرحمن الرحيم، اللهم ثبّت دولة محمدٍ وآل محمد، وعجّل فرجهم»

وحطّيت (۳) ذلک الحَجَر فى زاوية الركن الشريف الغربى فى أساس إبراهيم عليه السلام والحمد للَّه.

وشرعت فى البناء، وقلتُ أوّل شروعى:

«اللهم إنىاشـهدک وملائكتـک المقربين بـأنى أشـركتُ معى جميع المـؤمنين والمؤمنـات، أحيـائهم وأمواتهم، والـذين فى أصـلاب الرجال، وفى بطون الامهات الى يوم الدين فى عملى هذا»، واغتنمت الفرصة، وللَّه دَرُّ القائل:

تمتّع إن ظفرتَ بنيل قرب وحصّل ما استطعت من ادخار

۱- ۱ مدينة من أعمال شيراز ببلاد فارس.

۲- ۲ وكبّها أىأدارها.

۳- ۳ وضعت.

ص: ۱۹

فقد وسعت أبواب التدانی وقد قربت للزوار داری

وقد بنیت نسیمات بنجد فطب واشرب بکاسات لباری

فودّع أهل نجدٍ قبل بُعد فما نجدٌ ولم تُحلل بدار

أقولُ لمن لم یمرَّ بأرض نجدٍ ویظفر مِنْ رُباها بالدیار

تزوّد من شمیم عرار نجدٍ فما بعد العشیة من عرار واشتغلت الی نصف النهار، وحطّیت أحجاراً کثیرة حتی ارتفع تمام جدار العرض الشامی من أصل الأساس قریب ثلاثة أذرع، فلمّا قضیتُ من ذلک الوطر، ومتَّعتُ عینی من ذلک الأساس بالنظر لاتحف بوصفه المشتاقین، وأنشر من طیّب أخباره فی المحبّین، وقع الکلام... بأنّ الذی أسس الکعبة مجتهدُ الرافضة، فلمّا سمعتُ هذه الحکایة قلتُ: «موتوا بغیضکم ما لکم من علاج، قد کان ما کان» فقلّلت المدخلَ؛ لأنّ الذی یُفهم من حدیث علی بن الحسین علیه السلام الآتی ذکره نفس التأسیس فقط، لا بناء الجدران (۱)، فاحضر بعض الأوقات وأغیب بعضها حتی وصل العمل الی الرکن الذی فیه الحَجَر الأسود یوم التاسع من رجب، هذا وأنا أتّقی وما أدخل معهم فی الشغل، فذکرتُ لبعض أشراف بنی حسن- هو شریک سلطنتهم- وقلتُ له: أحضر الکعبةَ عسی أن تمنعهم من أن یرفعوا الحَجَر، والهمتُ فی ذلک الیوم بقراءة الدعاء المبارک السّیفی، فلمّا قرأت سبعاً وعشرین مرةً وصل الیّ الخبر بأنْ لما کشفوا الحجر تخیّل لهم کأنّه تنینٌ عظیم یرید أن یأکلهم، ودخل السید علی بن برکات- أیده اللّه تعالی- وهو من أکابر أشراف بنی حسن ومنعهم أیضاً وقال لهم لا تشیلوه (۲)!

فالحاصل، منع المعصومون علیهم السلام (الآخرین) أن یرفعوا الحَجَر الأسود، وأعطانا اللّه برکاتهم علیهم السلام منصب التأسیس هذا عطاؤنا فَاْمنُنْ أو أمسِکْ بغَیر حِساب (۳)

، وکانَ حَقًّا علینا نَصْرُ المؤمنین (۴)

.

ویوم الثانی والعشرین من رجب هذا المذکور علّقوا الباب الشریف،

۱- ۱ أی‌نفهم من الحدیث الذی رواه الکلینی عن بناء أساس البیت الشریف علی ید سیدنا الامام زین العابدین علیه السلام هو أن کلمة تأسیس البیت یطلق علی بناء القواعد فقط دون الجدران.

۲- ۲ أی‌لا ترفعوه.

۳- ۳ص: ۳۹.

۴- ۴ الروم: ۴۷.

ص: ۲۰

ويوم الثالث عشر من شعبان بعد رجب أدخلنا أعمدة سقف بيت اللّه الحرام، ويوم الخامس عشر دخلتُ الكعبة ووضعت فى باطن جدارها أربعةً من الأحجار: وضعت حجراً فى نفس زاوية الحَجَر الأسود، وحجراً فى الحطيم، وحجراً فى مولد أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام (وهو بعيد عن زاوية الحَجَر بثلاثة أذرع من جهة الركن اليمانى تخميناً، واللّه أعلم) وحجراً قرب زاوية الركن اليمانى.

ويوم الثامن عشر من هذا الشهر أدخلنا ألواحاً بين أعمدة السّقف ورُكّبت مع الأعمدة، ويوم التاسع عشر من شعبان المذكور رُكّبَ ميزاب الرّحمة، ويوم الثانى من شهر رمضان المعظم بعد شعبان المذكور المبارك شرعوا فى عمل الرّخام فى سطح الكعبة الشريف، ويوم التاسع منه ابتدأوا فى شغل رخام باطن جدران الكعبة وأرضها، وفى يوم الأربعاء التاسع والعشرين منه تمّ العمل، و [يوم] الجمعة آخر الشهر، أعنى شهر رمضان المذكور دخل الخلقُ الكعبة. والحمد للّه.

فأول التأسيس الى آخر البناء ثلاثة أشهر وخمسة أيام. وموافقة ابتداء هذا الأساس مع أساس على بن الحسين زين العابدين عليه السلام وهو أساس العرض الشامى الذى رماه الحجّاج بالمنجنيق؛ لأن أساس الجدران الثلاثة على حالها الأوّل، وموافقة اسم العبد الذليل مع اسم شريفٍ على بن الحسين زين العابدين عليهما السلام، وكمال ضعفه، وقلة حيلته... مع هذا يؤسس بيت [اللّه] الحرام، لاشك فى أنّ هذا معجزة من معجزات المعصومين عليهم السلام لإدخال السرور على محبّيهم كى يفرحوا ويذيعوا (۱) فى التواريخ والتصانيف حتى بهذا الخبر من كان فى أصلاب الرجال، ويتيقّنوا بأنّ المعصومين عليهم السلام ليسوا غافلين عن حال رعيتهم فى كلّ أوانٍ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ والمُؤمِنُونَ (۲)

.

ونُشرّف هذا الفصل بالحديث الشريف الذى فيه ذكر تأسيس على بن الحسين عليه السلام [الذى] رواه ثقة الإسلام محمد بن يعقوب الكلينى فى (كتاب الحج) فى باب (ورود تُبّع) عن عدّة من

۱- ۱ فى الأصل: يؤخروا وهو خطأ.

۲- ۲ التوبة: ۱۰۵.

ص: ۲۱

أصحابنا، عن أحمد بن محمد بن أبی عُمیر، عن أبی علیصاحب الأنماط، عن أبان بن تغلب قال:

«لمّا هَدّم الحجّاجُ الکعبة فرّق الناس ترابها، فلمّاصاروا الی البناء فأرادوا أن یبنوها خرجت علیهم حَیّة فمنعت النّاس البناء، حتّی هربوا فأتوا الحجّاج فأخبروه، فخاف أن یکون قد مُنع بناؤها، فصعد المنبر ثم نشد الناس وقال:

أنشد اللّه عبداً عنده مما ابتلانا به علمٌ لما أخبرنا به.

قال: فقام الیه شیخٌ فقال: إن یکن عند أحدٍ علمٌ فعند رجلٍ رأیته جاء الی الکعبة فأخذ مقدارها ثم مضی!

فقال الحجاج: من هو؟

فقال: علی بن الحسین علیهما السلام.

فقال: هو معدنُ ذلک، فبعث الی علی بن الحسین علیه السلام فأتاه فأخبره ما کان من منع اللّه إیّاه البناء.

فقال له علی بن الحسین علیه السلام:

یاحجّاج! عمدتَ الی بناء إبراهیم وإسماعیل فألقیته فی الطریق وأنمیته، کأنک تری أنه تراثٌ لک، اصعد المنبر وأنشد الناس أن لا یبقی أحدٌ منهم أخذ منه شیئاً إلّاردّه.

قال: ففعل وأنشد الناس أن لا یبقی منهم أحدٌ عنده شی إلّاردّه فردّوه، فلمّا رأی جمیع التراب علی بن الحسین علیه السلام فوضع الأساس وأمرهم أن یحفروا منه فتغیّبت عنهم الحیّة، وحفروا حتی انتهوا الی مواضع القواعد.

قال لهم: تنحّوا، فتنحوا فدنا منها فغطّاها بثوبه ثم بکی، ثمّ غطّاها بالتراب بید نفسه، ثمّ دعا الفعلة فقال:

ضعوا بناءکم فوضعوا البناء، فلمّا ارتفعت حیطانها أمر بالتراب فقلب فی جوفه، فلذلکصار البیت مرتفعاً یُصعد الیه بالدرج» (۱).

الفصل الثانی

«علة بناء الکعبة المشرفة، وبدء الطواف بها، وفضلها، وذکرصفة الکعبة المُعظّمة، وطولها وعرضها وارتفاعها من خارجها وداخلها، وسقفها وأساطینها وغلظ جدارها، وبابها وسلمیها الداخل والخارج،

۱- ۱ الکافی ۴: ۲۲۲.

ص: ۲۲

والحِجْر، والمیزاب، والحَجَر الأسود، والحطیم، والمستجار، وکسوتیها الخارجة والداخلة، وشاذروانها، ومطافها، والمقام، والمنبر».

ولنزیّن هذا الفصل بأحادیث المعصومین علیهما السلام:

روی محمد بن یعقوب الکلینی رحمه الله فی أول کتاب الحج من «الکافی» فی باب (بدء البیت والطواف) بسنده عن أبی عبداللّه علیه السلام عن أبیه علیه السلام قال:

«... أمّا بدء هذا البیت، فإنّ اللّه تبارک وتعالی قال للملائکة: إنی جاعلٌ فی الأرضِ خَلیفةً (۱)

فردّت الملائکة علی اللّه عزوجل أتَجْعَلُ فیها مَن یُفسِدُ فیها وَیَسفِکُ الدِّماءَ (۲)

فأعرض عنها، فرأت أن ذلک من سخطه فلاذت بعرشه، فأمر اللّه ملکاً من الملائکة أن یجعل له بیتاً فی السماء السادسة یُسمی الضراح بازاء عرشه فصیّره لأهل السماء، یطوف به سبعون ألف ملکٍ فی کلّ یوم لا یعودون ویستغفرون. فلما أن هبط آدم الی سماء الدنیا أمره بمرمّة هذا البیت وهو بإزاء ذلک، فصیّره لآدم وذریته کماصیّر ذلک لأهل السماء...» (۳).

وبسنده عن أبی خدیجة قال: «إن اللّه عزوجل أنزل الحجر لآدم علیه السلام من الجنة، وکان البیت دُرّة بیضاء، فرفعه اللّه عزّوجلّ الی السماء وبقی أسّه وهو بحیال هذا البیت یدخله کلّ یوم سبعون ألف ملکٍ لا یرجعون إلیه أبداً، فامر اللّه عزوجل إبراهیم وإسماعیل ببنیان البیت علی القواعد» (۴).

وبسنده عن أبی عبداللّه علیه السلام قال:

«إنّ اللّه عزّوجل دحا الأرض من تحت الکعبة الی منی، ثم دحاها من منی الی عرفات، ثم دحاها من عرفات الی منی، فالأرض من عرفات، وعرفات من منی، ومنی من الکعبة» (۵).

وبسنده عن أبی عبداللّه علیه السلام قال:

«إنّ اللّه تبارک وتعالی جعل حول الکعبة عشرین ومائة رحمة منها: ستون للطائفین، وأربعون للمصلّین، وعشرون للناظرین» (۶).

والأحادیث فی فضل الکعبة کثیرة فمَن أرادها فلیرجع الی کتاب الکلینی رحمه اللّه وأدام منفعته للمؤمنین الی یوم الدین، بحقّ محمدٍ وآله الطاهرین.

۱- ۱ البقرة: ۳۰.

۲- ۲ البقرة: ۳۰.

۳- ۳ الکافی ۴: ۱۸۷- ۱۸۸، الضراح: بضم الضاد المعجمة ثمّ الراء والحاء المهملة: البیت المعمور، انظر الصفحة نفسها فی الکافی.

۴- ۴ الکافی ۴: ۱۸۸- ۱۸۹.

۵- ۵ الکافی ۴: ۱۸۹.

۶- ۶ الکافی ۴: ۲۴۰.

ص: ۲۳

اعلم یا أخی أیّدنی اللّه وإیاک، أن الکعبة المشرفة- زیدت مهابتها- بعض جدرانها أطول من بعض ولها طولان وعرضان:

أما الطول الأول: من الرکن العراقی- وهو الذی فیه الحَجَر الأسود- الی الرکن الشامی، وهو خمسة وعشرون ذراعاً، وهو وجهها وفیه بابها.

وأمّا الطول الثانی: فمن الرکن الیمانی الی الرکن الغربی، وهو خمسة وعشرون ذراعاً، وهو ظهرها وفیه بابها المسدود.

وأما عرضها الأول: فمن الرکن الشامی الی الرکن الغربی، وهو إحدی وعشرون ذراعاً، وعلیه المیزاب.

وأمّا عرضها الثانی: فمن الرکن الیمانی الی الرکن العراقی، وهو إحدی وعشرون ذراعاً وشبر.

وأمّا ارتفاعها فی الهواء: فثلاثون ذراعاً، والسقفُ منها علی کمال سبع وعشرین ذراعاً، وهو علی ثلاثة أعمدة غلاظ فی جدار الطول، علی ثلاث أساطین مُصطّفة ما بین عرضیها، ولها سقفٌ ثانٍ لکن لیس [له] عملٌ إلّاالربط أستارها الظاهرة.

وأما طولها من داخلها: فالأول: هو الوجه فسبع عشرة ذراعاً.

وأما عرضها الأول: وهو الشامی فخمس عشرة ذراعاً.

وأما الثانی: وهو الظهر فثمانیة عشر ذراعاً.

وأما ارتفاعها فی الهواء: فسبعة وعشرون ذراعاً وربع ذراع، فاثنتان وعشرون ذراعاً الی السقف الاول الذی علیه العمل، وخمسة وربع ذراع الی السقف الثانی الذی لیس علیه عمل.

وأما غلظ جدرانها الأصلیّة الخالیة من الرخام: فأربعة أشبار وأربع أصابع مضمومة فی بطن الجدران، فی کلّ قامةٍ لوحٌ من الخشب عریضٌ متین لحفظ الجدار فی خمسة مواضع. وحجارته من الخارج منحوتة ضخمة علی عادة بناء الأقدمین.

وأمّا بابها: فطوله سبعة أذرع ونصف، مصفحٌ بالفضة، مطلیّ

ص: ۲۴

بالذهب، منقشٌ بنقش عجیب، وفیه أربعٌ [حَلَقٍ] من الفضۀ، فالعلیا منهاسمسۀ مشبکۀ مستدیرة مع بعض استطالۀ، وهی فی العظم والغلظ متوسط.

وأمّا السُّلقی: فکسائر الحَلَق مقدار غلظ الإصبع، وبینهما قفل حدید مُذَّهب متوسط الکبر له ثلاث زرر فضۀٍ غلاظ، وعلی دوره حلق حدید ثمانیۀ، أربع فی الشق الأیمن، وأربع فی الشق الأیسر لربط الأستار التی حوله.

وأما عتبته: فحجرٌ أزرقٌ.

وأمّا سُلّمها: فالخارج سبع ادراج، وهو من الخشب الصنوبری مُحلّی بصفائح النحاس والحدید، تجری علی أربع بکرات نحاس، وطوله علی قدر ارتفاع الباب فی الجدار، وعرضه علی قدر عرضه أیضاً.

وأما الداخل: فهو فی عرضها الشامی قریباً من الرکن، علیه جدار رخامٍ یستره وله بابان:

الأول: من أسفل الی وسطه.

والآخر: من أعلاه الی سطحها.

وعدد درجه: تسع وعشرون درجۀ مستدیرة کالمنارة.

وأما سطحها: فمرخمٌ أیضاً.

وأما حِجر إسماعیل علیه السلام: فالجدار القصیر المستدیر کنصف دائرة المقابل العرض الشامی، وفیه قبر هاجر أمِّ إسماعیل علیه السلام وشُبّر وشُبیر ابنی هارون ابن عمران علیهما السلام کما ورد فی الأحادیث الشریفۀ، وارتفاع جداره ذراعان ونصف، وعرضه مثل ذلک. وطول سعته من جدار عرض الکعبۀ الی جدار طرفی الحِجر المقابل لجدار العرض الذی فیه المیزاب ستۀ عشر ذراعاً ونصف الذراع، وعرض سعته من طرفه الی طرفه الآخر عشرون ذراعاً. وله فجوتان وهما باباه، وسعۀ کلّ واحدٍ منهما ذراعان ونصف، وهو مرخمٌ کلّه- وجداره کذلک- برخام أبیض وأکحل وأحمر وأخضر، قطعٌ ووصلٌ عجیبٌ، وفی وسطه قریباً من جدار العرض حیث ینزل ماء المیزاب رخامۀ خضراء مائلۀ الی الصفرة مستدیرة کالمحراب، وعن یمینها وشمالها محاریب الی طرفیها المتوازیین الی الرکن الشامی والمغربی.

ص: ۲۵

وأما ميزاب الكعبة: فهو قطعة خشبٍ عليهصفائح الفضة المذهبة من أوله الى آخره، وطوله أربعة اذرع ونصف، وعرضه ثلثا ذراع، وارتفاعه مثل ذلك.

وأما الحجر الأسود: المغروز فى الركن العراقى فطوله فى الظاهر نصف شبر، وعرضه شبر، وارتفاعه فى الجدار ثلاثة أذرع. وطوله الأصلى الذى فى باطن الجدار ثُلثا ذراعٍ بذراع عمل البنائين، وعلى عرضه الذى فى داخل الجدار وثائق ثلاث من فضة فى ثلاثة مواضع، وعلى طوله الذى فى الجدار دائرةٌ من الفضة لحفظ الخدش الذى فيه. وعلى طوله وعرضه فى الخارج أيضاً فضة دائرة.

وأمّا الحطيم: فهو ما بين باب الكعبة الى الحجر الاسود، وهو أفضل بقاع الأرض، وفيه قبلت توبة آدم عليه السلام.

وأما المستجار: فهو فى مقابل الحطيم، ظهر الكعبة، من الباب المسدود الى الركن اليمانى.

وأما كسوتها الخارجة المعظمة: فأربعة أرباع، وكلّ ربعٍ على جدار من جدرانها الأربعة، وكلّ ربعٍ جُزءَان.

وأما ربع وجهها جزءٌ منه سبع شقق، وجزءٌ منه ثمانى شقق.

وأما ربع ظهرها فمثل ذلك.

وأما ربع عرضها الشامى ففى كلّ جزء من جزئه أيضاً ست شقق، وعرض الشقة ذراع وثلثا ذراع.

وأما شققها: أربعٌ وخمسون شقة من الحرير الخالص الأسود، مكتوب عليه (اللّه ربّى، لا إله إلّااللّه، محمّدٌ رسول اللّه) محبرة محابراً شبه الدلل (والتحبير هو التخليط) وعلى قدر ثلثى ارتفاعها طراز مخيط بخيوط الفضة المذهبة، دائرة عليها كالمنطقة، عرضه كعرض الشقة، مكتوبٌ عليه: إنّ أوّلَ بيتٍ وُضِعَ للنّاسِ... (۱)

وكلّ آية فيها ذكر البيت، واسم السلطان، وتاريخ عملها.

وهذه الأرباع والأجزاء مُبطّنة بخامٍ أبيض يجمعها إزارٌ من القطن أبيض متوسطة الغلظة، وكذلك شريطها الذى أوثقها من أعلاها وأسفلها.

وأما وثيقتها من أعلاها: ففى حَلَقٍ وخشب معرضته فى ثلثى الذى وصفناه فيما تقدّم.

۱- ۱ آل عمران: ۹۶.

ص: ۲۶

وأمّا وثیقتها من أسفلها: ففی حلقٍ متوسطة الغلظة مغروزة علی ظهر الشاذروان، وعددها سبع وأربعون حلقة، وفی ربع الوجه البرقع وهو الستر الذی علی الباب، وهو قطعتا حریرٍ أسود عرض الشّقة، طوله من أعلی الباب الی أسفل الجدار، علیه نقوشٌ وخواتیم عجیبة ومحاریب وقنادیل شُغل الإبرة بخیط الفضّة الخالصة المُذَّهبة وغیر المُذَّهبة، حتی طمست الحریر، ولم یظهر إلّاکأنه منسوجٌ، ومکتوبٌ علی حواشیه: قُلْ هُوَ اللَّهُ أحدٌ ولإیلافِ قُرَیشٍ وآیة لقدصدَقَ اللَّهُ رسُوُلَه الرُّؤیا بالحَقّ (۱)

.

وأما کسوتها الباطنة: فی تخریمتها وتبطینها وتزریرها وتوثیقها کالظّاهرة، غیر أنّها لیست بموثقة من أسفلها، ولونها أبیض، وأسماء الصحابة مکتوبة علیها، وکسوةالأساطین والسقف مثلها.

وأما شاذروانها الأصلی المحیط:

فارتفاعه ثُلثا شبرٍ وعرضه نصف ذراع، وفی کتب الشافعیة مذکورة قصة وهی: «أنّ السیل هدم الکعبة قبل مبعث النبیّصلی الله علیه و آله بعشرین سنة، فأعادت قریش عمارتها علی البنیّة التی علیها الیوم؛ ولم یجدوا من الأموال الطیّبة ما یفی بالنفقة فترکوا من جانب الحِجر بعض البیت وأخّروا الرکنین الشامیین عن قواعد إبراهیم علیه السلام وضیّقوا عرض الجدار الذی بین الرکنین [الحَجَر الأسود] والشامی الذی یلیه، وبقی من الأساس الذی کان مرتفعاً وهو الذی یُسمی شاذروان».

وأنا لا اعتقد بهذا القول؛ لأن الشیخ الصدوق محمد بن علی بن الحسین بن موسی بن بابویه القمّی رحمه الله روی فی أول کتاب الحج من کتاب (من لا یحضره الفقیه) عن المعصومین علیهم السلام هذه العبارة الشریفة هکذا:

(وما فی الحِجر شیء من البیت ولا قلامة ظُفرٍ) (۲).

وعلی ظهر شاذروانها جُصٌّ مسندٌ الی جدارها ارتفاع... قدصُفت علیه ألواح رخامٍ طولها ذراع ونصف، فصار لأجل ذلک محدودباً کلّه لا تثبت علیه رجلٌ إلّاعند الباب.

وأما مطافها: فهو مفروش

۱- ۱ الفتح: ۲۷.

۲- ۲ من لا یحضره الفقیه ۲: ۱۹۳.

ص: ۲۷

بالرُّخام، وعلى دوره أساطين مستديرة لاستدارته، عددها ثلاث وثلاثون أسطوانة، وعلى كلّ واحدة قبةصغيرة، وعلى بعض القبة هلالٌ وكلاهما منصفر، وبين كلّ اسطوانتين ميل حديد، وطرفاه مغروزان فى الاسطوانتين اللتين على طرفه، ومعلّق على هذا الميل سبعة قناديل تُسرج فى الليالى، وسعة دوره مائتان وثمان عشرة ذراعاً، سعته من الركن العراقى الى طرفه المنتهى الى قبة زمزم سبع وثلاثون ذراعاً، وسعته من الركن الشامى الى طرفه الذى قرب المقام ثلاث وثلاثون ذراعاً، وسعته من الركن الغربى الى المحيط المقابل له خمس وثلاثون ذراعاً.

وأما مقام ابراهيم عليه السلام: فحجرٌ مربع طول... (۱) طوله ذراع، وعرضه قدر نصف ذراع، وارتفاعه قدر ثلثى ذراع، فيه الآيات البيّنات موضع قدمى إبراهيم الخليل عليه السلام وهو مواجه لوجه البيت، بل مائل عن البيت الى جهة اليمين للداخل قليلًا، وفى زمان إبراهيم عليه السلام كان لاصقاً بالكعبة فحوّلته قريش، فردّه رسول اللّهصلى الله عليه و آله فحوّله عمر فى خلافته الى مكان كفار قريش كما روى رئيس الطائفة الشيخ الطوسى- طاب ثراه- فى كتاب (التهذيب) فى زيادات الحج بسنده عن عبداللّه بن ميمون القدّاح، عن جعفر، عن أبيه عليهما السلام قال: «كان المقام لازقاً بالبيت، فَحوّله عُمر» (۲).

ونحن مأمورون من المعصومين عليهم السلام بأن نُصلّيصلاة الطواف الواجب فى المكان الذى فيه الآن حتى يظهر المهدى عليه السلام.

وعليه قبّة منصفائح الحديد طولها قدر ذراعين وثلثى ذراع، وعرضها قدر ذراعين ونصف، لها بابصغير عليه قفل من حديد وعليها كسوة حرير.

وهى منقوشة أيضاً كنقش البرقع إلّا أنها أخفُّ نقشاً منه، مكتوب على جوانبها: إنّ أوّلَ بيتٍ وُضِعَ للنّاس... (۳)

وكلّ آيةٍ فيها ذكر البيت واسم السلطان، وهذه القبة فى وسط قبةٍ أخرى منقوشة بالذهب، وبين أساطينها شبابيك حديد، ولها هلالٌ مذهبٌ عجيب، وعلى بابها رواقٌ على أسطوانتين، وبابها أحد شبابيكها وهو

۱- ۱ بياض قدر كلمة.

۲- ۲ التهذيب ۵: ۴۵۴.

۳- ۳ آل عمران: ۹۶.

ص: ۲۸

فی رواقها وعلیه قفل، وعلی الرواقصُفَّة مزخرفة مذهّبة عجیبة، وعلی سطحها و سطح الرواق ألواح رصاص بین کلّ لوحٍ ولوحٍ تالیه ضلع، شغل عجیب متقن لم أر مثله، وارتفاع هذه القبة ورواقها ارتفاع جیّد متوسط، وطولها ستة أذرع وعرضها خمسة أذرع.

وأما المنبر: فعالٍ ضخمُ الهیکل، من الرخام الأبیض، عدد درجاته ست عشرة درجة، وعلی جوانبه خواتم من نفس الجنس (۱)، وعلی درجته العلیا قبّة عجیبة علی أربع اسطوانات علی هیئة الشکل الصنوبری، مذهبة وعلی رأس القبّة شبکة فیها لفظتا (الجلالة) و (محمد) مشبکة بشکل رأس الرایة، وعلی الدرجة السفلی بابٌ من الصفر علیه شراریف حسان من الصفر.

*** الفصل الثالث

فی ذکرصفة المسجد الحرام، وأبوابه وأسمائها وأساطینه، وما فیه من القباب فیصحن المسجد، وما علی رواقه، وصفة زمزم المکرم، والصفا والمروة.

اعلم أیّها الأخ اللبیب، جعلنی اللّه وإیاک فی جوار المعصومین علیهم السلام أن المسجد الحرام أیضاً بعض جوانبه أطول من بعض، وهو متسع مُحصَّبٌ إلّاخلف المقام، وحیث یوقف درجة البیت والمنبر، وبین یدی زمزم فإنه مفروش مرّخم، وطوله أربعمائة ذراع، وعرضه مائتان وسبعون ذراعاً سوی الزیادتین الآتی ذکرهما، وجدرانه عالیة، وشراریفه بادیة، وفی کلّ رکنٍ من الأربعة منارةٌ طویلةٌ، وما بین جدار العرض الذی فی مقابل وجه الکعبة أیضاً منارتان، وما بین جدار الطول الذی فی مقابل العرض الشامی الذی فیه المیزاب أیضاً منارة، والکعبة فی وسط المسجد کالعروس، وجملة عدد منائر المسجد سَبعُ منائر، وفیه زیادتان خارجتان من تربیعه:

فالأولی فی الطول المقابل للعرض الشامی.

والثانیة فی جانب عرضه لظهرها.

وأما أبوابه: فتسعة عشر باباً.

۱- ۱ فی المخطوط: الجسد وهو خطأ والصحیح ما أثبتناه.

ص: ۲۹

الباب الأول: باب السلام وله ثلاثة منافذ.

الباب الثانی: باب الدریبة وله مدخلٌ واحد.

الباب الثالث: باب السُّویقة، وهو فی الزیادة الأولی، له أیضاً ثلاثة منافذ.

الباب الرابع: باب الفهود، وهو فی الزیادة الأولی وله مدخلٌ واحد.

الباب الخامس: باب العجلة، وهو مشهور بباب الباسطیة وله مدخلٌ واحد.

الباب السادس: باب السُّدة وله مدخلٌ واحد، ولجنبه من جهة الیمین بیت الفقیر، ومتصلٌ به مسکنی وله شبابیک تجاه الکعبة الشریفة، والحمدللّه الذی جعلنی من جیران بیته الحرام.

الباب السابع: باب العُمرة وله مدخلٌ واحد.

الباب الثامن: باب إبراهیم، وهو فی الزیادة الثانیة وعلیه قصرٌ عالٍ، وله مدخلٌ واحد.

البـاب التاسع: باب حزورة، وهو فی الزیادة الثانیـة وعلیه قصـر عالٍ، وله مـدخلٌ واحـد الی حزورة، وعوام الناس یُسـمونه عزورة بالعین المهملـة، وهو غلطٌ؛ لأنصاحب «النهایـة» ذکر فی کتابه حزورة بالحاء المهملـة (۱)، وذکر حـدیث عبداللّه بن الحمراء أنه سـمع رسول اللّهصلی الله علیه و آله وهو واقفٌ بالحزورة من مکّة، وهو موضع عند باب الحنّاطین.

روی رئیس الطائفة محمد بن الحسن الطوسـی رحمه الله فی کتاب (التهذیب) الحدیث هکذا: الحسن بن سـعید، عن عبداللّه بن سنان، عن أبی عبداللّه علیه السلام قال: «خَطّ إبراهیم علیه السلام بمکّة ما بین الحَزورة الی المسعی» (۲) وله مدخلان.

الباب العاشر: باب أمّ هانی، له مدخلان.

الباب الحادی عشر: باب الرحمة، وله مدخلان.

الباب الثانی عشر: باب المجاهدیة، وله مدخلان.

الباب الثالث عشر: باب جیاد، وله مدخلان.

الباب الرابع عشر: باب الصَّفا، وله خمسة منافذ.

الباب الخامس عشر: باب البغلة، وله مدخلان.

۱- ۱ النهایة ۱: ۳۸۰.

۲- ۲ التهذیب..

ص: ۳۰

الباب السادس عشر: باب بازان، وله مدخلان.

الباب السابع عشـر: باب أمير المؤمنين، وإمام المتّقين، ويَعسوبُ المسـلمين، وقائد الغُرّ المحجّلين، قاتل الناكثين والقاسـطين والمارقين، أسد اللَّه الغالب، على بن أبى طالب عليه السلام وله ثلاثة منافذ.

الباب الثامن عشر: باب العباس، وله ثلاثة منافذ.

الباب التاسع عشر: باب الجنائز، وله مدخلان.

فجملة منافذه ومداخله تسع وثلاثون.

وأمّا أساطينه التى هى خارجـة عن الجـدار، خمسـمائة أسـطوانة، ففى طوله المقابل لعرضـها اليمانى ثلاثةصـفوف، وفى طوله المقابل لعرضـها الشامى- وفيه الزيادة الأولى كما تقدم- ثلاثةصـفوف أيضاً، وفى بعضه أربعة. وفى عرضه المقابل لوجه الكعبة ثلاثةصفوف، و فى عرضه المقابل لظهرها ثلاثةصفوف أيضاً.

فجملة الخمسمائة فى هذه الصفوف الإثنى عشر، والتى غير خارجة تقرب من ستين أسطوانة، واللَّه أعلم.

وأما الذى فيصحن المسجد من القباب فثلاث:

القبة الأولى: قبة العباس رضـى الله عنه وهى مربعة حسنة البناء، ولها شراريف، ولها ستة شبابيك حديد من جهاتها، وملصقٌ الى ظهرها قبةصغيرة قد ضمّها تربيعاً حتيصارتا كالقبة الواحدة لم يفترقا إلّافى المدخل. وفى وسطها حوضٌ مستدير متوسط العظم من ألواح رخام مضلّعة بالرصاص، وفى وسطه قصبة لدخول الماء.

القبـة الثانيـة: قبة الفراشـين، وهى مربعة أيضاً، ولها سـتة شـبابيك، وفى زاويتها الشـرقية حجر فيه أثر قدم النبيصـلى الله عليه و آله واللَّه أعلم.

القبـة الثالثة: قبة زمزم، وهى مر بعة عالية، و لها ثمانية شـبا بيك حديد من جهاتها الثلاث، وسـقفها منفرجٌ وملصق اليها من جهتها التى تقابل باب الصَّفا فيه [فتحة]صـغيرة مستطيلة، لها ثلاثة شبابيك حديد وعلى سطح الكبير رواق مزخرف، يؤذنونفيه، وعليهقبةٌلها هلال، وله درجٌ أوله عند الباب وآخره على

ص: ۳۱

عجزالقبة، وفیرأس الدرج بابصغیرٌ.

وأمّا بئر زمزم: وهو فی وسط هذه القبة أیالکبیرة، وطوله أربعون ذراعاً وعلیه خرزة من ألواح رصاص لها أضلاع، بین کلّ ضلع منها والآخر لوح رخام، وعلی دوریها طوقان من حدید بینهما أمیال من حدید، بین کلّ میلین لوحٌ من نحاس مستدیرة کاستدارتها، وارتفاع هذه الخرزة ذراعٍ وثُلثا ذراع، وعرضها شبرٌ وثلاثة أصابع، ودورها عشرون ذراعاً، وهی عظیمة الهیکل، هائلة المنظر، وعلیه بکراتٌ فی الخشبتین المغروزتین، أحد طرفیهما فی جدار الباب، وطرفهما الآخر فی الجدار المقابل له، الذی ینتهی الیه طرف المطاف، وعلی الخشبتین خشبتان اخریان لتغلیق البکرات.

وأمّا القباب اللّاتی علی رواق المسجد: مائة وعشرون قبة، واللّاتی علی الزیادتین إحدی وثلاثون قبة، ست عشرة فی الأولی، وخمس عشرة فی الثانیة.

وأما الأمکنة المُبتدعة (۱) لکلّ إمام فلا حاجة الی ذکرها.

وأما الصّفا: کما روی عن المعصومین علیهم السلام أن المصطفی- آدم- نزل علیه؛ لأن اللّه تعالی قال فی کتابه العزیز: إنّ اللَّهَ اصْطَفی آدمَ وَنوحًا وَآلَ إبراهیمَ وَآلَ عِمْرانَ عَلی العالمین (۲)

وعلیه بیوت لأهل مکّة.

وفی أصل الجبل دکوک مبنیة وثلاثة من العقود المتصلة بعضها الی بعض:

الدّکة الأولی: لها ثلاث دُرج.

والثانیة: لها أربع دُرج.

والثالثة: لها أربعُ دُرج.

والرابعة: لها درجتان.

وأما المروة: أیضاً جَبَلٌ نزلت علیه حواء علیها السلام ووجه تسمیته هو أنّ المرأة نزلت علیه، کما روی أیضا عنهم علیهم السلام، وعلیه أیضاً بیوت أهل مکّة، وفی أصل الجبل دکّة واحدة أرفع من أرض المسعی بدرجتین.

وبین الصّفا والمروة سوق للعطّارین وغیرهم، لیس علیه سقف، ومن وقف علی الصفا یری المروة وبالعکس.

ومن الصفا الی المروة خمسمائة وثلاثون خطوة إنسان معتدل القامة.

۱- ۱ کانت توجد فی المسجد الحرام أربعة محاریب مُسماة بأسماء المذاهب السُّنیة الأربعة، یُصلّی فی کلّ واحدٍمنها إمامٌ یُنسب الی أحد المذاهب، ویُصلّی خلفه أتباع مذهبه، وحسبما روی المؤرخون فإن الصلاة جماعةً فی المسجد الحرام کانت تُعدّ من المهازل، التی تُضحک الثکلی، فإن أئمة المذاهب کانوا یقیمون الجماعة فی وقت واحد. فیکبر لرکوع الشوافع، فیرفع الحنفی رأسه من السجدة الأولی أو الثانیة، أو یکبّر للمالکی فیسجد الحنبلی أو یرکع. أو هکذا یصحّ أن تؤدی الصلاة، التی هی عمود الدین فی هذه البقعة المقدسة، التی جعلها اللّه سبحانه وتعالی رمزاً للتوحید والوحدة فی العقیدة والعبادة؟!

۲- ۲ آل عمران: ۳۳.

ص: ۳۲

الخاتمة

«فهی فی ذکرصفة الأماکن الشریفة المطهرة غیر المشاعر العظیمة، منها المولد الشریف السید البشر وشفیع المحشر، والمولد الشریف لسیدة النساء. والحَجَر الذی فیه علامة مرفقهصلی الله علیه و آله. والجبّانتان المعلّی والشبیکة».

اعلم یا أخی هدانی اللّه وإیاک أنّ المولد الشریف لسید البشر، والشفیع فی المحشر، هو روضةٌ عالی البناء مزخرفٌ، له بابان وله محرابٌ فی الرکن القبلی، ومسقط رأسهصلی الله علیه و آله قریبٌ منه، وهو حفرةصغیرة، علیه قبّة عود مربعةصغیرة، مفرجة الجوانب، علیها کسوة کتانٍ، شُغل الإبرة، قطع ووصل عجیب (۱).

وأما مولد أمیر المؤمنین، وإمام المتقین، وقائد الغُرّ الُمحجَّلین علیّ بن أبی طالب علیه السلام فی المکان الذی هو مشهورٌ بمکّة فغلطٌ؛ لأن مولده الشریف نفس الکعبة الشریفة (۲)(۳)(۴)، ذکره أبو منصور الطبری فی کتاب (إعلام الوری) (۵) هکذا:

«ولد أمیر المؤمنین علیه السلام بمکّة فی البیت الحرام یوم الجمعة الثالث عشر من شهر اللّه الأعظم رجب بعد عام الفیل بثلاثین سنة، ولم یولد قطّ فی بیت اللّه تعالی مولودٌ سواه، لا قبله ولا بعده، وهذه فضیلةٌ خَصّه اللّه تعالی بها إجلالًا لمحلّه ومنزلته، وإعلاءً لرتبته. وأمّه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف، وکانت من رسول اللَّهصلی الله علیه و آله بمنزلة الامّ، وربیّ فی حجرها، وکانت من سابقات المؤمنات الی الإیمان، وهاجرت معه الی المدینة، وکفّنها فی قمیصه یدرأ به عنها هوامَّ القبر، وتوسّد فی قبرها؛ لتأمن بذلک من ضغطة القبر، ولقّنها الإقرار بولایة ابنها- کما اشتهرت- فکان أمیر المؤمنین علیه السلام هاشمیّاً من هاشمیین، وأوّل من ولده هاشم مرتین».

وأمّا مولد سیدة نساء العالمین، البتول (۶)، امّ الأئمة النقباء النجباء فاطمة الزهراء علیها السلام فهو روضة علیه

۱- ۱ هذه البقعة التی ولد فیها سید البشرصلی الله علیه و آله کانت مئات السنین مزاراً یتبرک الناس بها، ویشکرون اللّه سبحانه وتعالی علی هذه النعمة التی خصّهم بها. لکن بعد أن استولت جماعة حاولت جاهدة اطماس جمیع آثار السلف الصالح فی الحرمین الشریفین، فقد اقدمت علی هدم مجموعة کبیرة من المساجد وبیوت الصحابة والتابعین وحوّلتها الی مواقف للسیارات أو مزابل، ومما هدمته مولد النبیصلی الله علیه و آله حیث بقیت خربة سنوات طوال، ثم بعد أن واجهوا استنکار المسلمین، حولوها الی مکتبة عامة.

۲- ۲ إنّ المنقب فی التاریخ والحدیث جِدّ علیم بأن فضیلة ولادة علی بن أبی طالب علیه السلام فی جوف الکعبة من الحقائق‌التی تطابق علی اثباتها الرواة وتضافر النقل لها وتواترت الاسانید الیها. قال الحافظ أبو عبداللَّه الحاکم النیسابوری المتوفی سنة ۴۰۵ ه فی المستدرک علی الصحیحین فی باب مناقب حکیم بن حزام ۳: ۴۸۳، عن مصعب بن عبداللَّه: «أنّ أمّ حکیم ولدته فی الکعبة، ضربها المخاض وهی فی جوفها ولم یولد قبله ولابعده فی الکعبة أحد». قال الحاکم: وَهَم مصعب فی الحرف الأخیر، وقد تواترت الأخبار أنّ فاطمة بنت أسد ولدت أمیر المؤمنین علی بن ابی طالب- کرم اللَّه وجهه- فی جوف الکعبة». وقد وافقه علی ذلک جماعة من افذاذ أهل السنة مثل المحدّث الدهلوی والکنجی الشافعی وشهاب الدین الآلوسی المفسّر وغیرهم من اعیان أهل السنة، هذا فضلًا عن اتفاق الامامیة والشیعة واجماعهم علی ذلک. وقد أصدر کثیر من الاعلام رسائل وکتباً حول هذا الموضوع، منها کتاب علیٌّ ولید الکعبة للمحقق الادیب الشیخ محمد علی الاردوبادی، الذی جمع فیه أقوال القدماء والمتأخرین وآراءهم فی هذا المجال. راجع أیضاً: «الکافی ۴: ۳۷۶، التهذیب ۶: ۱۹، ومستدرک الحاکم ۳: ۱۸۰، مناقب ابن المغازلی ۶: ۲، مناقب الخوارزمی: ۱۲ و ۱۳، اسد الغابة ۵: ۵۱۷، الریاض النضرة ۳: ۱۰۴، الفصول المهمة: ۳۰ و ۳۱...».

۳- ۲ إنّ المنقب فی التاريخ والحديث جِدّ عليم بأن فضيلة ولادة علی بن أبی طالب عليه السلام فی جوف الکعبة من الحقائق‌التی تطابق علی اثباتها الرواة وتضافر النقل لها وتواترت الاسانيد اليها. قال الحافظ أبو عبداللّه الحاکم النيسابوری المتوفی سنة ۴۰۵ ه فی المستدرک علی الصحيحين فی باب مناقب حکيم بن حزام ۳: ۴۸۳، عن مصعب بن عبداللّه: «أنّ أمّ حکيم ولدته فی الکعبة، ضربها المخاض وهی فی جوفها ولم يولد قبله ولابعده فی الکعبة أحد». قال الحاکم: وَهَم مصعب فی الحرف الأخير، وقد تواترت الأخبار أنّ فاطمة بنت أسد ولدت أمير المؤمنين علی بن ابی طالب- کرم اللّه وجهه- فی جوف الکعبة. وقد وافقه علی ذلک جماعة من افذاذ أهل السنة مثل المحدّث الدهلوی والکنجی الشافعی وشهاب الدين الآلوسی المفسّر وغيرهم من اعيان أهل السنة، هذا فضلًا عن اتفاق الامامية والشيعة واجماعهم علی ذلک. وقد أصدر کثير من الاعلام رسائل وکتباً حول هذا الموضوع، منها کتاب علیٌّ وليد الکعبة للمحقق الاديب الشيخ محمد علی الاردوبادی، الذی جمع فيه أقوال القدماء والمتأخرين وآراءَهم فی هذا المجال. راجع أيضاً: «الکافی ۴: ۳۷۶، التهذيب ۶: ۱۹، ومستدرک الحاکم ۳: ۱۸۰، مناقب ابن المغازلی ۶: ۲، مناقب الخوارزمی: ۱۲ و ۱۳، اسد الغابة ۵: ۵۱۷، الرياض النضرة ۳: ۱۰۴، الفصول المهمة: ۳۰ و ۳۱....

۴- ۲ إنّ المنقب فی التاريخ والحديث جِدّ عليم بأن فضيلة ولادة علی بن أبی طالب عليه السلام فی جوف الکعبة من الحقائق‌التی تطابق علی اثباتها الرواة وتضافر النقل لها وتواترت الاسانيد اليها. قال الحافظ أبو عبداللّه الحاکم النيسابوری المتوفی سنة ۴۰۵ ه فی المستدرک علی الصحيحين فی باب مناقب حکيم بن حزام ۳: ۴۸۳، عن مصعب بن عبداللّه: «أنّ أمّ حکيم ولدته فی الکعبة، ضربها المخاض وهی فی جوفها ولم يولد قبله ولابعده فی الکعبة أحد». قال الحاکم: وَهَم مصعب فی الحرف الأخير، وقد تواترت الأخبار أنّ فاطمة بنت أسد ولدت أمير المؤمنين علی بن ابی طالب- کرم اللّه وجهه- فی جوف الکعبة. وقد وافقه علی ذلک جماعة من افذاذ أهل السنة مثل المحدّث الدهلوی والکنجی الشافعی وشهاب الدين الآلوسی المفسّر وغيرهم من اعيان أهل السنة، هذا فضلًا عن اتفاق الامامية والشيعة واجماعهم علی ذلک. وقد أصدر کثير من الاعلام رسائل وکتباً حول هذا الموضوع، منها کتاب علیٌّ وليد الکعبة للمحقق الاديب الشيخ محمد علی الاردوبادی، الذی جمع فيه أقوال القدماء والمتأخرين وآراءَهم فی هذا المجال. راجع أيضاً: «الکافی ۴: ۳۷۶، التهذيب ۶: ۱۹، ومستدرک الحاکم ۳: ۱۸۰، مناقب ابن المغازلی ۶: ۲، مناقب الخوارزمی: ۱۲ و ۱۳، اسد الغابة ۵: ۵۱۷، الرياض النضرة ۳: ۱۰۴، الفصول المهمة: ۳۰ و ۳۱...».

۵- ۳ إعلام الوری بأعلام الهدی للشيخ أبی علی الفضل بن الحسن الطبرسی، من أعلام القرن السادس الهجری.

۶- ۴ البتول: أی المنقطعة الی اللّه تعالی عن الدنيا.

ص: ۳۳

شراریف فی قبلة الرواق، فیه محرابٌ وفی مؤخره قبة عالیة متوسطة العِظم، علی رأسها هلال نحاسٍ، بابها قبلی وفضلها مرویّ، یقال لها «قبة الوحی»، ومسقط رأسها علیها السلام فی مخزنٍ مستطیل عن یمین الداخل [الی] القبة، وهی حفرةصغیرة، وعلیه قبّة أصغر من قبّة أبیهاصلی الله علیه و آله.

وأما علامة مرفقهصلی الله علیه و آله فأنواره لائحة، ومعجزة للناظرین واضحة، وهو حفرةصغیرة فی حجر قد بنی فی جدار دارٍ، وارتفاعه ذراعان.

وکلّ ما وصفناه فی رسالتنا هذه من الأذرع فمتوسط ذراع الآدمی إلّازمزم والحَجَر الأسود فإنهما بذراع العمل المتعارف بین البنائین.

وأما المُعلّی: جبّانة عظیمة قد دفن فیها ما لا یُحصی من أهل الکرامات والمقامات، من أهل البلد والآفاق.

فالمشهور الیوم من القبور التی علیها الاتفاق:

قبر سیدة النساء بعد بنتها، وفریدة دهرها، والمعتنیة للخیرات، المطمئنة لقلب الرسول حین أتاها مُفاجَأً بأول النزول، وزوجة سیّد المرسلین، امّ سیّدة نساء العالمین، جَدّة الأئمة المعصومین علیهم السلام خدیجة الکبری بنت خویلد علیها السلام.

والمشهور عندنا قبر جدّ رسول اللّهصلی الله علیه و آله سیّدنا عبدالمطلب، وعبد مناف، وعمّه ومعینه أبو طالب- رضی اللّه عنهم.

وقبر سید الصّالحین، نصیر الدین حسین، وقبر سلطان المحقّقین والمدقّقین استادای فی فنّ الرِّجال والأحادیث الشریفة والنحو ملا محمد أمین الاسترابادی- طاب ثراه- ومیرزا محمد الاسترابادی- رحمهم اللّه تعالی.

ومن تفضّلات ربّی الرحیم فی هذه السنة لما توفی ثمرة فؤادی السیّد أبو جعفر محمد الباقر مع والدته، وأخوه علیّ نزلَ من بطن أمّه حیّاً ثم ماتت أمّه- رحمهما اللّه- بسبب عدم خروج المشیمة، ومات علیٌّ بعد اُمّه- رحمهم اللّه وأسکنهم [الجنّة] بعلیّ وولده- [دفنتهم فی] ثلاثة من القبور من الموضع الذی یقف الناس به ویقرأون الفاتحة لخدیجة الکبری علیها السلام قبالصندوقها،

ص: ۳۴

دفنتُ فی واحد من القبور الثلاثة:

امّ السید أبو جعفر سکینة بیگم- رحمها اللّه- التی کانت معینتی فی طلب العلم بمکة المعظمة.

وفی القبر الثانی دفنتُ ثمرة فؤادی سید أبو جعفر محمد الباقر، الذی قرأ فی مدة خمس سنین وتسعة [أشهر] القرآن الی نصف سورة «إنّا فَتَحنا» وقرأ الأمثلة وبعضاً من التصریف للزنجانی، یقرب نصفه.

والثالث: بنیته لنفسی ودخلت فیه وقرأت التلقین مع بعض سور من القرآن وأودعت فیه، وأرجو من اللّه أن یجعل ذلک التَّلقین کافیاً، فإن کان ظهر سیدنا ومولانا وإمامناصاحب العصر والزمان وخلیفة الرحمان-صلوات اللّه علیه- فلا حاجة الی ذلک القبر أیضاً، ومَا تَدری نَفسٌ بأیّ أرضٍ تَمُوتُ (۱)

.

وأما الشبیکة: فهی جبّانة عظیمة أیضاً قد دفن فیها ناس کثیر، لکن لیس فیها من مشاهیر القبور المعتمدة عندنا شیء.

نصیحة: أیها المؤمنون أنصح نفسی وإیاکم، اجتهدوا فی تعمیر دار الآخرة بزیارة هذه الأماکن المشرّفة وغیرها من أفعال الخیر؛ لأن الآخرة دار القرار، وفیها الأنبیاء والمرسلون، والأولیاء والصالحون، وحسن أولئک رفیقاً.

وذکر علی بن إبراهیم، عن الشیخ محمد بن یعقوب الکلینی- رحمهما اللّه- فی تفسیره فی سورة لقمان، عن أبی عبداللّه علیه السلام یحدّث لحمّاد قال:

«فوعظ لقمان بآثار حتی تفطّر وانشق، وکان فیما وعظ به: یاحمّاد الی أن قال: یا بُنی إنک منذ سقطتَ الی الدنیا استدبرتها واستقبلتَ الآخرة، أنت تسیر إلیها أقرب إلیک من دارٍ أنت عنها متباعد» (۲).

ولنختم الخاتمة بأسامی جماعة من المؤمنین الذین اشتغلوا فی الکعبة:

محمد الحسین المذکور، وسید أحمد ابن محمد معصوم، ومحمد علی بن عاشور وأبوه، وحسن بن عبداللّه السمنانی المکّی، ودرویش حیدرالکشمیری، ومیرزا خان الکشمیری، والحاج حسن علی الأردبیلی، والحاج معصوم بیک التبریزی، وحاجی محمد شفیع

۱- ۱ لقمان: ۳۴.

۲- ۲ بحار الأنوار ۱۳: ۴۱۱ ح ۲.

ص: ۳۵

التبریزی وولـده إبراهیم بیک، والشـیخ طائف رفیع ولـدی أبو جعفر، وإسـماعیل ابن شـهید أوغلی، والشـیخ عبـد علی، وعبدان للفقیر مفلح ونافع.

وألهمنی اللَّه تعالی لتاریخ هذا التأسیس الشریف اقتباساً من الآیهٔ الشریفهٔ وإذْ یَرفَعُ إبراهیمُ القَواعِدَ مِنَ البیتِ (۱)

هذا رفع اللَّه تعالی قواعد البیت.

*** تَمَّصورهٔ ما کتب رحمه اللَّه تعالی، والحمد للَّهالذی وفقنا لإتمام هذه الرسالهٔ الشریفهٔ.

۱- ۱ البقرهٔ: ۱۲۷.

ص: ۳۶

مخطوط

ص: ۳۷

الهوامش:

ص:۳۸

ص: ۳۹

قرن المنازل دراسهٔ وتحقیق فی موضعه (۱)

ص: ۴۰

قرن المنازل دراسة وتحقيق في موضعه (۱)

على ابراهيم المبارك البحرانى

قرن المنازل أحد المواقيت، التى وقتها رسولُ اللَّهصلى الله عليه و آله لأهل الآفاق، وهو الميقات المهم بالنسبة لنا أهل المشرق، إذ إنّه الواقع على طريقنا إلى مكة، ولما رأيت اختلاف إخواننا فى موضع هذا الميقات، رأيت أن أبحث هذه المسألة بحثاً جغرافياً، حاولتُ فيه أن أثبت أن قرن المنازل هو المسمى الآن بالسيل الكبير حسب ما سأعرضه من القرائن، وإنى أسأل الله أن ينفع به المؤمنين.

أصل اشتقاقه:

يحتمل فى اشتقاق قرن المنازل عدّة احتمالات:

الأول: أن القرن: الجبل الصغير أو المنفرد.

قال ابن فارس فى معجم مقاييس اللغة (۱) نقلًا عن الأصمعى: القرن: الجبل الصغير المنفرد، وقال الحموى (۲): وقرن (بالسكون) ومعناه يأتى فى اللغة على معانى: القرن: الجبل الصغير.

الفيروزآبادى (۳): والقرن... والجبل الصغير أو قطعة تنفرد من الجبل.

۱- ۱ معجم مقاييس اللغة.

۲- ۲ معجم البلدان، ياقوت الحموى ۴/ ۳۳۲.

۳- ۳ القاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروزآبادى ۴/ ۳۶۵.

ص: ۴۱

القاضی عیاض (۱): وهو قرن أیضاً غیر مضاف، وأصله الجبل الصغیر.

أما إضافته للمنازل فلعله کما قال الشیخ الفضلی (۲): إنه القرن الوحید الواقع فی منازل الطریق بین مکۀ والطائف المار بالنخلۀ الیمانیۀ. لکن الـذی یبعـد هـذا الاحتمـال مـا سـیأتی من أن قرن المنازل لیس جبلًا بل هو اسم الوادی أو القریـۀ، وهما معروفان حتی الآن بهـذا الاسم، إلا أن یقال: إنّ تسمیۀ القریۀ والوادی باسم قرن المنازل؛ لوجود قرن فیها أو قریباً منها.

الثـانی: من اقتران المنـازل إذ هو المنزل الـذی یقرن عنـده منـازل الطریق القـادم من نجـد والطـائف ومنـازل الطریق القادم من العراق، فیجتمع عنده الحجاج کما سمی حج القران بذلک؛ لاقتران الحج بالعمرۀ، أو لاقتران الحج بالهدی، ویقال: قرن بین الحج والعمرۀ.

ویؤیـد هـذا ما ورد من اختلاف الروایات فی أن قرن المنازل میقات لأهل نجد، وبعضـها أنه میقات لأهل الطائف، وبعضـها أنه میقات لإهل الیمن.

ویؤید هذا أیضاً ما حکاه الحموی فی معجم البلدان (۳)عن تعلیق القابسی:

مَن قـال: قرن بالإسـکان أراد الجبـل المشـرف علی الموضع، ومَن قـال: قرن بالفتـح أراد الطریق الـذی یفترق منه، فإنّه موضع فیه طرق مختلفۀ مفترقۀ.

ویؤیـد ذلـک ما ذکره الحموی فی معجم البلـدان أیضاً (۴) نقلًا عن أبی زیـد الکلابی: نخلـۀ وادی من الحجاز بینه وبین مکـۀ مسـیرۀ لیلتین، إحدی اللیلتین من نخلۀ یجتمع بها حاج الیمن وأهل نجد ومن جاء من مثل الخط وعمان وهجر ویبرین والیمن، فیجتمع حاجهم بالوباءۀ وهی أعلی نخلۀ وتسمی الیمانیۀ.

قال ابن السکیت فی شرح قول المتلمس (۵):

لن تسلکی سبل البوباۀ منجدۀ ما عاش عمرو وما عمرت قابوس قال: البوباۀ: ثنیۀ فی طریق نجد علی قرن ینحدرصاحبها إلی العراق.

۱- ۱ معجم البلدان، یاقوت الحموی ۴/ ۳۳۲.

۲- ۲ میقات الحج العدد ۵، السنۀ الثانیۀ ۱۴۱۷ ه.ص ۸۵.

۳- ۳ معجم البلدان، یاقوت الحموی ۴/ ۳۳۲.

۴- ۴ معجم البلدان، یاقوت الحموی ۵/ ۲۷۸.

۵- ۵ معجم البلدان، یاقوت الحموی ۱/ ۵۰۶.

ص: ۴۲

وقال البلادی (۱): البوباة: علم معروف وهی أرض میثاء ذات منصدر نخلة الیمانیة، تشرف علیها من الشرق بلدة السیل الکبیر، وهی کئود فی الصعود سهلة فی النزول، تعرف الیوم باسم البهیتة.

وقال (۲): وحدّد الأقدمون البوباة بأنّها علی طریق الطائف من مکة المکرمة، وأنّها منصدر نخلة الیمانیة، وقالوا: تخرج منها علی قرن المنازل، وکلّها تحدیداتصحیحة.

قال [البلادی]: تعرف الیوم بالبُهیتة: تقع فیصدر نخلة الیمانیة تخرج منها علی السیل الکبیر، وهو میقات أهل نجد، وکان یعرف بقرن المنازل.

وقال دهیش (۳): وأصل النخلة الیمانیة وادٍ رأسُه من البوباة (البُهیتة) الیوم عند بلدة قرن المنازل (السیل الکبیر) إلی قریة الزیمة..

ضبط اللفظ:

قال الجوهری فی الصحاح (۴): والقَرَن: موضع وهو میقات أهل نجد ومنه أویس القرنی.

والصحیح هو السکون کما نصّ علیه أغلبیة أهل اللغة، وغلّطوا الجوهری فی تحریکه وفی نسبته إلی أویس القرَنی، وسنذکر جملة من أقوالهم حتی یتضح ذلک:

المصباح المنیر (۵): قال الجوهری: هو بفتح الراء وإلیه ینسب أویس القرنی وغلطوه به، والصواب فی المیقات السکون، قال عمر بن أبی ربیعة:

ألَم تسأل الربع أن ینطقا بقرْن المنازل قد أخلقا؟ مراصد الاطلاع (۶): وقرن بالتحریک آخره نون میقات أهل نجد ومنه أویس القرنی، قاله الجوهری، وغیره یقول بسکون الراء.

مختار الصحاح (۷): والقرن بالتحریک موضع وهو میقات أهل نجد ومنه أویس القرنی، قلت: هو فی التهذیب بسکون الراء نقله عن الأصمعی.

النهایة لابن الأثیر (۸): قرن المنازل هو اسم موضع یحرم منه أهل نجد، وکثیر

۱- ۱ أودیة مکة، عاتق بن غیث البلادیص ۱۸۱.

۲- ۲ معالم مکة التاریخیة والأثریةص ۴۴.

۳- ۳ تعلیقته علی کتاب أخبار مکة للفاکهی ۵/ ۹۸.

۴- ۴صحاح اللغة، الجوهری.

۵- ۵ المصباح المنیر، أحمد بن محمد المقری الفیومیص ۵۰۱.

۶- ۶ مراصد الإطلاع،صفی الدین البغدادی ۳/ ۱۰۸۲.

۷- ۷ المختار منصحاح اللغةص ۴۲۰.

۸- ۸ النهایة لابن الأثیر.

ص: ۴۳

ممن لا یعرف یفتح راءه وإنما هو بالسکون.

معجم البلدان للحموی (۱): قال الجوهری: قَرَن بالتحریک میقات أهل نجد ومنه أویس القرنی، وقال الغوری: هو منسوب إلی بنی قرن، وغیر الجوهری یقوله بسکون الراء.

القاموس للفیروزآبادی (۲): وغَلَطَ الجوهری فی تحریکه ونسبة أویس القرنی إلیه؛ لأنّه منسوب إلی قرَن بن ردمان بن ناجیة بن مراد أحد أجداده.

الحموی (۳): والقرْن: قال الأصمعی: جبل بعرفات، وقال الغوری: هو میقات أهل الیمن والطائف یقال له قرن المنازل، وقال القاضی عیاض: قرن المنازل وهو قرن الثعالب بسکون الراء: میقات أهل نجد تلقاء مکة علی یوم ولیلة...

ورواه بعضهم بفتح الراء وهو غلط إنما قَرَن قبیلة من الیمن.

لسان العرب (۴): وهو اسم موضع یحرم منه أهل نجد، وکثیر ممن لا یعرف یفتح راءه، وإنما هو بالسکون أیضاً.

تاج العروس (۵): وقرن المنازل میقات أهل نجد، وهی بلدة عند الطائف أو اسم الوادی کلّه، وغلط الجوهری فی تحریکه، قال شیخنا: هو غلط لا محید عنه، وإن قال بعضهم: إنّ التحریک فیه لغة هو غیر ثبت، قلت: وبالتحریک وقع مضبوطاً فی نسخ الجمهرة وجامع القزاز کما نقله ابن بری عن ابن القطاع عنهما، وقال ابن کثیر: وکثیر ممن لا ـ یعرف یفتح راءه وإنما هو بالسکون، وغلط الجوهری أیضا فی نسبة سید التابعین راهب هذه الأمة أویس القرنی إلیه؛ لأنه منسوب إلی قرَن بن درمان بن ناجیة بن مراد أحد أجداده.

تنبیه:

کلام تاج العروس: (وبالتحریک وقع مضبوطاً فی نسخ الجمهرة وجامع القزاز، کما نقله ابن بری عن ابن القطاع عنهما.). مخالف لما نقله لسان العرب عن ابن بری، قال فی اللسان (۶): والقَرَن: موضع وهو میقات أهل نجد ومنه أویس

۱- ۱ معجم البلدان، یاقوت الحموی ۴/ ۳۳۱.

۲- ۲ القاموس المحیط، الفیروزآبادی ۴/ ۳۶۵.

۳- ۳ معجم البلدان، یاقوت الحموی ۴/ ۳۳۲.

۴- ۴ لسان العرب، ابن منظور ۱۱/ ۱۴۳.

۵- ۵ تاج العروس.

۶- ۶ لسان العرب، ابن منظور ۱۱/ ۱۴۳.

ص: ۴۴

القرنی، قال ابن بری: قال ابن القطاع: قال ابن درید فی الجمهرة والقزاز فی الجامع:

قرْن: اسم موضع.

ویحتمل هنا احتمالان:

الأول: أنّ تاج العروس قد نقله عن ابن منظور فأخطأ فی النقل، فحینئذ یکون المرجع هو کلام ابن منظور وهو السکون.

الثانی: أنّه نقله عن ابن بری بواسطة غیر ابن منظور، فحینئذ یکون نقله معارضاً لنقل ابن منظور فیتساقطان، فلا یحصل لنا علم بوجود قائل بالتحریک غیر الجوهری.

وقد ذکرنا أقوال العلماء فی تغلیطه وفی کشف اللثام (۱) والجواهر (۲) نقلًا عنه: اتفق العلماء علی تغلیطه فیهما أیفی تحریکه، وفی نسبة أویس القرنی إلیه.

صفته:

اختلفت أقوال العلماء واللغویین فی بیان ماهیة قرن المنازل، هل هو قریة أو وادی أو جبل أو موضع:

الأول: أنّه قریة:

صبح الأعشی: (ت ۱۲۸ ه) (۳): ذکر فی طریق مصر إلی مکة: قال ابن خرذابة: ثم من مکة إلی بئر ابن المرتفع، ثم إلی قرن المنازل قریة عظیمة.

الحسن بن محمد المهلبی (۴): قرن قریة بینها وبین مکة أحد وخمسون میلًا..

وبینها وبین الطائف ذات الیمین ستة وثلاثون میلًا.

ابن فارس فی معجم مقاییس اللغة (۵): وقرن المنازل میقات أهل نجد وهی بلدة عند الطائف أو اسم الوادی کلّه.

الفیروزأبادی فی القاموس المحیط (۶): قرن جبل مطل علی عرفات، ومیقات أهل نجد، وهی بلدة عند الطائف أو اسم الوادی کلّه.

الشیخ أحمد رضا (۷): قرن المنازل قریة عند الطائف أو اسم الوادی کلّه.

۱- ۱ کشف اللثام ۱/ ۳۰۶.

۲- ۲ جواهر الکلام ۱۸/ ۱۱۳.

۳- ۳صبح الأعشی، القلقشندی ۵/ ۴۳.

۴- ۴ معجم البلدان، یاقوت الحموی ۴/ ۳۳۲.

۵- ۵ معجم مقاییس اللغة، ابن فارس.

۶- ۶ القاموس المحیط، الفیروزآبادی ۴/ ۳۶۵.

۷- ۷ معجم متن اللغة، الشیخ أحمد رضا.

ص: ۴۵

الزبیدی (۱): وقرن المنازل میقات أهل نجد، وهی بلدة عند الطائف أو اسم الوادی کلّه.

البلادی (۲): لکن قرن المنازل علَمٌ مشـهور فی کتب الأدب، وهو ما یعرف الیوم باسم السـیل الکبیر، بلـدة عامرة علی الطریق بین مکة والطائف المار بالنخلة الیمانیة وهو میقات أهل نجد.

الثانی: أنه اسم للوادی کلّه:

وقد مرّ عن ابن فارس فی معجم مقاییس اللغة والفیروزابادی فی القاموس والزبیدی فی تاج العروس والشیخ أحمد رضا فی معجم متن اللغة.

وفی معجم البلدان ومرصد الاطلاع (۳) قال: والنخلة الیمانیة تصب فی قرن المنازل، وهو یکشف عن کونه وادیاً.

الثالث: أنه جبل

عن الأصمعی (۴): قرن جبل مطل علی عرفات.

المطرزی فی المغرب (۵): والقرن میقات أهل نجد جبل مشرف علی عرفات.

الفیومی (ت ۷۷۰) فی المصباح المنیر (۶): وقرن بلاسکون أیضاً میقات نجد، وهو مشرف علی عرفات.

مراصد الاطلاع لصفی الدین عبد المؤمن البغدادی (ت ۷۳۹) (۷): قرن المنازل جُبیل قرب مکة یحرم منه حاج نجد.

حاشیة الجامع الصحیح (۸) للملا علی: قوله قرن المنازل: هو جبل مدور أملس کأنّه بیضة مشرف علی عرفات.

الرابع: أنه موضع

فی الصحاح للجوهری (۹): القرن موضع وهو میقات أهل نجد.

ابن الأثیر (۱۰): قرن المنازل هو اسم موضع یحرم منه أهل نجد.

معجم مقاییس اللغة لابن فارس (ت ۳۹۵) (۱۱): والقرن موضع وهو میقات

۱- ۱ تاج العروس.

۲- ۲ أودیة مکة، عاتق بن غیث البلادیص ۱۸۰.

۳- ۳ معجم البلدان، یاقوت الحموی ۵/ ۲۷۷، مراصد الإطلاعصفی الدین البغدادی ۳/ ۱۳۶۴.

۴- ۴ معجم البلدان، یاقوت الحموی ۴/ ۳۳۲، لسان العرب، ابن منظور ۱۱/ ۱۴۳.

۵- ۵ المغرب، المطرزی.

۶- ۶ المصباح المنیر، الفیومیص ۵۰۱.

۷- ۷ مراصد الاطلاع، عبد المؤمن البغدادی ۳/ ۱۰۸۲.

۸- ۸ حاشیة الجامع الصحیح ۴/ ۴.

۹- ۹صحاح اللغة، الجوهری.

۱۰- ۱۰ النهایة، ابن الأثیر.

۱۱- ۱۱ معجم مقاییس اللغة، زکریا بن فارس.

ص: ۴۶

أهل نجد.

مختار الصحاح لمحمد بن أبی بکر الرازی (ت ۶۶۶) (۱): والقرن بالتحریک موضع، وهو میقات أهل نجد.

لسان العرب لابن منظور (ت ۷۱۱) (۲): عن بن شمیل: القرن موضع، وهو میقات أهل نجد.

وقال: قال ابن بری: قال ابن القطاع، قال ابن درید فی کتاب الجمهرة والقزاز فی کتابه الجامع: وقرن اسم موضع... وفی حدیث المواقیت: أنّه وقت لأهل نجد قرناً، وفی روایة قرن المنازل وهو اسم موضع یحرم منه أهل نجد.

تحقیق الأقوال:

إنّ الموضع أعم من الوادی والقریة، فلا یتعارض مع الأقوال الأخری، أما إطلاقه علی الجبل فغیر متعارف، إلا إذا سمی المکان کلّه باسم ذلک الجبل، وقد أطلقوا علیه موضعاً؛ لعدم معرفة ماهیته.

أما القول الأول والثانی فیمکن الجمع بینهما بأن کثیراً من البلدان تسمی باسم الوادی، الذی هی فیه أو یسمی الوادی باسمها، کما تسمی البحور والبحیرات بأسماء المدن الواقعة علیها، فیقال بحیرة أرومیة فی إیران، وبحیرة فکتوریا فی ترکیا، وبحر عمان، وبحر فارس، وخلیج العقبة، ومن أمثلة تسمیة المدن بأسماء الوادی ما قاله البلادی (۳) تعقیباً علی قول البکری بأن وادی رابغ من مر، قال البلادی: وأما أسفله فکان یسمی رابغاً واد کثیر المیاه والغابات، ولما قامت تلک البلدة (رابغ) علی مصبه سمیت رابغاً باسم الوادی فنسی اسم الوادی فأطلق علیه اسم مر.

وکذلک ینبع سمیت باسم الوادی، فإنّ ینبعاً وادی فحل کثیر العیون والنخیل غرب المدینة (۴).

ومن القری التی سمیت باسم الوادی المحیط بها ما قاله حمد الجاسر (۵): بدا:

۱- ۱ مختار الصحاح، محمد بن أبی بکر الرازی.

۲- ۲ لسان العرب، ابن منظور ۱۱/ ۱۴۲.

۳- ۳ أودیة مکةص ۱۵۰.

۴- ۴ أودیة مکةص ۱۴۵.

۵- ۵ المناسکص ۷۱.

ص: ۴۷

قریة فی واد یعرف بهذا الاسم.

تانه: الوادی الثانی الرئسی من روافد وادی اللیث.. وفیه قریه وسوق بنفس الاسم (۱).

بلدة اللیث: علی مسافة ۱۸۵ کیلومتراً من مکة، سمیت باسم الوادی (وادی اللیث) (۲).

وسرف سمیت باسم الوادی وادی سرف، والزبارة سمیت باسم وادی الزبارة، والمضیق باسم وادی المضیق، ومر باسم وادی مر، وأمثال ذلک کثیر.

وعلی هذا فإنّ قرن المنازل یمکن أن یکون اسماً للقریة واسماً للوادی، فلا تنافی بین القولین، بل الذی نستظهره أنّ العطف بمعنی أو، ولکن نحتاج إلی التحقیق فی أنّ المیقات هل هو القریة أم الوادی کلّه، وهذا یترتب علیه کون الإحرام عما زاد عن القریة من الوادی لا یکون إحراماً من المیقات، لو قلنا بأنّ المیقات هو القریة، وکونه من المیقات، لو قلنا إنّ المیقات هو الوادی کله.

أما کونه جبلًا فالأصل فیه کلام الأصمعی، فإنّه قال: (القرن جبل مطل علی عرفات)، وهو لا یدل علی کون قرن المنازل جبلًا مطلًا علی عرفات؛ لأن قرناً بدون إضافة تطلق علی عدة مواضع وجبال، بعضها واقع فی تلک المنطقة، منها:

قرن المنازل الذی هو المیقات، واقع قرب النخلة الیمانیة، ومنها: قرن الثعالب وهو جبل أو موضع فی منی، ومنها: قرن البوباة وهو واد یجیء من السرات، وقرن الذهاب وهو موضع ذکره معجم البلدان والقاموس ولم یحددا مکانه، وقرن غزال، قال فی القاموس ومعجم البلدان: ثنیة معروفة، وقرن ظبی: ماء فوق السعدیة وقیل جبل لبنی أسد بنجد، وقرن معیة: من مخالیف الطائف، وقرن أبی ریش: موضع فی ظهر جبل قعیقعان، وقرن مصقلة وهو قرن ذکره الفاکهی، وقال: وهو قرن قد بقیت منه بقیه بأعلی مکة فی دبر دار أبی سمره، قرن القرط وهو بذنب أجیادین کما ذکر الفاکهی، وقرن شها ب ذکره الفاکهی، مشرف علی ماجل بن

۱- ۱ المناسکص ۷۷.

۲- ۲ المناسکص ۶۶- ۶۸.

ص: ۴۸

طارق، القرن الأحمر وهو واقع کما قال الفاکهی دون محسر علی یمین من خرج من مکة (۱).

وکذلک یطلق قرن علی عدّة حصون فی الیمن منها قرن عشار وقرن بقل، کمایطلق قرن علی عدّة مواضع فی غیر منطقة مکة والطائف (۲)، فلا یدل کلام الأصمعی علی أن مراده هو قرن المنازل.

وأما من جاء بعده فلم أجد مَنصرح بأنّ قرن المنازل جبل مشرف علی عرفات إلّاما عن المطرزی فی المغرب (۳) وتبعه الفیومی فی المصباح (۴) حیث قال المطرزی: والقرن میقات أهل نجد: جبل مشرف علی عرفات، والملا علی فی حاشیة الجامع الصحیح (۵): قرن المنازل جبل مدور أملس کأنه بیضة مشرف علی عرفات، والظاهر أنهما قد توهما أن القرنَ الذی قال عنه الأصمعی: إنّه جبل مطل علی عرفات هو قرن المنازل، ولم أجد هذا الوصف لقرن المنازل فی غیر حاشیة الجامع، ولعله أخذه مما ذکره أصحاب اللغة فی معنی قرن بأنّه الجبل الصغیر أو القطعة تنفرد من الجبل والحجر الأملس النقی، فإنهم ذکروا هذه المعانی للفظ من باب الاشتراک اللفظی، لاصفات للقرن الذی هو المیقات، نعم قال یاقوت الحموی (۶): مقص قرن: جبل مطل علی عرفات عن الأصمعی وأنشد:

وأصبح عهدها بمقص قرن فلاـ عین تحس ولاـ أثار وقال فی مقص قرن: جبل مطل علی عرفات ذکره فی قرن، وأنشد ابن الأعرابی لابن عم خداش بن زهیر عن الأصمعی:

وکائن قد رأیت من أهل نجد دعاهم رائد لهم فساروا

فأصبح عهدهم کمقص قرن فلا عین تحس ولا أثار

فانک لا یضیرک بعد حول أظبی کان خالک أم حمار قال: فإنّ قرناً جبلصعب أملس لیس فیه أثر ولا مقص، یقال قرن مقص

۱- ۱ انظر معجم البلدان، یاقوت الحموی ۴/ ۳۳۲، ۳۳۳.

۲- ۲ انظر معجم البلدان، یاقوت الحموی ۴/ ۳۳۳.

۳- ۳ المغرب، المطرزی.

۴- ۴ المصباح المنیر، أحمد بن محمد المقری الفیومیص ۵۰۱.

۵- ۵ حاشیة الجامع الصحیح.

۶- ۶ معجم البلدان، یاقوت الحموی ۵/ ۱۷۵.

ص: ۴۹

للأثر، یرید یقص فیه الأثر، ولعلّ من نقل أنّ قرناً جبل مطل علی عرفات قد اشتبه علیه قول الأصمعی، أو أنّ الأصمعی أراد أنّ مقص قرن، ومقص قرن هو ما یعرف الیوم باسم القرین، وجبل الرحمة وجبل عرفات (۱).

أماصاحب مراصد الاطلاع (۲) فإنّه قال: قرن: بالفتح ثم السکون قیل: هو سبعة أودیة، وقیل جبل مطل بعرفات، نعم قال: مقص قرن: مطل علی عرفات تبعاً لیاقوت الحموی فی معجم البلدان.

وبعد أن تبین أنّ القائل: إنّه جبل یطل علی عرفات هو المطرزی فی المغرب، وتبعه الفیومی فی المصباح دون غیرهما من أصحاب اللغة، وعلی خلاف أکثر أهل اللغة، الذینصرحوا بأنّ قرن المنازل هو قریة أو وادٍ أو موضع.

ویحتمل فی کلام المطرزی سقوط الواو العاطفة وأنه أراد: والقرن میقات أهل نجد، وجبل مشرف علی عرفات من باب ذکر المعانی المترادفة لمعنی القرن، کما فی عبارة الفیروزآبادی (۳) حیث قال: قرن جبل مشرف علی عرفات، ومیقات أهل نجد وهی بلدة عند الطائف، أو اسم الوادی کلّه، وبعد سقوط الواو من کلام المطرزی إما نسیاناً منه أو من النساخ جری علیه من تبعه کالفیومی وغیره. ولیس ذلک بدعاً فإنّ الجوهری غلط فی المقام غلطتین اتفقوا علی تخطئته فیهما وهما تحریک قرن، ونسبة أویس القرنی إلیه، فتکون للفیومی غلطتان أیضا أحدهما أنّ قرن المنازل هو قرن الثعالب، والأخری أنّه جبل مشرف علی عرفات، وما ذلک إلّا لعدم التدقیق والنقل بلا تحقیق.

منشأ التوهم:

ولن نتعرض إلی أوهام الفقهاء وأهل الحدیث فإنّهم یرجعون کما هو الظاهر من کلامهم إلی أهل اللغة، فمثلا قال حسین بن محمد سعید بن عبد الغنی المکی الحنفی فی حاشیته الموسومة ب (إرشاد الساری إلی مناسک الملا علی القاری (۴) عند قوله: وهی قریة عند الطائف، قال: قال فی المغرب: وقرن میقات أهل نجد) جبل

۱- ۱ میقات الحج العدد ۵، السنة الثالثة ۱۴۱۷ ه،ص ۸۸.

۲- ۲ مراصد الاطلاع، عبد المؤمن البغدادی ۳/ ۱۰۸۲۲، ۱۲۹۹.

۳- ۳ القاموس المحیط، الفیروزآبادی ۴/ ۳۶۵.

۴- ۴ المناسک للملا علی القاریص ۵۵، میقات الحج العدد ۵، السنة الثالثة ۱۴۱۷ هص ۸۸.

ص: ۵۰

مشرف علی عرفات، ومثله فی المصباح.

وقال البلادی (۱): والغریب أنّی رأیت منسکاً یقول: إنّ قرن المنازل جبل مشرف علی عرفات، وهذا خطأ فادح.

ولعل منشأ الاشتباه هو الخلط بین قول الأصمعی: قرن جبل مطل علی عرفات، وما ورد فی بعض الروایات من أنّ النبیَّصلی الله علیه و آله قد وقت لأهل نجد أو الطائف قرناً، ففسر قرن فی کلام النبیصلی الله علیه و آله بما ذکره الأصمعی، ثم قید قرن بالمنازل للجمع بین ماورد فی الروایات مطلقاً وما ورد مقیداً.

والأمر الآخر الذی یمکن أن یکون منشأ لهذا الاشتباه هو الخلط بین قرن المنازل وقرن الثعالب حیث عدّه جماعة بأنهما واحد.

وأصل هذا التوهم ما حکی عن القاضی عیاض (۲) من أنّ قرن المنازل هو قرن الثعالب، وتبعه ابن الأثیر (۳)، ثم ابن منظور فی لسان العرب (۴)، ثمصفی الدین عبد المؤمن البغدادی فی مراصد الاطلاع (۵)، فقالوا: قرن المنازل هو اسم موضع یحرم منه أهل نجد، ویسمی أیضاً قرن الثعالب. ثم جاء الفیومی (۶) فقال:

وقرن المنازل میقات أهل نجد، وهو جبل مشرف علی عرفات، ویقال له قرن الثعالب، فوقع فی خطأین، أحدهما کونه مطلّاً علی عرفات، وقد تقدم أن منشأ هذا هو کلام الأصمعی مع ضمیمة ما ورد فی الأحادیث من أن قرناً میقات أهل نجد، وقد تقدم بیانه، والخطأ الثانی هو قوله: إنّ قرن المنازل هو قرن الثعالب الذی منشأه کلام القاضی عیاض.

قرن المنازل وقرن الثعالب:

قد تقدم فی تعاریف بعض اللغویین أن قرن المنازل هو قرن الثعالب. وقلنا:

بأن هذا خطأ منشأه کلام القاضی عیاض، ولتوضیح هذا الخطإ نذکر شاهدین:

الأول: ما ذکره العلماء والمحققون فی عدم اتحادهما.

الثانی: تحدید موقع قرن الثعالب.

۱- ۱ کتاب أودیة مکة، عاتق بن غیث البلادیص ۹.

۲- ۲ معجم البلدان، یاقوت الحموی ۴/ ۳۳۲.

۳- ۳ النهایة، ابن الأثیر.

۴- ۴ لسان العرب، ابن منظور ۱۱/ ۱۴۳.

۵- ۵ مراصد الاطلاع، عبد المؤمن البغدادی ۳/ ۱۱۰۸۲.

۶- ۶ المصباح المنیر، أحمد بن محمد المقری الفیومیص ۵۰۱.

ص: ۵۱

أقوال العلماء فی عدم اتحاد القرنین:

۱- شرح السیوطی علی النسائی (۱):

حکی الرویان عن بعض قدماء الشافعیة: أن المکان الذی یقال له قرن موضعان: أحدهما فی هبوط، وهو الذی یقال له قرن الثعالب؛ لکثرة ما یأوی إلیه من الثعالب، فظهر أن قرن الثعالب لیس من المواقیت.

۲- فی ریاض المسائل وکشف اللثام والجواهر (۲): وعن بعضهم أن قرن المنازل غیره، وأنّه جبل مشرف علی أسفل منی بینه وبین مسجدها ألف وخمسمائة ذراع.

۳- معجم متن اللغة (۳): قرن المنازل قریة عند الطائف أو اسم الوادی کلّه وهو میقات أهل نجد. وقرن الثعالب موضع قرب مکة.

۴- ما ذکره ملحس (۴) بعد قول الفاکهی الآتی، قال ملحس: قلنا: وقد وهم بعض الکتاب فجعلوا قرن الثعالب وقرن المنازل واحداً، والحقیقة أنهما مختلفان اسماً ومکاناً، فقرن الثعالب هو من منی، وقرن المنازل هو میقات أهل نجد واقع فی النخلة الیمانیة.

۴- قال حمد الجاسر فی تعلیقة کتاب مقتطفات من رحلة العیاشی (۵): هنا خلط بین قرن الثعالب وقرن المنازل، فالأول جبل مطلّ علی عرفات ولیس بمحل الإحرام. وأما الثانی فقرن المنازل وهو ما یعرف الآن باسم السیل. والمؤلف یقصد وادی قرن.

الثانی: تحدید موقع قرن الثعالب:

۱- الفاکهی فی أخبار مکة (۶): ومن مسجد منی إلی قُرین الثعالب ألف وخمسمائة ذراع وثلاثون ذراعاً.

وقُرین الثعالب: جبل مشرف علی أسفل منی، بینه وبین مسجدها ألف وخمسمائة ذراع، ویُقال له قرین الثعالب؛ لکثرة ما کان یأوی إلیه من الثعالب.

۱- ۱ شرح السیوطی علی النسائیص ۱۲۲.

۲- ۲ ریاض المسائل ۶/ ۲۹۰، کشف اللثام ۱/ ۳۰۶، جواهر الکلام ۱۸/ ۱۱۳.

۳- ۳ معجم متن اللغة.

۴- ۴ تعلیقته علی کتاب أخبار مکة للأزرقی ۲/ ۱۸۵.

۵- ۵ مقتطفات من رحلة العیاشی ماء الموائد حمد الجاسرص ۱۰۹.

۶- ۶ أخبار مکة، الفاکهی ۴/ ۲۸۲.

ص: ۵۲

۲- ذکر الفاکهی (۱) فی عدد الأمیال من المسجد الحرام إلی الموقف بعرفة وموضعها:... وموضع المیل الثالث عند مأزمی منی، وموضع المیل الرابع دون الجمرة الثالثة التی تلی مسجد الخیف بخمسة عشر ذراعاً، وموضع المیل الخامس وراء قرین الثعالب بمئة ذراع، وموضع المیل السادس حدّ جدار حائط محسر.

۳- قال الأزرقی فی ذرع منی والجمار ومأزمی منی إلی محسر (۲) ومن مسجد منی إلی قرین الثعالب الف ذراع وخمسائة وثلاثون ذراعاً.

۴- قال فی ذکر الأمیال التی بین المسجد الحرام وموضع الإمام بعرفات وذکر مواضعها (۳): وموضع المیل الخامس وراء قرین الثعالب بمائة ذراع، وموضع المیل السادس فی جدار حائط محسر.

۵- الأغانی (۴) فی ذکر الهدنة بین المختار بن عوف الأزدی وعبد الواحد بن سلیمان قال: منزل أبو حمزة بقرن الثعالب من منی.

۶- ما تقدم عن الریاض وکشف اللثام والجواهر (۵) بلفظ القیل بأنه جبل مشرف علی أسفل منی، بینه وبین مسجدها ألف وخمسمائة ذراع، فإنه إشارة إلی وجود قائل وإن لم یذکره.

۷- قال البلادی فی معجم معالم الحجاز (۶): وقرن الثعالب کان بمنی، أکیمةصغیرة ثم أزیلت.

۸- حاشیة أخبار مکة لعبد الملک دهیش (۷) تعلیقاً علی حدیث ذکره الفاکهی مسنداً إلی عائشة أنّها قالت لرسول اللّهصلی الله علیه و آله: هل أتی علیک یوم کان أشدّ علیک من یوم أحد؟ قالصلی الله علیه و آله: ولقد لقیت من قومک، وکان أشدّ مالقیت منهم یوم العقبة أن عرضت نفسی علی ابن عبد یلیل... فلم یجبنی إلی ما أردت، فانطلقت وأنا مغموم علی وجهی، فلم استفق إلّابقرن الثعلب...

قال المحقق فی الحاشیة علی الکتاب: قرن الثعالب سألت عنه الشریف محمد ابن فوزان الحارثی، فأخبرنی أنّه القرن الذی یقابل ریع البابور من الشمال، وقد

۱- ۱ أخبار مکة، الفاکهی ۵/ ۵۱، ۵۲.

۲- ۲ أخبار مکة، الأزرقی ۲/ ۱۸۵.

۳- ۳ أخبار مکة، الأزرقی ۲/ ۱۸۹.

۴- ۴ الأغانی لأبی الفرج الاصفهانی ۲۲/ ۲۲۸.

۵- ۵ ریاض المسائل ۶/ ۱۹۰، کشف اللثام ۱/ ۳۰۶، الجواهر ۱۸/ ۱۱۳.

۶- ۶ نقله عنه الفضلی، میقات الحج العدد ۵، السنة الثالثة ۱۴۱۷ ه،ص ۸۸.

۷- ۷ حاشیة أخبار مکة للفاکهی، عبد الملک بن عبداللّه بن دهیش ۴/ ۲۸۱.

ص: ۵۳

أزيل رأسه وسوى بالشارع الموازى لجسر الملك خالـد حتيصار أشـبه بهضـبة من الهضاب، ويطلق عليه اليوم (ربوة) ويرى على طرفه الغربى الشارع القادم من جسر الملك خالد.

ويرجح كلام الفاكهى والأزرقى على غيرهما ممن قالوا باتحاد الموضعين لأمرين:

الأول: قدم عصرهما.

الثانى: قربهما من هذه البقاع من سكان مكهٔ، وقد كتبا فى تاريخ مكهٔ وجغرافيتها.

كما أنّ البلادى ودهيشاً كليهما من أهل مكهٔ، وقد قال المثل: أهل مكهٔ أدرى بشعابها.

وقد تبين مما تقدم أمور:

الأول: أنّ قرن الثعالب جبل فى منى، ومن المعلوم أن منى جزء من الحرم، فلا يمكن أن يكون هو الميقات.

ثانيـاً: أنّ مـا بين قرن الثعالب إلى مسـجد منى ۱۵۰۰ ذراع، وهو أقـل من نصف الكيلو متر، فيكون مخالفـاً لما سـيأتى فى تحديـد قرن المنازل- أنّه على يوم وليلهٔ من مكهٔ، أو على مرحلتين، وبينه وبين مكهٔ واحد وخمسون ميلًا، وأنّه على بعد ۹۴ كيلومتراً... الخ.

الجبل المشرف على عرفات:

تقدم الكلام فى أنّ دعوى أنّ قرن المنازل هو جبل مشـرف على عرفات جاء اشـتباهاً من بعض اللغويين، خلطاً بين كلام الأصمعى وما ورد فى الأحاديث المحدّدهٔ لميقات أهل نجد من أنّه قرن وقرن المنازل، وقد بينا هذا الالتباس ومنشأه.

ويؤيـد أن قرن المنـازل ليس هو الجبل المطل على عرفات ما سـيأتى فى تحديـد المسافـهٔ بين مكـهٔ وقرن المنازل، وأنّها تقرب من ۹۴ كيلومتراً، أو واحد وخمسين

ص: ۵۴

میلًا، فکیف یکون مطلّا علی عرفات مع هذه المسافة الطویلة؟ وما سیأتی من أنّه یصب فیه النخلة الیمانیة، وهی واقعة شمال شرق مکة، بینها وبین مکة وادی حنین ویدعان.

أما قرن الثعالب فقد مرّ أنّه جبل مشرف علی أسفل منی، بینه وبین مسجد الخیف ألف وخمسمائة ذراع، وبین منی وعرفات ما یقرب من خمسة أمیال. فقد ذکرالأزرقی فی ذرع المسافات بین المسجد إلی حدّ الحرم: أنّه من مسجد منی إلی مسجد المزدلفة میلان، ومن مسجد مزدلفة إلی مسجد عرفة ثلاثة أمیال وثلاثة آلاف وثلثمائة وتسعة عشر ذراعاً.

کما أنّ تعریفه بأنّه جبل مشرف علی عرفات من التعریف بالأخفی، إذ الأولی بأن یقال: مشرف علی منی أو علی وادی محسر.

احتمالات أخری:

مما تقدم نعلم أنّ الجبل الذی ذکره الأصمعی بأنّه «قرن جبل مشرف علی عرفات» لیس هو قرن المنازل ولا قرن الثعالب، فما هو القرن الذی یمکن أن یکون مراداً للأصمعی؟

هناک احتمالات أخری:

القرن الواقع فی وادی محسر:

قد أطلق لفظ قرن مطلقاً بدون تقیید علی جبل فی منی، قال الحربی (۱): فإذاصعدت (أی فی وادی محسر) فأنت حینئذ فی الخروج من الوادی، ثم إذا علوت فهناک من یمینک وأنت ذاهب من منی إلی عرفات فوق جبل یأتی، فذلک آخر وادی محسر، فإذا جاوزت آخر ذلک القرن فأنت فی المزدلفة.

ثم قال (۲): هذا القرن الذی وصفت لک عن یمین الذاهب إلی عرفات هو أول المزدلفة وآخر وادی محسر.

ثم قال (۳): فإذا جاوزت المأزمین حتی تخرج منها إلی الفضاء، فذلک الفضاء

۱- ۱ المناسک، للحربیص ۵۰۵.

۲- ۲ المناسک، للحربیص ۵۰۶.

۳- ۳ المناسک، للحربیص ۵۰۷.

ص: ۵۵

أول المزدلفة، وأنت جائی من عرفات إلی حیال القرن الذی وصفت لک، والآن وأنت مقبل من عرفات عن یسارک.

وعن جریج (۱) قلت لعطاء: أین محسر؟ وأین یبلغ من جمع؟ وأین یبلغ الناس بمنازلهم من محسر؟ یعنی بمبیتهم بجمع المزدلفة، فقال عطاء: لم أرهم یختلفون بمنازلهم القرن، یعنی لا یتجاوزون، قال عطاء: وهو أقرب قرن فی الأرض من محسر عن یمین الذاهب، الذی یأتی من مکة عن یمین الطریق، قال: ومحسر إلی ذلک القرن یبلغه وینقطع إلیه، قال عطاء: لا أحب أن ینزل أحد أسفل من ذلک القرن تلک اللیلة یعنی لیلة جمع.

وقال الفاکهی فی أخبارمکة (۲): مسنداً إلی ابن عباس قال: جمع من مفضی المأزمین إلی القرن الذی خلف وادی محسر.

وعن عطاء: إلّاأنّه قال: حتی یبلغ القرن الأحمر دون وادی محسر، علی یمین من خرج من مکة.

وهذا الجبل وإن سمّی قرناً إلّاأنّه لا یشرف علی عرفات؛ لبعده عنها فإنه مشرف علی وادی محسر والمزدلفة.

جبل کرا:

قال الشیخ القطبی فی منسکه (۳): وهو جبل فیه بعض القری بقرب الطائف، وبه مزارع وبساتین ویجلب منها الفواکه إلی مکة.

وقال القاضی عید فی شرح المناسک (۴): وهذا الجبل یسمی عند أهل مکة وأهل تلک النواحی (کرا) بفتح الکاف والراء المهملة.

ویوافق ما ذکره الشارح (ره) ما فی القاموس حیث قال فی تعداده معنی (قرن): جبل مطلّ علی عرفة، والحجر الأملس النقی، میقات أهل نجد، وهو قریة عند الطائف، أو اسم الودی کلّه.

أقول: ما استشهد به من کلام القاموس لا یتم؛ لأنصاحب القاموس إنما ذکر عدّة معانی ل (قرن)، ثم بعد أن قال: ومیقات أهل نجد. فسّرها بقوله وهی قریة

۱- ۱ المناسک، للحربیص ۵۰۷.

۲- ۲ أخبار مکة، الفاکهی ۴/ ۳۱۱.

۳- ۳ نقله عنه الفضلی فی مجلة میقات الحج العدد ۵، السنة الثالثة ۱۴۱۷ ه،ص ۹۲.

۴- ۴ نقله عنه الفضلی فی مجلة میقات الحج ع ۵، السنة الثالثة ۱۴۱۷ ه،ص ۹۲.

ص: ۵۶

قرب الطائف.

ومثل هذا الخلط ما حصل منصاحب مرآة الحرمين (۱)كما سيأتی حيث خلط بين بحرة الواقعة فی طريق جدة- مكة وبين بحرة الرعاء الواقعة فی ليَة جنوب وغرب الطائف، التی مرّ بها رسول اللَّهصلی الله عليه و آله فی مسيره ومنصرفه من غزوة الطائف، حتی ألجأه هذا الخلط والاشتباه الذی وقع فيه إلی التشكيك فی سيرة ابن هشام وكتب المؤرخين.

والذی ألجأ القاضی إلی هذا التفسير ما تقدم من وصف الميقات بأنّه جبل مشرف علی عرفات، وبعضهم بأنّه قرية قرب الطائف، وأراد أن يجمع بين هـذه الأوصـاف ولاـ يمكن ذلـك، ففسـر الجبل بجبل كرا والقريـة بالهـدا،. لكن جبل كرا لا يسـمی قرناً حيث لا تنطبق عليهصفات القرن، التی هی الجبل الصغير المنفرد إضافة إلی بعد المسافة بين جبل كرا وبين عرفات.

جبل الرحمة الواقع فی عرفات

وقد احتمل الفضلی (۲) أنّه الجبل الذی ذكره الأصمعی أنّه يطلّ علی عرفات، وأيد هذا الاحتمال بأمور:

الأول: انطباق الوصف الذی جاء فی كتب اللغة لمعنی القرن، وهو الجبل الصغير المنفرد.

الثانی: أنّه الجبل المشرف علی عرفات، فهو وإن كان فی عرفات إلّاأنّ الذی يصعد علی الجبل يطلّ ويشرف علی عرفات.

الثالث: ما ورد فی الحديث أنّهصلی الله عليه و آله وقف علی طرف القرن الأسود.

الرابع: ما ذكره ياقوت الحموی فی معجم البلـدان: مقص قرن جبل مطل علی عرفات، فقد ذكر البلادی (۳)(۴) أن مقص قرن هو جبل الرحمة (جبل عرفات).

* قرن النابت فی عرفات

قال الفاكهی (۵): فی ذكر الأميال: وموضع الميل الثانی عشر خلف المقام

۱- ۱ مرآة الحرمين، إبراهيم رفعت باشا ۱/ ۲۶، ۲۷.

۲- ۲ مجلة ميقات الحج العدد ۵، السنة الثالثة ۱۴۱۷ ه،ص ۸۸.

۳- ۳ معجم معالم الحجاز، عاتق غيث البلادی نقله عنه الفضلی فی مجلة ميقات الحج العدد ۵، السنة الثالثة ۱۴۱۷ ه،ص ۸۸.

۴- ۳ معجم معالم الحجاز، عاتق غيث البلادی نقله عنه الفضلی فی مجلة ميقات الحج العدد ۵، السنة الثالثة ۱۴۱۷ ه،ص ۸۸.

۵- ۴ أخبار مكة، الفاكهی ۵/ ۵۳.

ص: ۵۷

حیث یقف الإمام عشیة عرفة علی قرن یقال له النابت، بینه وبین موقف رسول اللّه عشرة أذرع.

وقال: حدثنا... محمد بن عبد الله عبید بن عمیر قال: وقف رسول الله علی النابت أمام الجبل الذی یسمی اللآل.

* الجبل الذی فی وادی عرنة:

ویحتمل أن یکون هوالجبل الذی علی حدّ عرفة فی بطن عرنة، روی الفاکهی (۱) عن الزبیر بن أبی بکر بسند متصل إلی ابن عباس قال: حدّ عرفة الجبل المشرف علی بطن عرنة إلی جبال عرفة.

* جبل کبکب:

قالصاحب معجم البلدان (۲): جبل خلف عرفات مشرف علیها قیل: هو الجبل الأحمر الذی تجعله فی ظهرک إذا وقفت بعرفات، وقال الأصمعی: ولهذیل جبل یقال له کبکب، وهو مشرف علی موقف عرفة.

أقول: الواقف بعرفات إن کان مستقبلًا القبلة (۳) لا یکون جبل کبکب فی خلفه، بل یکون علی یمینه، قال الفاکهی فی أخبار (۴)مکة: وکبکب جبل علی یمین الإمام إذا وقفت بعرفة، ثم إنّ جبل کبکب لا یسمی قرناً؛ لعدم انطباق أوصاف القرن علیه فهو جبل کبیر.

وهذه الثلاثة هی المحتملة فی القرن المطل علی عرفات دون غیرها مما ذکرناه، وهناک جبال أخری قریبة من عرفات ومطلة علیها یحتمل أن یکون أحدها.

۱- ۱ أخبار مکة، الفاکهی ۵/ ۶، ۷.

۲- ۲ معجم البلدان، یاقوت الحموی ۴/ ۴۳۴.

۳- ۳ أخبار مکة للفاکهی ۵/ ۴۰: قال ابن جریج: فقلت لعطاء: أرأیت الموقف بعرفة أحقٌ علی الناس أن یوجّهواإلی البیت؟ قال: أما إذا وجهتَ نحو الحرم فحسبک، الحرم کلّه قبلة ومسجد، ثم تلا علیَّ «فول وجهک شطر المسجد الحرام» البقرة: ۱۴۴، قال: فالحرم کلّه قبلة.

۴- ۴ أخبار مکة، الفاکهی ۵/ ۱۱.

ص: ۵۸

الهوامش:

ص: ۵۹

ص:۶۰

ص:۶۱

لمحات فنيّة من آيات الحجّ

ص: ۶۲

لمحات فنيّة من آيات الحجّ

د. محمود البستانی

يُلاحَظ: أنّ النصّ القرآنی الكريم يعتمد ثلاثة أنماطٍ من التعبير:

التعبير العلمی. التعبير الفنّی. التعبير الذی يلفّق بينهما...

وإذا أخـذنا بنظر الاعتبار أنّ التعبير العلمی يتناول المعرفـة الإنسانيـة والطبيعيـة البحتـة، بمـا أنّهـا حقـائق تعتمـد الملاحظـة والعرض والاستدلال العقلی (أی: اللغـة التی تعتمد المنطق والأرقام، التی لا تتدخل فيها عناصر الخيال أو العاطفة) حينئذٍ فإنّ التعبير الفنّی يظلّ على عكسه تماماً حيث يعتمد اللغة التخيلية والعاطفية... هذا فی نطاق التجربة البشرية...

وأمّا فی نطاق النصّ الشرعی (كالقرآن الكريم ونصوص المعصومين عليهم السلام) فإنّ اللغات الثلاث (اللغة العلمية، اللغة الفنّية، اللغة الجامعة بينهما) تجد سبيلها فی النصّ المشار إليه. وبمقدورنا ملاحظة ذلك فی الظواهر التی يتناولها القرآن الكريم، حيث يتناول الظواهر الفيزيائية أو الكيميائية وغيرهما من المعرفة (الطبيعية) بلغة (الفن) فی بعض النصوص، والأمر كذلك حيث يتناول الظواهر العقائدية أو

ص: ۶۳

الأخلاقية أو التاريخية.

والأمر كذلك حين نتّجه إلى نصوص المعصومين عليهم السلام، حيث نجد أن الإمام عليّاً عليه السلام مثلًا، يتناول ظواهر علمية تتصل بنشأة الكون وفق لغة فنّية تعتمد عناصر إيقاعية (كالسجع أو التجنيس أو توازن العبارة...) وعناصرصورية (كالتشبيه أو الاستعارة أو الرمز...).

طبيعياً، السياق هو الذى يحدّد فيما إذا كانت اللغة العلمية أو الفنّية أو اللغة الملفّقة بينهما، هى اللغة الأشدّ تأثيراً فى المتلقى، وهو أثر لا يفسح لنا المجال الآن بتفصيل الكلام عنه، بقدر ما تجدر الإشارة إليه فحسب..

*** فى ضوء هذه الحقائق يمكننا أن نتّجه إلى بعض النصوص القرآنية الكريمة «بالنسبة إلى إحدى الممارسات العبادية، وهى الحجّ» لملاحظة (اللغة الفنّية) التى يستخدمها النصّ فى هذا الميدان.

ومن البين أنّ اللغة الفنّية تعتمد جملة عناصر لفظية وإيقاعية وصورية وبنائية...، إلّاأننا نكتفى بأحد العناصر وهو عنصر «الصورة»...

أى: العبارة المركّبة التى ترصد العلاقة بين ظاهرتين؛ لاستخلاص ظاهرة ثالثة، وهذا كالتشبيه والاستعارة والتمثيل والرمز....

ونقف أوّلًا مع: قوله تعالى: (الحجُّ أشهر معلومات فَمن فرضَ فيهن الحجَّ فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحجّ وما تفعلوا من خير يعلمه اللَّه وتزودوا فإنّ خير الزاد التقوى واتقون يا أُولى الألباب) (۱)

.

(فإذا قضيتُم مناسككم فاذكروا اللَّه كذكركم آباءَكم أو أشدّ ذكراً...) (۲)

.

(حُنفاء للَّهغيرَ مشركين به ومَن يُشرك باللَّه فكأنّما خرّ من السماء فَتَخطَفُهُ الطيرُ أو تهوى به الريحُ فى مكانٍ سحيق) (۳)

.

النصوص المتقدّمة تتضمّن مجموعة من (الصور): الاولى منها نطلق عليها

۱- ۱ البقرة: ۱۹۷.

۲- ۲ البقرة: ۲۰۰.

۳- ۳ الحجّ: ۳۱.

ص: ۶۴

(الصورة التمثيلية) وأمّا الاخريان فيتضمنانصورتين (تشبيهيتين) الاولى منهما قد اعتمدت أداة التشبيه (الكاف) والاخرى قد اعتمدت أداةً تشبيهية اخرى هى (كأنّ).

المهم: نقف عند الصورة (التمثيلية) أوّلًا، وهى:

* قال تعالى: (وتزوّدوا فإنّ خير الزاد التقوى).

النصّ المتقدّم ينطوى عليصورة مألوفة كلّ الإلفة، حيث نعرف تماماً بأن الصور قد تكون مضبّبة يحتاج المتلقّى خلالها إلى بذل جهدٍ فكرى وعصبى؛ ليدرك العلاقة بين طرفى الصورة وبين الدلالة المستخلصة منها، وبعضها يتّسم بالضبابية الخفيفة والممتعة بحيث تتطلّب جهداً بسيطاً؛ لإدراك العلاقة ودلالتها، وبعضها يتّسم بالطرافة، وبعضها يتّسم بالإلفة؛ كما هو الملاحظ بالنسبة إلى الصورة التى نحن فيصددها... طبيعياً، يستخدم القرآن الكريم جميع الأنماط التى أشرنا إليها ما عدا النمط الأوّل (المضبّب تماماً) لأنّ ذلك يستتلى جهداً مضنياً يتنافى مع هدف (توصيل) الدلالة إلى المتلقّى، ومن ثم، فإنّ السياق هو الذى يحدّد ما إذا كان الأمر يتطلّب الصورة المضبّبة الممتعة، أو الطريفة، أو المألوفة...

الصورة المألوفة التى نواجهها، تنطوى على دلالة عميقة بطبيعة الحال،...

إنّها تتحدّث عن (التقوى) فيما تجسّد التقوى هدفاً ما بعده من هدف بالنسبة إلى ممارسة الإنسان لمهمّته العبادية فى الحياة، بصفة أن اللَّه تعالى ما خلق الجنّ والإنس إلّا ليعبدوه، والعبادة المطلوبة ليس هى مجرّد أدائها، بل بلوغ الدرجة الأعلى منها، تبعاً لما تقرّره الآية الكريمة: (ليبلوكم أيّكم أحسنُ عملًا...) (۱)

، أى: إنّ المطلوب من الممارسة العبادية هى (الأجود) وليس (الجيّد) فحسب، وهذا ما استهدفه النصّ القرآنى الكريم فى الصورة التمثيلية، حيث تجسّد (التقوى)- كما هو بيّن- (أحسن) العمل أو القمّة منه، فانتخب ظاهرة (الزاد) ليربط بينها وبين (التقوى)...

ونتساءل: لماذا (الزاد) دون غيره من الظواهر؟

۱- ۱ هود: ۷.

ص: ۶۵

واضـح، أن (الزاد) هو المـادة التی تمـدّ الإنسان بالحیاة، وهو ممّا یفتقر إلیه باسـتمرار، ولیس فی أوقات أو مراحل أو حالات خاصّـة... وإذا کـانت المهمّـة العبادیـة للإنسـان هی: مهمّـة (اسـتمراریة) منـذ أن یقـع علیه التکلیف إلی آخر عمره، حینئـذٍ فـإنّ انتخـاب ظـاهرة استمراریة (الزاد) تتنـاسب مع إبراز مفهوم (التقوی) تمامـاً. فـالتقوی مطلوبـة فی الحالات والأزمنـة جمیعاً (کالغـذاء الـذی نحتاجه فی الحالات والأزمنة جمیعاً).

مـن زاویــة اخری: نلاحـظ أنّ (الزاد) لا ـ ینحصــر أثره هنـا فی الحیـاة الـدنیا، بـل ینســحب علیالحیـاة الأخرویـة، أی: بقـدر مـایتزوّد الإنسانبالتقوی: یترک أثره علی الحیاة المقبلـة وهـذا هو الجدیـد والطریف فی الصورة... فالنصّ لم یعتمد (الزاد) من حیث کونه مادّة تمـدّ الإنسان بالعطاء الـدنیوی فحسب، بصـفة أنّ مَن یتّق اللَّه تعالی یجعل له مخرجاً، ویرزقه منحیث لایحتسب دنیویاً، بل تجاوزه إلی الع طاء الأخروی، حیث تمدّه (التقوی) باستمراریة حیاته الأخرویة من أعلی درجات الإشباع.

وهذا ما یفسّـر لنا انتخاب ظاهرة (الزاد) دون غیرها من الظواهر (کالأکل) مثلًا، حیث إنّ الأکل أو الشـرب یمدّان الإنسان بالحیاة، إلّاأنّ ذلک ینحصـر فی الحیاة الدنیا. أما الزاد فبالرغم من کونه یتناول ظاهرتی (الأکل والشرب) إلّاأنّه- من جانبٍ آخر- وهذا هو المهمّ فی الصورة: یجسّـد مفهوماً آخر لظاهرة تناول الغـذاء، ألا وهی (تهیئته) فکما أنّ المسافر مثلًا یحتاج إلی (الراحلـة والزاد) للإفادة منهما فی رحلته لاحقـاً، ولیس آنیاً فحسب... کـذلک (الزاد) بالنسـبة إلی ممارسـة (التقوی) حیث یسـتهدف النصّ لفت النظر إلی (تهیئـة) الزاد للإفادة منه آنیاً ولاحقاً بالنحو الذی أوضحناه.

إذن: أمکننا أن ندرک- ولو سریعاً- أهمّیة هذه الصورة (التمثیلیة) المتّسمة بالبساطة، إلّاأنّها اکتسبت دلالات عمیقة کما لاحظنا.

***

ص: ۶۶

* قال تعالى: (فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا اللَّه كذكركم آباءكم أو أشدّ ذكراً...).

الصورة التى نواجهها الآن، تنتسب- كما قلنا- إلى (التشبيه)،... والتشبيه نمطان: مجازى وواقعى، ويُقصد بالأول ما تُرصد به العلاقة بين طرفين لا واقع لهما كتشبيه السفن بالجبال فى قوله تعالى: (وله الجوار المنشآت فى البحر كالأعلام) (۱)

حيث لا علاقة واقعية بينهما، وهذا بعكس التشبيه الواقعى وهو التشبيه الذى نحن فيصدده (فاذكروا اللَّه كذكركم آباءكم...) حيث إنّ استحضار دلالةٍ ما (كذكر اللَّه تعالى) فى الذهن وممارسة ذلك لفظياً، أو استحضار (ذكر الآباء) فى الذهن وممارسته لفظياً أمرٌ واقعى، لم تُستحدَث علاقة مجازية بينهما...

من زاوية اخرى، ينشطر التشبيه إلى نمطين: التشبيه المتكافئ وهو ما يتكافأ طرفاه فى الدلالة على شىءٍ ما، كالتشبيه الذى لاحظناه بالنسبة إلى السفن والجبال، أو تشبيه (ذكر اللَّه تعالى) بذكر الآباء، حيث يتماثل أو يتساوى طرفا التشبيه دون تفاوت بينهما... وأمّا النمط الآخر من التشبيه فيمكن تسميته ب (التشبيه المتفاوت) وهو ما يشير إلى (الأعلى) أو (الأدنى) من الطرف الآخر، وهو قوله تعالى (أو أشدّ ذكراً)، حيث أشار النصّ إلى أن يذكر اللَّه تعالى بنحو (أشدّ) من ذكر الآباء، أى: أعلى درجة منه... المهم: أنّ الآية الكريمة (فاذكروا اللَّه كذكركم آباءكم أو أشدّ ذكراً) تنطوى على نمطى التشبيه: المتكافئ والمتفاوت، ومن ثم فإنّ الأهمّ من ذلك هو ملاحظة الأسرار الفنية وراء النصّ التشبيهى المذكور...

تقول النصوص المفسّرة بما مؤدّاه: إنّ الناس كانوا إذا فرغوا من الحج، ذكروا آباءهم ومفاخرهم؛ لذلك أمرهم اللَّه تعالى بأن يذكروا اللَّه تعالى على نحو ذِكرهم لآبائهم أو أشدّ ذكراً...

سرّ ذلك، أن الحاجة إلى (تأكيد الذات) من جانب، والحاجة إلى (الانتماء الاجتماعى) من جانب آخر، مضافاً إلى الأعراف الاجتماعية التى تغذّى الحاجتين

۱- ۱ الرحمن: ۲۴.

ص: ٦٧

المـذكورتين، حيث إنّ (الـذات) تتسع لتشـمل كلَّ ما يتصل بها من قريب أو بعيـد، ومنه: المجد النسبى (ذكر الآباء والأجداد)، وحيث إنّ (الانتماء الاجتماعى) يتسع ليشمل كلّ فرد أو مؤسسة يرتبط بها الشخص: الآباء، الاسرة، القرابة، القبيلة...

نقول: إنّ الحاجتين المـذكورتين تفسّرِانلنا سرّ التشبيه المشار إليه من حيث كونه قـد انتخب (ذكر الآباء) دون أنماط الذكر الاخرى؛ نظراً لإلحاحهما بالنسـبة إلى دوافع الإنسان المتنوّعـة... لكن: بما أنّ ذكر اللَّه تعالى لا يمكن أن يقاس بـذكر الآباء خاصّـة لمن يمتلك وعياً عبادياً جادّاً، حينئـذٍ فإنّ النصّ التشبيهى المذكور أردف التشبيه المتكافئ بالتشبيه المتفاوت، فقال (أو أشدّ ذكراً) بصـفة أن عظمة اللَّه تعالى ونعمه التى لا تحصى لا يمكن أن تُقاس بمجد الآباء وفضلهم...

*** قال تعالى: (حُنفاء للَّهغيرَ مشركين به ومَن يُشرك باللَّه فكأنّما خرّ من السماء فَتخطَفُهُ الطيرُ أو تهوى به الريحُ فى مكان سحيق). تشـير النصوص المفسّـرة إلى أن التشبيه المـذكور، يومئ إلى أنّ المشـرك لا يملك لنفسه حيلـة فهو هالك لا محالة، أو أن بُعده عن الحقّ كبعد الساقط من السماء...

ومع أن هـذا النمط من التـذوّق الفنّى للصورة ينطوى (من حيث الحصـيلة النهائية للشـرك) على الصواب، إلّاأنّ الأسـرار الفنّية الكامنة وراء هذا التشبيه لا تزال مجهولة لم يهتد الأقدمون ولا المعاصـرون إلى اسـتكناه دلالاته الفنّية، فالملاحظ أنّ قسـماً من النصوص الفنّية وسواها قد اهتدى الأقدمون إلى كشف أسـرارها، والبعض الآخر لم تسمح الثقافة الموروثة آنئذٍ بالكشف عنها؛ نظراً لمحدودية المناخ الثقافى آنئـذ (كما هو ملاحظ مثلًا فى سـكوت الأقـدمين عن الحديث عن الأسـرار الفنّية لقصـص القرآن) والقسم الآخر من النصوص الفنّية قد اهتدى المعاصـرون إلى كشـفها بالنسـبة إلى الجيل السابق منهم، والقسم الآخر قد اهتدى الجيل الحالى إلى كشـفه، مما يعنى أنّ قسماً آخر لا يزال ينتظر جيلًا جديداً يمتلك

ص: ۶۸

أدوات فنّية جديدة؛ ليكتشف بها أسرار الفن...

والمهم هو: أن نشير إلى جملة نقاط، منها:

- أن ننتبه إلى أنّ التشبيه الذى نحن فيصدده قد اعتمد أداة (كأن)، ولابد من أن يكون انتخاب النصّ لهذه الأداة دون غيرها منطوياً على سرّ فنّى، فالملاحظ (وهذا ما رصدناه فى استخدام القرآن الكريم لأدوات التشبيه) أنّ أدوات التشبيه الثلاث المعروفة (الكاف) (مِثْل) (كأنّ) تضطلع كلّ منها بوظيفة خاصة، فإذا كان طرفا التشبيه يتماثلان فى السمات المشتركة بينهما إلى درجة كبيرة تتجاوز المتوسط، حينئذٍ فإنّ الأداة (مِثْل) هى التى تستخدم فى هذا المجال، وهذا ما نجده فى الصورة التشبيهية التى رسمها القرآن الكريم بالنسبة الى أحد ابنى آدم عليه السلام عندما قتل أخاه وجهل كيفية مواراته، حيث شاهد غراباً (يبحث فى الأرض) (۱)

فقال: (يا ويلتى أَعجزتُ أن أكون (مثل) هذا الغراب..) (۲)

فالملاحظ هنا أن طرفى الصورة يتماثلان إلى درجة كبيرة تتجاوز المتوسط، حيث إنّ الإنسان والطائر متماثلان جنساً، ومواراتهما فى الأرض يتماثلان، وهكذا؛ لذلك استخدمت أداة التشبيه (مثل)،...

وأمّا إذا كانت درجة التشابه متوسطة المدى كما هو الغالب فى التشبيهات القرآنيّة، استخدم أداة (الكاف).

وأمّا إذا كانت دون درجة الوسط، فإنّ الأداة (كأنّ) هى تضطلع برسم الصورة، وهذا ما نجده فى التشبيه الذى نحن فيصدده. فالشرك باللّه عملية (فكرية)، وأمّا السقوط من الجو، وخطف الطير، وإلقاء الريح إيّاه فى مكان سحيق، فظواهر (مادية) كما هو بيّن؛ لذلك استُخدمت الأداة (كأنّ) نظراً للسمات المتفاوتة بين الطرفين... طبيعياً، أن السياق هو الذى يحدّد استخدام هذه الأداة أو تلك، وأمّا نسبة السمات المشتركة كثرت أو ضؤلت لا دخل لها فى جعل التشبيه متميّزاً عن التشبيه الآخر؛ لأنّ المهم هو: اقتناص أحد وجوه الشبه والتركيز عليه، حتّى إنّه ليمكن القول: إنّ التشبيه قد يصل إلى ذروة قيمته الفنّية (فى تجارب البشر)

۱- ۱ المائدة: ۳۱.

۲- ۲ المائدة: ۳۱.

ص: ۶۹

من خلال اقتناص سمة واحدة، إلّاأنّها ذات إثارة وطرافة...

وأيّاً كان الأمر، فإنّ النصّ الصورى قد تحدّث عن الشرك باللّه تعالى فى سياق المطالبة بأن يكون الحُجّاج (حنفاء للّه‌غير مشركين به)، سواء أكان المقصود من ذلك (وفقاً للنصوص المفسّرة) الإشراك فى تلبية الحجّ، أو مطلق الشرك، وسواء أكان ذلك فى نطاق الشرك الاصطلاحى أو الشرك الخفى كالرياء ونحوه.. ففى الحالات جميعاً، فإنّ إشراك (الآخر) مع اللّه تعالى فى مطلق الممارسات، يعنى:

إكساب (الآخر) فاعليةً ما، مع أنّ الحقيقة أنّ الفاعلية هى للّه‌تعالى وحده، وحينئذٍ من الممكن أن يكون النصّ قد استهدف الإشارة إلى أنّ من أشرك أحداً مع اللّه سوف يسقط من (حساب) اللّه تعالى حتماً، ويخسر كلّ شىء، وعندها سيكون مَثَلُه مَثلَ مَن سقط من الجوّ (والسقوط وحده كافٍ فى إلغاء الشخص من الحساب) وفى حالة سقوطه سوف لن يستنقذه أحدٌ ممّن أشركه مع اللّه تعالى، فإمّا أن تخطفه الطير فتنهش لحمه دون أن يستنقذه الطرف المذكور، وإمّا أن تهوى به الريح فى مكان بعيد لا يصل إليه أحد ليستنقذه من الموت، إن كان به رمق- على سبيل المثال....

المهم، يظلّ التشبيه المذكور- كما قلنا- واحداً من الصور الفنّية، التى تنتظر مَن يستكنه أسراره لاحقاً، مادمنا نعرف تماماً بأنّ النصّ القرآنى الكريم نصٌّ (معجزٌ) فنّياً، وأنّ الاستخلاصات المتعدّدة بعدد قرّاء النصّ، تظلّ إحدى سماته الفنّية المدهشة حيث يترك المتلقى- كلًا بحسب مرجعيته الثقافية والتذوقية- يستخلص دلالة تفترق أو تتماثل أو تتفاوت مع الآخر، بالنحو الذى أوضحناه.

ص: ۷۰

ضریح عبداللّه بن عبدالمطلب والد الرسول صلی الله علیه و آله

ص: ۷۱

ضریح عبداللّه بن عبدالمطلب والد الرسولصلی الله علیه و آله

محمدصادق النجمی

یعدُّ المرقد الشریف لعبداللّه بن عبدالمطّلب- والد الرّسول الکریمصلی الله علیه و آله- من الآثار المعروفة فی المدینة المنورة، التی تقع خارج البقیع، حیث کان محلّاً للزائرین حتی عام (۱۹۷۶ م) فبعد أن کان بناءً مشیداً ضمّ الجسد الطاهر لعبداللّه کما ذکرته کتب التاریخ، تمّت إزالته بحجّة توسیع مسجد النبیّصلی الله علیه و آله والسّاحات التی تُحیط به، ولم یبقَ أیُّ أثر له الیوم.

قبل الدخول فی تفاصیل وکیفیة تشیید هذا الضریح علی مرّ التاریخ ارتأینا من المناسب ذِکر بحث کلامیّ ولو بصورة موجزة حول إیمان والدی النبیّصلی الله علیه و آله:

فقد تأکّد لدی علماء الشیعة ومُتکلّمیهم وکذا بعض عُلماء أهل السُنّة ومُثقّفیهم، وللأدلّة من آیات وأحادیث من کلا الطریقین السّنّی والشّیعی، أنَّ والدَ الرّسول الأعظمصلی الله علیه و آله وکذلک أجداده الکرام کانوا جمیعاً مؤحّدین، وأنَّ أیّاً منهم لم تلوّثه أدران الشّرک أو الوثنیة. ولیست مسألة انتقال نور وجوده المقدّس عِبر الأرحام العفیفة

ص: ۷۲

والأصـلاب الطّاهرة حتی اسـتقراره فیصُـلب عبداللّه الموحّد وَرَحِم آمنة المؤمنة مقتصـرة علیهصلی الله علیه و آله وحده، بل إنَّ الأنبیاء الآخرین یمتلکون مثل هذهالخصوصیة أیضاً إذ وُلِدوا جمیعهم من أبوین طاهریین.

نظرة عُلماء أهل السنّة:

لجلال الدین السـیوطی،صاحب تفسـیر «الدرّ المنثور» ومؤلّف کتب کثیرة أخری، وأحد الشخصـیات العلمیة الموثوقة عند أهل السـنّة، بحث طویل ومُسهب، نوجزه هنا:

یقول السـیوطی فی بحثه المـذکور: لقـد ثبت أنَّ أجـداد النـبیّ وامّه وأبـاه، الـذین کـانوا حُنفـاء علی دین جـدهم إبراهیم علیه السـلام ویعملون بشـرائعه، کمـا کـان الحال مع کثیر من الأشـخاص فی جزیرة العرب من أمثال ورقـة بن نوفل وزیـد بن عمر بن نفیل، الـذین کانوا موحّدین یعبدون اللّه وحده.

ویضـیف السـیوطی قائلًا: تعتقد مجموعة من علمائنا ومنهم الإمام فخر الرازی بهذا الرأی، وقد أورد عدّة أدلّة فی تفسیره «أنوار التنزیل» علی ذلک منها الآیة: الذی یراکَ حین تقوم* وتقلّبکَ فی الساجدین (۱)

. یقول الفخر الرازی، (والکلام للسیوطیّ):

«یعتقـد المفسّـِرون أنّ المراد من الآیـة الشـریفة وتقلّبـکَ فی الساجـدین، انتقـال نطفـة الرسولصـلی الله علیه و آله منصُـلب الساجـدین والموحّـِدین والمعترفین بوحدانیـة اللّه واحـداً بعـد آخر. وهـذه الآیـة دلیـل واضـح علی أنَّ جمیع آبـاء النبیّصـلی الله علیه و آله کـانوا موحّدین وحُنفاء لم یسجدوا إلّااللّهولم یعبدوا إلّاإیّاه».

کما فی قولهصلی الله علیه و آله: «لم أزَلْ انقلُ من أصلاب الطاهرین إلی أرحام المطهّرات».

وجاء فی القرآن الکریم کذلک:

إنّما المشرکون نجسٌ فلو کان أجداد النبیّصلی الله علیه و آله وجدّاته مشرکین، لما کانَصلی الله علیه و آله أیَّدَ طهارتهم وأوثق عِفّتهم.

ثم قال السیوطی بعد نقله لأدلّة اُخری عن الفخر الرازی:

إنَّ الفخر الرازی بإیمانه واعتقاده بقداسة وطهارة أجداد الرسولصلی الله علیه و آله وبیانه لهذه الأدلة، إنّما یضفی بذلک

۱- ۱ الشعراء: ۲۱۸ و ۲۱۹.

ص: ۷۳

عظمـة وفخراً؛ لکـونه أحـد أکـبر وأعظم أئمـة الـدین، والشخصـیة العلمیـة الفـذّة، الـتی تمکّنت من الإجابـة عن کـثیر من التساؤلات، ومختلف المسائل العلمیة فی زمانه.

وبدأ السیوطی بتأیید نظریة الفخر الرازی، وذلک ببیانه لعدّة أدلّة عقلیة ونقلیة، مورداً بعض الأحادیث عن البخاری والبیهقی وأبی نعیم ومحدّثین آخرین محاولًا إثباتصحة هذا الموضوع، وبالإشارة الی الأدلة التی أوردها الشهرستانی والماوردیّ (۱).

هذا وقد قام بعض علماء أهل السنة بتصنیف الکثیر من الکتب والمؤلفات حول مسألة إیمان أجداد الرسولصلی الله علیه و آله ووالدیه، وینفرد السیوطیّ وحده بمؤلفاته الأربعة حول هذا الموضوع وهی:

۱- الدرج الرّفیعة فی الآباء الشریفة.

۲- المقاصد السّندسیّة فی النسبة المُصطفویّة.

۳- التعظیم والمنّة بأنّ أبوی رسول اللّهصلی الله علیه و آله فی الجنّة.

۴- السّبل الجلیّة فی الآباء العلیّة (۲).

نظرة عُلماء الشیعة:

إنَّ مسألـة إیمـان والـدی الرسولصـلی الله علیه و آله، کمـا أشـرنا إلی ذلـک سابقـاً، وطهارتهم بل وقداسـة ولادة جمیع الأنبیاء هی من المُسلّمات بل من السّمات البارزة فی عقیدة الشیعة.

یقول الفخر الرازی: «قالت الشیعة:

إنَّ أحداً من آباء الرسول وأجداده ما کان کافراً...» (۳).

وکلام الرازیّ هـذا دلیل واضـح علی عقیـدة الشـیعة واتفاق علمائهم حول هـذا الموضوع، بل إنَّ هـذا الأمر کان نفسه جزءاً من عقیدة أهل السّنة ومن المسلمات عندهم.

یقـول المجلسـیّ رحمه الله: اتّفقت الإمامیـة- رضـوان اللّه علیهـم- علی أنَّ والـدی الرسـول وکـلّ أجـداده الی آدم علیه السـلام کـانوا مسلمین، بل کانوا من الصّدیقین: إمّا أنبیاء مرسلون أو أوصیاء معصومون، ولعلَّ بعضهم لم یُظهر الإسلام لتقیّة أو لمصلحة دینیّة (۴).

الأدلّة:

تتّسم الکتب الکلامیة وکتب

۱- ۱ مالک الحنفاء:ص ۱۷، نقلًا عن هامش البحار ۱۵: ۱۲۱- ۱۲۸.

۲- ۲ المصدر السابق.

۳- ۳ المصدر السابق.

۴- ۴ المصدر السابق:ص ۱۱۷.

ص: ۷۴

التفسير عند الشيعة بإيراد أدلّة متعدّدة سواء من القرآن الكريم أو من السّنة النبوية الشريفة، كلّما تطرّقوا الى مسألة إيمان أجداد الرسولصلى الله عليه و آله. وللإيجاز نكتفى بالآيتين اللتين استشهد بهما الفخر الرازى على إيمان أجداد الرسولصلى الله عليه و آله وهما: الذى يراك حينَ تقوم* وتقلّبك فى الساجدين.

ولأننا قُمنا ببيان وتوضيح تفسير هذه الآية نقلًا عن الفخر الرازىّ فى الصفحات الآنفة فلا داعى لتكرار ذلك.

الروايات:

أ- جاء فى حديث نبوىّ شريف يُخاطب أمير المؤمنين على عليه السلام ما يلى:

«يا علىّ، إنَّ عبدالمطلب كان لا يَستقسم بالأزلام، ولا يعبد الأصنام، ولا يأكل ما ذُبِحَ على النّصب، ويقول أنا على دين إبراهيم عليه السلام» (۱).

ب- قال الأصبغ بن نباتة أنَّ أمير المؤمنين على عليه السلام قال:

«واللّه ما عبد أبى ولا جدى عبدالمطلب ولا هاشم ولا عبد منافصنماً قطّ. قيل فما كانوا يعبدون؟ قال:

كانوا يُصلّون الى البيت على دين إبراهيم عليه السلام مُستمسكين به» (۲).

لِمَ يُتَّهم أجداد الرسولصلى الله عليه و آله بالشرك؟!

كلّنا نعلم أنّ زمام السلطة السياسية للإسلام، ومصير الامّة الإسلامية فى القرن الأول الهجرى كان بيد أشخاص هم سليلو الشرك والوثنية، فقد كان آباؤهم وأجدادهم والأقربون لهم ممّن ترعرعوا على عبادة الأصنام والجاهلية الأولى، وليس هذا وحسب بل إن كثيراً من آبائهم وأقوامهم قُتِلوا فى سوح المعارك، التى جرت بين المسلمين وأولئك الوثنين، مِمّا حدا بالتأريخ الى وسَمهم بالوثنية وبعار الشرك على مدى العصور، فكفى بهذا الأمر دافعاً الى تنسيبهم أجداد الرسولصلى الله عليه و آله وآبائه الى زمرة آبائهم وأجدادهم هم، وهو أمر كان لابد منه لحلّ معضلتهم هذه حتى يتخلصوا من لعنة التأريخ وغضب الأجيال المسلمة فى المستقبل.

فقاموا، إثر ذلك، بنقل أحاديث ملفقة وكاذبة على لسان الرسولصلى الله عليه و آله، مثل:

«إنَّ رجلًا قال يا رسول اللّه أين

۱- ۱ الخصال للصدوق، نقلًا عن البحار: ۱۵: ۱۴۴؛ ومن لا يحضره الفقيه، باب النوادر.

۲- ۲ كمال الدين، نقلًا عن البحار ۱۵: ۱۴۴.

ص: ۷۵

أبی؟ قال: فی النار، فلمّا قفی دعاهُ، إنَّ أبی وأباکَ فی النار!» (۱).

حادثة زیارة الرسولصلی الله علیه و آله لقبر والدته وتحریف ذلک:

ورد أنّ النبیّصلی الله علیه و آله توقّف فی «الأبواء» عند قبر امّه «آمنة» بعد عودته من فتح مکّة ورجوعه الی المدینة. فجلسَ عند رأسها، وبعد استذکار تضحیاتها ومشاقّها، لم یتمالک نفسه، وشرعَ بالبکاء حتی تأثر أصحابه وشارکوه بالبکاء والنحیب.

وقد لاحظ الصحابة جمیعهم یومئذ أحاسیسه وعواطفه تجاه امّه فی ذلک المشهد المُعَبِّر والمؤثّر، ومدی احترامه وتقدیره لها ولجهودها التی بذلتها فی سبیله. وما کان لمشهد مؤثّر وحسّاس کهذا أن یُنسی بالسهولة التی یشتبهها البعض خصوصاً فی ظروف کتلک التی هیّأت له هذا الأمر وبحضور آلاف مؤلّفة من المسلمین وقتئذ من الذین یُرافقونه فی هذه الرّحلة، ولم تکن حادثة عابرة یمکن للتأریخ أن یطویصفحتها دون وضع بصمات لها علی الصفحات التالیة. إلّاأننا نری، مع الأسف الشدید، تدخل أیدٍ ماهرة تمکّنت من تحریف الواقعة والتصرّف فیها خدمةً لأغراضهم الشخصیة، تماماً کما حصل لحادثة «الغدیر» وهی أشهر من نار علی علم، عندما اجتهدوا فیما تعنیه کلمة «مولی» المذکورة فی تلک الحادثة، وادّعوا قائلین: إنَّ مسألة زیارة النبیّصلی الله علیه و آله قبرَ امّه وبکاءه عندها وإبکاءَصحابته کذلک لاـ غُبار علیها، إلّا أن تصرف الرسولصلی الله علیه و آله هذا لم یکن دلیلًا علی إیمان امّه. أو شاهداً علی أنها کانت مُوحّدة، والدلیل علی ذلک أنَّ النبیّصلی الله علیه و آله ذکر عبارة بعد هذه الحادثة مباشرة دلَّت دلالة واضحة علی شرک امّه وکفرها وهو ما یؤیّده الحدیث التالی (بزعمهم):

«عن أبی هریرة قال: زار النبیّصلی الله علیه و آله قبر أمّه فبکی وأبکی من حوله، فقال استأذنتُ ربّی فی أن استغفر لها، فلم یؤذن لی، واستأذنته فی أن أزور قبرها فأذِنَ لی، فزوروا القبور فإنّها تذکّر الموتَ».

وقد وردَ هذا الحدیث المنقول عن أبی هریرة فیصحیح مُسلم (۲) وسنن

۱- ۱صحیح مسلم، ج ۱، کتاب الإیمان، باب «بیان أنَّ من مات علی الکفر فهو فی النار»؛ سُنن ابن ماجة، الحدیث ۱۵۷۲؛ سُنن أبی داود، ۲: ۵۳۲.

۲- ۲صحیح مسلم: ج ۱، کتاب الإیمان، باب «من مات علی الکفر فهو فی النار».

ص: ۷۶

النسائی (۱) وابن ماجة (۲) وأبی داود (۳) وتأريخ المدينة لابن شَبَّة (۴) واستدلَّ أصحابُ السُنن الثلاثة المذكورة بمضمون الحديث على جواز زيارة قبور المشركين، وأفردوا لهذا الحديث باباً خاصاً فی سُننهم تحت عنوان: «جواز زيارة قبر المشرك».

الحديث المذكور يُناقض القرآن:

لسنا فيصدد الجواب عن هذا التحريف الوارد بشكل حديث، إلّاأننا لا نرى مفرّاً من التنويه الى ثلاث نقاط مهمة:

۱- يتنافى هذا الحديث ومضمون الآية الشريفة: ولا تصلّ على أحد منهم ماتَ أبداً ولا تَقمْ على قبره إنّهم كفروا باللّه ورسوله وماتوا وهم فاسقون (۵)

.

فهذه الآية كما نلاحظ لا تمنع المسلم من الدّعاء والصلاة على قبر المشرك أو المنافق فحسب، بل إنّها تحرّض بل وتنهى المسلمين كافة حتى من مجرّد الوقوف على قبورهم؛ لأنّهم استبطنوا الكفرَ باللّه ورسوله، ولو كان المنافق كما هو معهود عنه يمتلك خصلة سيئة واحدة تتمثّل بكفره الباطنيّ وحقده الدفين فی قلبه، فإنَّ للمشرك خصلتين أسوأ من تلك؛ لأنّ المشركين كافرون باطناً وظاهراً، ويلهجون بالكفر بألسنتهم وقلوبهم، وينكرون اللّه ورسوله ويكفرون بهما؛ لذا كان من الطبيعی أن يكون ذلك النّهی أشد فی المشركين منه فی المنافقين، وعدم الدعاء أو الوقوف عند قبورهم، لا كما أدّعى ناقلو الحديث أنَّ الدعاء والوقوف عند قبر المنافق ممنوع، وأنّه يجوز مقابل ذلك الوقوف عند قبور المشركين دون الدعاء لهم.

۲- إذا كان الحديث الذی نقله أبو هريرة يدلُّ على عدم رضا اللّه عن آمنة، ومنع رسولهصلى الله عليه و آله من الاستغفار لها، فإنّ لدينا فی مقابل ذلك حديثاً آخر نقله لنا الصحابیّ الجليل عبداللّه بن مسعود أنّ رسول اللّهصلى الله عليه و آله لما وصلَ قبر اُمّه قال: «هذا قبر آمنة، دلَّنی جبرائيل عليه» (۶)، ولا شكَّ فی أنَّ حديث الرسولصلى الله عليه و آله الذی نقله عبداللّه بن مسعود يُشير بكلّ وضوح وجلاء الى عِظَم شخصية آمنة وقداستها حين

۱- ۱ ج ۴، كتاب الجنائز، باب «زيارة قبر المشرك».

۲- ۲ المصدر السابق، ج ۱، باب «ما جاء فی زيارة قبور المشركين».

۳- ۳ ۲: ۱۵۹.

۴- ۴ ۱:ص ۱۱۸.

۵- ۵ التوبة: ۸۴.

۶- ۶ عن عبداللّه بن مسعود قال: كنّا نمشی مع النبیصلى الله عليه و آله ذات يوم إذ مرّ بقبر فقال: أتدرون قبرُ من هذا؟ قلنا: اللّهورسوله أعلم. قال: قبر آمنة، دَلّنی عليه جبريل. تاريخ المدينة لابن شبّة ۱: ۱۱۷.

ص: ۷۷

یکون جبرائیل نفسه هو الذی دلّ الرسولصلی الله علیه و آله علی قبرها.

۳- والنقطة الأخیرة هی أنَّ حدیث أبی هریرة غیر مقبول حتی عند بعض المحقّقین من علماء أهل السّنة أنفسهم؛ وذلک لصریح مخالفته لنصِّ القرآن ومنافاته له، وکما ذکرنا فإنَّ علماء بارزین کالفخر الرازی والسیوطی أهملوا حتی الإشارة الی هذا الحدیث، واعتقدوا بإیمان والدی الرسولصلی الله علیه و آله وأنّهما کانا موحّدین تماماً کما هو الحال مع علماء الشیعة، وقاموا بتألیف عدة کُتب فی هذا المضمار.

مسجد دار النابغة (أو ضریح والد الرسولصلی الله علیه و آله):

إنَّ التحریف والتصرُّف اللذین طرأ کلّ منهما علی حادثة زیارة الرسولصلی الله علیه و آله قبر أُمّه واللذین بیّنا الهدف من ورائهما وکیفیة تلفیقهما، طالا کذلک قصة قبر وضریح عبداللّه بن عبدالمطّلب والد الرسولصلی الله علیه و آله وزیارة النبیّصلی الله علیه و آله لذلک القبر وصلاته عنده کما سنری ذلک، ولن یتسنّی لنا الوقوف علی إشکالات هذه المسألة إلّابعد تعرّفنا علی تاریخ «دار النّابغة» وهو مکان دفنِ والد الرسولصلی الله علیه و آله والتحوّلات التی حدثت علی ذلک المکان علی مرّ التأریخ:

موجز تأریخ دار النّابغة:

کان دار النابغة بیتاً یقع بین بیوت قبیلة بنی النّجار فی المدینة فی الطرف الغربی لمسجد النبیّصلی الله علیه و آله، وکانت تلک الدار لشخص من القبیلة نفسها یُدعی «النابغة». وقد نزل عبداللّه فی المدینة عند هذه القبیلة أثناء رجوعه من رحلة الی الشام؛ لما کانت تربط بین آمنة زوج عبداللّه وبنی النجار من وشائج وروابط عائلیة. وحدث أن مرض عبداللّه عندهم فتوفی إثر ذلک، فووریَ جسده الطاهر الثری فی تلک الدار کما کان متعارفاً فی ذلک الزمان.

وقد سافر النبیّصلی الله علیه و آله مع والدته وهو فی سنّ السادسة لزیارة أهلها وقومها من بنی النجار فی المدینة، فنزلا عندهم کما فعل أبوه عبداللّه من قبل، وأقاما فی نفس الدار شهراً کاملًا. وقد قال الرسولصلی الله علیه و آله أثناء هجرته الی المدینة وخلال إحیائه لتلک الذکریات التی مرّت فی طفولته: «قبر أبی عبداللّه

ص: ۷۸

داخل هذه الدار كذلك».

وبسبب زيارة النبيصلى الله عليه و آله لتلك الدار فى الهجرة، وصلاته عند قبر والده فى بعض الأحيان، دُعيت تلك الدار ب «مسجد دار النابغة» أيضاً.

وكان مؤرخو المدينة يذكرون كلتا التّسميتين لدار النابغة حتى القرن الثالث الهجرى، وقد أشاروا مراراً الى أن تلك الدار هى محل دَفن عبداللّه، وهى كذلك المسماة ب «مسجد دار النابغة». لكنّ الكُتّاب والمؤرخين، وبعد فترة وجيزة من ذلك التأريخ، وخدمةً للمصالح الشخصية والنوايا السياسية كما نوّهنا آنفاً، أودعوا قبر عبداللّه فى دار النابغة عالَم النسيان، وجاهدوا فى طىّ تلك الصفحة من التأريخ تماماً كما فعلوا مع قبر امّ الرسولصلى الله عليه و آله وزيارة النبيّصلى الله عليه و آله له، بل حاولوا جاهدين كتم أمر دَفن عبداللّه فى ذلك المكان ومنع التحدّث عن ذلك أصلًا! حتى غَدَت دار النابغة عند الكثيرين مجرّد مسجد لا غير.

وقد دام هذا الوضع حتى القرن العاشر تقريباً حيث احدِث بناءٌ جديدٌ لدار النابغة، وتمّ نصب الضريح على القبر وبناء محراب بالقرب من ذلك الضريح، فتمّ بذلك حفظ السّمات المهمة فى تلك الدار وأعنى القبر والمسجد اللذين تضمّهما تلك الدار.

ولقد كان معظم الزائرين، الذين لم تكن لديهم معلومات كافية عن وجود المسجد فى تلك البقعة، يعتقدون أنّ هذه الدار إنّما هى مكان دَفن عبداللّه بن عبدالمطلب والد الرسولصلى الله عليه و آله لا كونها مسجداً كذلك. ويسود الاعتقاد أنَّ السبب الرئيس الكامن وراء الحفاظ على هذه البقعة من قِبَلِ المسؤولين حتى عام (۱۹۷۶ م) بالرغم من كونهم قد هدّموا تقريباً جميع الأماكن الأثرية والدينية فى المدينة وسائر مُدن الحجاز قبل سبعين سنة من ذلك التأريخ وساووها بالأرض، هو كون تلك الدار تحمل عنوان المسجد، لا بسبب وجود قبر عبداللّه والد الرسولصلى الله عليه و آله الذى يعدُّ كافراً ومشركاً!

دار النابغة مكان دَفن عبداللّه:

يقول الواقدى (توفى ۲۳۰ ه) عن عبداللّه بن عبدالمطلب ووفاته فى المدينة ما يلى:

ص: ۷۹

«ودُفِنَ فی دار النابغة، وهو رجلٌ من بنی عدیّ بن النّجار...» (۱).

وقال ابن شبّة (توفی ۲۶۲ ه) أیضاً:

«قبر عبداللّه بن عبدالمطّلب فی دار النابغة» (۲).

ونقل ابن شبة کذلک عن کتاب «تاریخ المدینة» لعبدالعزیز الذی کان معاصراً لسنة (۹۵ ه) قوله: «أنّه عُرِّف ودُلَّ علی المکان الدقیق لقبر عبداللّه والذی یقع فی مستهل الدخول الی دار النابغة علی یسار الداخل إلیها» (۳).

وقال الطبری (توفی ۳۱۰ ه):

«ودفِنَ فی دار النابغة فی الدار الصغری إذا دخلت الدار عن یسارک لیس بین أصحابنا فی ذلک اختلاف» (۴).

وتجدر الإشارة الی أن نظریات وأقوال المؤرخین، وبالأخصّ منهم الذین کتبوا عن تأریخ المدینة حول هذا الموضوع کثیرة ومُسهبة یطول شرحها ونقلها هنا.

مسجد دار النابغة:

نقل ابن شبّة من خلال عدّة روایات أنَّ من بین الأماکن والبقاع، التی زارها النبیّصلی الله علیه و آله وصلّی فیها هی دار النابغة (۵).

ویدلّ تعدّد هذه الروایات علی أنَّ الرسولصلی الله علیه و آله کان یکرّر من زیاراته لتلک الأماکن والصلاة فیها، ونستوحی من ظاهر تلک الروایات أنَّ کلّ راوٍ للرّوایة إنّما قام بتدوین ما شاهده هو بعینه، وشرع فی نقل ذلک عِبرَ سطور مُؤَلَّفِه، ویُستَبْعَد کونهم عاصروا بعضهم بعضاً فی فترة زمنیة واحدة، وأنهم شاهدوا الرسولصلی الله علیه و آله یُصلی تلک الصلاة مرة واحدة فقط، ثم یقومون بنقل ذلک من خلال عدّة روایات لهم.

وقد أشارَ السمهودی (من علماء أوائل القرن العاشر الهجری) الی مسجد النابغة هذا ضمن بیانه وعدِّه لمساجد المدینة آنئذٍ، ثم ینقل کلام ابن شبّة (۶) السابق مضیفاً علیه نقطتین اخریین:

أ- ودار النابغة هی المرادة بما رواه ابن شبّة. قبر عبداللّه بن عبدالمطلب یعنی والد رسول اللّهصلی الله علیه و آله فی دار النابغة.

ب- أنّ داره کانت غرب المسجد النبویّ عند بنی جدیلة (۷).

وقداتّبع مؤلف کتاب «عمدة الأخبار» وکان معاصراً لابن شبّة نفس أُسلوبه،

۱- ۱ الطبقات ۱:ص ۶۱، ق ۱.

۲- ۲ تاریخ المدینة لابن شبّة ۱: ۱۱۶- ۱۱۷.

۳- ۳ المصدر السابق.

۴- ۴ تاریخ الطبری، طبعة لندن ۲: ۷۶.

۵- ۵ الطبقات ۱: ۷۳، ق ۱.

۶- ۶ وفاء الوفاء ۳: ۸۶۷.

۷- ۷ تأریخ المدینة ۳: ۸۶۷.

ص: ۸۰

فبعد تعریفه لمسجد النابغة قام بنقل کلام‌ابن‌شبّة، الذی‌ذکر فیه أنَّ دار النابغة تضم کذلک قبر عبداللّه کما أشرنا (۱).

إلّا أنَّ أیّاً من مُؤرخَی المدینـة هـذین، وبعض آخر من الکُتّاب فی القرون المختلفـة، لم یتطرّق الی مسألة قبر عبداللّه علی أنّها موضوع مُستقلّ.

إنَّ مـا یُمکن الوصول إلیه من خلال تلک الأقوال والآراء هو أنَّ الرسولصلی الله علیه و آله بعـد هجرته من مکـة الی المدینـة، ومع مشاغله الکثیرة ومهامّه الصـعبة لم یَنْسَ دار النابغـة علی أنها قبر والـده عبـداللّه أبـداً، وکان إضافة الی ذلک ینوّه بین الفینة والفینة إلی أهمیـة هـذا المکان وتأریـخ القبر وما الی ذلک، وکان غالباً ما یُصـلّی عنـد ذلک القبر، وهی حقیقـة اعترف بها مؤرخو القرون الأولی للهجرة، إلّاأنَّ الاتجاه نحو کون هذا المکان مسـجداً غَلَبَ علیصفة تلک الدار باعتبارها مرقداً أو ضریحاً، وهو تحریف لحقائق تأریخیة سواءٌ أکان مقصوداً أو غیر مقصود.

بناء مکان قبر عبداللّه وتخریبه:

لیس واضـحاً لـدینا ما إذا کان البناء الـذی یضمّ قبر عبـداللّه ومسـجد النابغة قبل القرن العاشـر بهذا الشـکل الذی نراه الیوم أم لا. إلّاأنَّ الفترة التی تلت ذلک التأریخ کشفت عن بناء مهیب وراقٍ نسبیاً علی قبر عبداللّه، قام به بعض السلاطین العثمانیین، ثم بنوا ضریحاً علیه وأقـاموا عنـده محرابـاً؛ لکی یتمّ بـذلک الحفـاظ علی کلاـ عنوانی المکان باعتباره مقبرة ومسـجداً. وکانت تلک البقعـة الطاهرة ملاذاً وموئلًا للزائرین وموضع تقدیر کتّاب تلک الفترة، الذین تطرقوا الی ذکر تفاصیلها.

ومع تهدیم وتخریب کافة البقاع والأماکن داخل وخارج البقیع، إلّاأنَّ مقبرة عبداللّه ظلّتصامدة حتی عام (۱۹۷۶) حیث قاموا بَسدّ الباب الداخل الی المقبرة بالصخر والآجر، ولم یکن هناک سبیل للدخول إلیها.

وقد قمتُ مع جمع من الزائرین بزیارة تلک البقعة الشریفة، الواقعة داخل زقاق ضیق، وکان ذلک عام (۱۹۷۵) أثناء تأدیة مناسک حجّ التمتّع، وقد تمّت تلک الزیارة من خارج بابها، وعند تشرّفی بالعمرة بعد عدة شهور

۱- ۱ عمدة الأخبار فی مدینة المختار:ص ۱۹۴.

ص: ۸۱

من تلک الزیارة لاحظت عملیـة هـدم تلک البقعـة والبیوت والسوق، التی کانت حولها بحجّـة توسـیع المسـجد والساحات التی حوله، فضُـمّت تلک الدار الی الساحة الکبیرة، عند الجهة الغربیة للمسجد، فَتمَّ بذلک إزالة دار النابغة تماماً، والتی کانت تضمّ قبر عبداللَّه بن عبدالمطلب والمسجد الذی فیها بعدصمودها أربعة عشر قرناً.

مکان دَفن عبداللَّه قبل التخریب:

کما أشرنا سابقاً فقد تحدّث مؤرخو المدینة والکتّاب فی القرون الأخیرة- کما کان شأن المؤرخین فی القرون الأولی- عن مکان دفن عبـداللَّه، سواءٌ أکان ذلک الحـدیث طویلًا مُسـهباً أو قصـیراً موجزاً. ومن جملـة اولئک علی حافظ وهو کاتب من أهل المدینـة، حیث کتب فی ذیل کتابه الموسوم ب «قبر والد النبیّصلی الله علیه و آله» یقول:

«ودُفِنَ فی المدینة المنوّرة وقبره معروف لدی أهل المدینة بزقاق الطّوال» (۱).

وکتب إبراهیم رفعت باشا المصـریّ یقول: «من الأضـرحة التی فی خارج البقیع، ضـریحٌ لعبداللَّه بن عبدالمطلب والد النبیّ وهو بداخل المدینة» (۲).

وأشـار الکتّـاب الفرس کـذلک الی مَـدفن عبـداللَّه باعتبـاره بقعـة طاهرة من بقاع المدینـة، من أمثال: فرهاد میرزا (۳)، ونائب الصـدر الشیرازی (۴) والسید إسماعیل المرندی (۵) وعدد آخر من کُتّاب الرحلات.

وعند تشرُّف حسام السلطنة بزیارة مکة عام (۱۲۹۷ ه) کتب قائلًا:

«خرجتُ من منزلی فی یوم الاثنین العاشـر من محرّم قاصـداً زیارة مقبرة جناب عبـداللَّه والد الرسولصـلی الله علیه و آله وکذلک زیارة أئمة البقیع علیهم السلام، وتقع مقبرة ذلک الرجل العظیم فی سوق الطوال علی یسار الزقاق، وتحتوی المقبرة المذکورة علی فناءصغیر یُقابله إیوان. وتقع باب المقبرة فی یسار فضاء الإیوان. کانت الباب مُغلقـة، وانتظرنا مدة من الوقت حتی تمَّ إحضار السادن، ففتح الباب ودخلتُ البقعـة وبـدأنا بأداء مراسم الزیارة، وتحتوی المقبرة علی ضـریح من الخشب، وتُحیط بمضـجعه الشـریف قماشة وردیة مُطرّزة، قامت بخیاطتها

۱- ۱ فصول من تأریخ المدینة، الطبعة الثانیة:ص ۱۷۱.

۲- ۲ مرآة الحرمین ۱: ۴۲۷.

۳- ۳ الرحلات:ص ۱۵۲.

۴- ۴ الرحلات:ص ۲۳۲.

۵- ۵ وَصف المدینة، مجلة میقات الحج، العدد ۵:ص ۱۱۷.

ص: ۸۲

والدهٔ السلطان عبدالمجید خان فی عهد السلطان عبدالعزیز خان، وقدصلّینا رکعتین فی محراب المرقد. توجد کُوّهٔ فی الجههٔ الیُسری للمحراب تُفتَح علی الجُنینهٔ، بعد ذلک خرجنا من هناک مُتّجهین نحو البقیع» (۱).

هذا ما کان من بحث الخلفیهٔ التأریخیهٔ ل «دار النابغهٔ» من وُجهتیها الُمختلفتَین، ویمکن الاستنباط من وُجهتها الثانیهٔ، أی مسألهٔ إقامهٔ رسول اللَّهصلی الله علیه و آله الصلاهٔ فی تلک الدار وعند قبر أبیه العظیم، أنها غیر منفصلهٔ عن وُجهتها الأولی، وهی وجود قبر أبیهصلی الله علیه و آله هناک حتی إنّهصلی الله علیه و آله کان یزور قبر والدته فی حلّه وترحاله، ویبکی عنده بُحرقهٔ وألم، فیُبکی أصحابه وخِلّانه، وکان کذلک یُقیم الصلاهٔ عند قبر أبیه علی روحه ویدعو له ویُناجیه، سیّما إذا علمنا أنَّ قبر أبیه کان فی المدینهٔ وبالقرب منه وفی متناول یده حتی دُعِیَ ذلک المکان ب «مسجد دار النّابغهٔ» وعُرِف واشتُهر به.

الهوامش:

۱- ۱ یومیات مکّهٔ لحسام السلطنهٔ:ص ۱۴۸.

ص: ۸۳

الشطر

ص: ۸۴

الشطر

حسن محمد

وردت کلمهٔ (شطر) فی کتاب اللّه الکریم خمس مرّات فی الآیات الثلاث التالیهٔ:

... فلنولینکَ قبلهً ترضاها فولِّ وجهک شطر المسجد الحرام وحیث ما کنتم فولوا وجوهکم شطره... (۱)

.

ومن حیثُ خرجتَ فولِّ وجهک شطر المسجد الحرام (۲)

.

ومن حیثُ خرجتَ فولِّ وجهک شطر المسجد الحرام وحیث ما کنتم فولوا وجوهکم شطره... (۳)

.

بعیداً عن ذکر أهمیهٔ وخطورهٔ موضوع تحویل القبلهٔ من بیت المقدس إلی حیث الکعبهٔ المبارکهٔ، وبعیداً أیضاً عن آثار هذا التحول وما ترکه من تساؤلات- کانت تنمیها أیادی الیهود الخبیثهٔ وأعداء الإسلام- فی الساحهٔ الإسلامیهٔ، وبعیداً عن الجهود العظیمهٔ، التی بذلها رسولُ اللَّهصلی الله علیه و آله والمخلصون الواعون من أصحابه، للردّ علی کلّ الشبهات الخطیرهٔ، التی کانت تبث هنا وهناک من قبل سفهاء الناس

۱- ۱ البقرهٔ: ۱۴۴.

۲- ۲ البقرهٔ: ۱۴۹- ۱۵۰.

۳- ۳ البقرهٔ: ۱۴۹- ۱۵۰.

ص: ۸۵

تحت عنوان ما وَلّاهم عن قبلتهم التی كانوا علیها... (۱)

.

وكانت السماء تواكب جهود رسول اللّه وتصدیه، وتمدّه بما یحتاجه من قوة وعزم وثبات، وهو یقود حركة خطیرة جدّاً ضد مؤامرة خطیرة جدّاً یقودها أعداؤه من كلّ الأطراف، حتی إنّها أربكت المجتمع المسلم وقتها، وراحت السماء تصور لنا واقع تلك الفترة والانقلاب الذی كاد أن ینخر أو یطیح بالواقع والمجتمع المسلم ووحدته وقدرته، وراحت أیضاً ترسل إجاباتها بقوة:... قل للّهالمشرق والمغرب یهدی مَنْ یشاء إلیصراط مستقیم (۲)

.

... وما جعلنا القبلةَ التی كنتَ علیها إلّالنعلمَ من یتبعُ الرسولَ ممّن ینقلبُ علی عقبیه وإن كانت لكبیرةً إلّاعلی الذین هدی اللّهُ... (۳)

.

... وإنّ الذین أُوتوا الكتابَ لیعلمونَ أنّه الحقّ من ربّهم... (۴)

وتختم هذا الصراع آیة اخری بل نتیجة هذا الصراع والنقاش الحاد: ولئن أتیتَ (یا رسول اللّه) الذین أوتوا الكتابَ بكلّ آیة ما تبِعوا قبلَتك وما أنت بتابعٍ قبلتَهم وما بعضُهم بتابعٍ قبلةَ بعض ولئن اتبعتَ أهواءَهم من بعد ما جاءك من العلم إنّك إذاً لمن الظالمین (۵)

.

الذین آتیناهم الكتابَ یعرفونه كما یعرفون أبناءَهم وإنّ فریقاً منهم لیكتمون الحقّ وهم یعلمون (۶)

علی القول بأن الضمیر فی یعرفونه یعود الی أمر القبلة أی یعرفون أمر القبلة حقّ وهو ما ورد عن ابن عباس (۷).

مقالتنا هذه ابتعدت عن كلّ تلك التفاصیل؛ لتكتفی بالجانب الفقهی من موضوع القبلة، الذی یتجلّی فی كلمة (شطر) وإن تطرقت قلیلًا إلی الجانب اللغوی والجانب التفسیری فلضرورة البحث.

الشَّطْر لغةً: شطرُ الشیء: نصفه، وجمعه أشطر. وشاطره مالَه: إذا ناصفه، ومن ذلك قولهم: «شاطرتك مالی»، فهو جزء الشیء ونصفه ومنه: «مَن أعان علی مؤمن بشطر كلمة فعلیه..». «السواك شطر الوضوء» للمبالغة فی استعماله،

۱- ۱ البقرة: ۱۴۲.

۲- ۲ البقرة: ۱۴۲.

۳- ۳ البقرة: ۱۴۳.

۴- ۴ البقرة: ۱۴۴.

۵- ۵ البقرة: ۱۴۵.

۶- ۶ البقرة: ۱۴۶.

۷- ۷ مجمع البیان ۱/ ۴۲۳.

ص: ۸۶

والشطر: الجهة والناحية ومنه قصدتُ شطره أی نحوه. والقصد، ومنه «شطر شطره» أی قصد قصده، ومنه قولهم: «خذ شطر زید» أی قصده، ومنه: فولّ وجهک شطر المسجد... أی جهته وتلقاءه ونحوه وهو ما علیه أکثر المفسّرین.

فالشطر إذن یأتی بمعانٍ منها النصف ومنها الجزء ومنها القصد والجهة والناحیة...

وهذه کلّها خاصة الجهة والتلقاء عند أکثرهم، وردت فی تفسیر کلمة الشطر فی الآیات الکریمة.

وقد ذکرصاحب الدرّ المصون وغیره أشعاراً تدل علی أنها بمعنی نحو وتلقاء.

ألا مَنْ مبلغٌ عنی رسولًا وما تغنی الرسالةُ شطر عمرِو

أقول لأمِّ زنباعٍ أقیمی صدورَ العیس شطرَ بنی تمیمِ

وقد أظلَّکم مِن شطر ثغرِکم هولٌ له ظُلَمٌ یغشاکم قِطعاً

تعدو بنا شطرَ نجدٍ وهی عاقدةٌ قد کارب العقدُ من إیقادها الحُقبا

إنّ العسیرَ بها داءٌ مُخامرها وشطرها نظرُ العینین محسورُ کلّ ذلک بمعنی نحو وتِلقاء(۱).

وفی مجمع البیان:... وشطر المسجد الحرام أی نحوه وتلقاءه...

وذکر قولًا للزجاج: هؤلاء القوم مشاطرونا أی دورهم تتصل بدورنا کما یقال: هؤلاء یناحوننا أی نحن نحوهم وهم نحونا. وذکر قولًا لصاحب العین: شطر کلّ شیء نصفه، وشطره نحوه وقصده، ومنه المثل: احلب حلباً لک شطره أی نصفه (۲)..

کما أنّ القرطبی یقول: الشطر له محامل: یکون الناحیة والجهة کما فی آیة:

شطر المسجد الحرام وهو ظرف مکان کما تقول: تلقاءه وجهته.. کما یذکر أنّ شطر المسجد: نصفه ومن الحدیث «الطهور شطر الإیمان»... وابن العربی الذی کثیراً ما یستفید القرطبی من آرائه یقول: الشطر فی اللغة یقال علی النصف من

۱- ۱ انظر الدر المصون ۲: ۱۶۱- ۱۶۲ للسمین الحلبی. وانظر التبیان للطوسی ۲: ۱۴، والتفسیر الکبیر للرازی ۳: ۱۲۶، ومجمع البحرین کلمة شطر.

۲- ۲ مجمع البیان [اللغة] الآیة ۱۴۴ من سورة البقرة: ۴۱۸، وانظر التبیان للطوسی ۳: ۱۴- ۱۵.

ص: ۸۷

الشیء ویقال علی القصد... (۱) إعراب الشطر:

جاء فی إعرابها وجهان:

۱- ظرف مکان: حینما نأخذ بقول: إنّ الفعل «ولّی» یتعدی لمفعول واحد.

۲- مفعول به ثان: إذا أخذنا بقول: إن الفعل «ولّی» یتعدی لاثنین (لمفعولین) «وجهک» «شطر».

القراءة:

ذکرت قراءات ثلاث لکلمة شطر فی الآیات المذکورة:

فقد قرأ کلّ من:

عبداللَّه بن مسعود، وأبی بن کعب... شطر المسجد... تلقاءَ المسجد الحرام.

کما قرأ کلّ من:

عبداللَّه بن مسعود، وابن أبی عبلة... شطره... تلقاءَه قال داود بن أبی هند: إنّ فی حرف ابن مسعود: فولِّ وجهَک تلقاءَ المسجد الحرام ..(۲)

مع المفسّرین:

نذکر آراء أو أقوال بعض المفسّرین فی خصوص کلمة شطر، وإن کانت آراؤهم غیر بعیدة أو مختلفة عمّا ذکر فی لغتها إلّاقلیلًا.

ففی مجمع البیان: فول وجهک شطر المسجد الحرام أی حوّل نفسک نحو المسجد الحرام؛ لأن وجه الشیء نفسه. وقیل: إنما ذکر الوجه؛ لأنه به یظهر التوجّه. وقال أبو علی الجبائی أراد بالشطر النصف، فأمره اللَّه تعالی بالتوجه إلی نصف المسجد الحرام حتی یکون مقابل الکعبة.

یقول الشیخ الطبرسی عن الرأی الأخیر هذا: وهذا خطأ؛ لأنه خلاف أقوال المفسّرین (۳).

۱- ۱ الجامع لأحکام القرآن، للقرطبی ۲: ۱۵۹، وأحکام القرآن لابن العربی ۱: ۶۴.

۲- ۲ انظر معجم القراءات القرآنیة ۱: ۱۲۴، الآیة ۱۴۴ من سورة البقرة، وانظر الجامع لأحکام القرآن للقرطبی ۲: ۱۵۹، وکنز العرفان ۱: ۸۴ وغیرها.

۳- ۳ معجم البیان للطبرسی ۱: ۴۲۰.

ص: ۸۸

وفی التبیان للطوسی: وقوله شطر المسجد أی نحوه وتلقاه، بلا خلاف بین أهل اللغة، وعلیه المفسّرون کابن عباس، ومجاهد، وأبی العالیة، وقتادة والربیع، وابن زید، وغیرهم..

وقال الجبائی والکلام ما زال للشیخ الطوسی: أراد بالشطر النصف، کأنه قال: وجهک نصف المسجد؛ لأن شطر الشیء: نصفه، فأمره أن یولی وجهه نحو نصف المسجد حتی یکون مقابل الکعبة. وعن هذا الرأی یقول الشیخ الطوسی:

وهذا فاسد؛ لأنه خلاف أقوال المفسّرین، ولأن اللفظ إذا کان مشترکاً بین النصف وبین النحو ینبغی ألا یحمل علی أحدهما إلّابدلیل، وعلی ما قلناه إجماع المفسّرین (۱)...

صحیح أن أهل اللغة قالوا: إنّ الشطر من معانیه النصف، لکنهم لم یجعلوه أحد معانی الشطر فی الآیة ولم یفسروه به، حیث لم نعثر- فیما تیسر لنا- علی من یقول: إنّ المقصود ب شطر المسجد أی نصف المسجد، إلا الجبائی وتبعه القاضی، وأیضاً الشعراوی کما سیأتی.

یقول الراغب فی مفرداته: شطر الشیء: نصفه ووسطه، ثم قال: فولّ وجهک شطر المسجد الحرام أی جهته ونحوه.. (۲) وفی تفسیر الآیة قال الرازی فی تفسیره الکبیر:

فول وجهک شطر المسجد الحرام ففیه مسائل..

المسألة الثانیة: قال أهل اللغة: الشطر: اسم مشترک یقع علی معنیین:

أحدهما: النصف. یقال: شطرت الشیء أی جعلته نصفین، ویقال فی المثل:

احلب حلباً لک شطره. أی نصفه.

والثانی: نحوه وتلقاءه وجهته..

ثم یقول: إن المراد جهة المسجد الحرام وتلقاؤه وجانبه.. وهو قول جمهور المفسّرین من الصحابة والتابعین والمتأخرین واختیار الشافعی فی کتاب الرسالة.

۱- ۱ التبیان للطوسی ۲: ۱۴- ۱۵. فقه القرآن لعبد اللّه الراوندی- القبلة ۲: ۴۸۰- سلسلة الینابیع الفقهیة.

۲- ۲ المفردات للراغب الأصفهانی:ص ۲۶۷.

ص: ۸۹

وهذا هو القول الأول.

أما القول الثانی: وهو قول الجبائی واختیار القاضی: إن المراد من الشطر ههنا: وسط المسجد ومنتصفه؛ لأن الشطر هو النصف، والکعبة واقعة من المسجد فی النصف من جمیع الجوانب، فلما کان الواجب هو التوجه إلی الکعبة، وکانت الکعبة واقعة فی نصف المسجد: حسن منه تعالی أن یقول: فول وجهک شطر المسجد الحرام یعنی النصف من کلّ جهة، وکأنه عبارة عن بقعة الکعبة، قال القاضی: ویدل علی أن المراد ما ذکرنا وجهان:

الأول: أن المصلی خارج المسجد لو وقف بحیث یکون متوجهاً إلی المسجد، ولکن لا یکون متوجهاً إلی منتصف المسجد الذی هو موضع الکعبة، لا تصحصلاتُه.

الثانی: أنا لو فسّرنا الشطر بالجانب لم یبق لذکر الشطر مزید فائدة؛ لأنّک إذا قلتَ: فول وجهک المسجد الحرام، فقد حصلت الفائدة المطلوبة، أما لو فسّرنا الشطر بما ذکرناه، کان لذکره فائدة زائدة، فإنه لو قیل: فول وجهک المسجدَ الحرام، لا یفهم منه وجوب التوجه إلی منتصفه، الذی هو موضع الکعبة، فلما قیل:

فول وجهک شطر المسجد الحرام حصلت هذه الفائدة الزائدة، فکان حمل هذا اللفظ علی هذا المحمل أولی.

فإن قیل: لو حملنا الشطر علی الجانب یبقی لذکر الشطر فائدة زائدة، وهی أنه لو قال: فول وجهک المسجد الحرام. لزم تکلیف ما لا یطاق؛ لأن مَن کان فی أقصی المشرق أو المغرب لا یمکنه أنه یولی وجهه المسجد، أما إذا قال: فولّ وجهک شطر المسجد الحرام أی جانب المسجد، دخل فیه الحاضرون والغائبون.

قلنا: هذه الفائدة مستفادة من قوله: وحیثما کنتم فولوا وجوهکم شطره فلا یبقی لقوله: شطر المسجد الحرام زیادة فائدة.

وهذا تقریر هذا الوجه. وفیه إشکال؛ لأنه یصیر التقدیر: فول وجهک نصف

ص: ۹۰

المسجد، وهذا بعيد؛ لأن هذا التكليف لا تعلق له بالنصف، وفرق بين النصف وبين الموضع الذى عليه يقبل التنصيف، والكلام إنما يستقيم لو حمل على الثانى، إلّاأن اللفظ لا يدل عليه انتهى ما ذكره الرازى (۱).

بينما ذهب الشعراوى فى تفسيره إلى كلاـ المعنيين للشطر (الجهة، النصف)، حيث يقول فى تفسير ما ذهب إليه: لأنه حين يوجد الإنسان فى مكان يصبح مركزاً لدائرة ينتهى بشىء اسمه الأفق وهو مدى البصر... وما يخيل اليك عنده أن السماء انطبقت على الأرض. ثم يواصل كلامه فيقول: إن كلّ إنسان منا له دائرة على حسب نظره، فإذا ارتفع الإنسان تتسع الدائرة... وإذا كان بصره ضعيفاً يكون أفقه أقل، ويكون هو فى وسط دائرة نصفها أمامه ونصفها خلفه. إذن الذى يقول:

الشطر هو النصفصحيح، والذى يقول: إن الشطر هو الجهةصحيح (۲).

أما السيد السبزوارى فيقول فى تفسيره لقوله تعالى: فول وجهك شطر المسجد الحرام: الشطر يطلق على القسم المنفصل من الشىء، أى النصف والجزء، ومنه الحديث: «السواك شطر الوضوء»، وقوله عليه السلام: «مَن أعان على مؤمن ولو بشطر كلمة، جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه آيس من رحمة اللَّه».

والمراد به هنا النحو والجهة، ولم تستعمل هذه الكلمة فى القرآن الكريم إلّافى تشريع القبلة إلى المسجد الحرام. وإنما ذكر المسجد الحرام؛ لتوسعة الأمر، وأن الاستقبال إليه طريق إلى استقبال الكعبة المقدّسة، وإلّا فإن القبلة هى الكعبة؛ لنصوص متواترة بين الفريقين (۳)..

وقالصاحب كنز العرفان: والشطر هو النحو والجهة قاله الجوهرى وأنشد:

أقول لأمِّ زنباع أقيمى وجوه العيس شطر بنى تميم (۴) فقه الآية:

بعد أن عرفنا أن المراد من كلمة (الشطر) لغةً وتفسيراً هو الجهة أو الناحية

۱- ۱ التفسير الكبير للرازى ۴: ۱۲۶- ۱۲۷، والتحرير والتقريب لابن عاشور ۲: ۲۸.

۲- ۲ تفسير الشعراوى ۱: ۶۳۱.

۳- ۳ مواهب الرحمن ۲: ۱۱۳.

۴- ۴ كنز العرفان ۱: ۸۴.

ص: ۹۱

على أصحّ الأقوال أو القصد أو النصف على قولٍ لا يخلو من ضعف فقد يمكننا أن نقول: إن هذه الكلمة مع ما أضيف إليها شطر المسجد الحرام شطره تشكل لنا القبلة بدليل الآية نفسها:.. فلنولينك قبلةً ترضاها فولِّ وجهك شطر المسجد الحرام.. فالقبلة التى يرتضيها رسول اللَّهصلى الله عليه و آله أن يولى وجهه شطر المسجد الحرام، وبالتالى فالقبلة تساوى شطر المسجد، وشطر المسجد يساوى القبلة، التى وإن اختلف المراد منها على أقوال إلّاأن الصحيح وعليه العمل أن القبلة هى الكعبة حقيقة، وبكلام أكثر دقة هى المكان الواقع فيه البيت (الكعبة) الممتد من تخوم الأرض الى عنان السماء، ولكن نظراً للإحراج الذى يتركه التكليف باستقبال الكعبة عيناً للبعيد عنها وهو- قطعاً حرج عظيم وعسر أعظم، ورفعاً لهذا وذاك كان التوجه نحو الجهة، التى تقع فيه الكعبة أمراً مطلوباً ولا سيما أن التكليف باتخاذ الكعبة قبلة يوم كان المسلمون جميعهم فى المدينة وهى البعيدة عن مكة، ويوم كان التوجه أو الاستقبال نحو البيت المقدس، وحكم البعيد جهة الكعبة لا عينها، وهو ما عليه كلّ المفسّرين، ولا يقدح فى هذا ما تفرد به أبو على الجبائىوتبعه القاضى، ولم أجد فيما تيسر لى من تفاسير من اعتنى بما ذهب إليه الاثنان، إلّاالشعراوى وقد أوضحنا رأيه، علماً بأنه تكليف يتسم بالعسر وهويتنافى مع الشريعة، التى وصفت بأنها السهلة السمحاء، وأنى لنا من إصابة المسجد نفسه فضلًا عن مركز الكعبة أو نصفها..؟!

ولزيادة الفائدة ننقل هنا ما قاله الراوندى فى فقه القرآن- باب الزيادات- مسألة:

«شطر المسجد الحرام» نحوه، وقرأ أبى: تلقاء المسجد الحرام. «وشطر» نصب على الظرف أى اجعل تولية الوجه تلقاء المسجد الحرام أى فى جهته وسمته؛ لأن استقبال عين الكعبة فيه حرج عظيم على البعيد، وذكر المسجد الحرام دليل على أن الواجب مراعاة الجهة دون العين، فعلى هذا، الكعبة قبلة من كان فى

ص: ۹۲

المسجد الحرام، والمسجد قبلهٔ من کان فیالحرم، والحرم قبلهٔ من نأی من أی جانب کان، وهو شطر المسجد وتلقاؤه، وقراءهٔ أبی «ولکلٍّ قبلهً» إشارهٔ الی ما ذکرناه.

وقوله تعالی: «هو مولّیها» أی هو مولیها وجهته، فحذف أحد المفعولین، وقیل: هو اللّه أی اللّه مولّیها إیاه علی أن القراءهٔ العامهٔ یجوز أن یراد بها ذلک أیضاً، ویکون المعنی ولکلٍّ منکم یا أمهٔ محمّد وجههٔ أی جههٔ تصلی الیها جنوبیهٔ أو شمالیهٔ أوشرقیهٔ أو غربیهٔ، أینما تکونوا یجعلصلاتکم کأنها الی جههٔ واحدهٔ، وکأنکم تصلون حاضری المسجد الحرام (۱).

وبعد هذا فقد أستطیع أن أقول: إن الشطر- اصطلاحاً- الذی یعیّن القبلهٔ کما قلنا قد یُراد به أو قد یصدق إطلاقه- تبعاً لاختلاف أماکن المسقبلین بعداً أو قرباً عن الکعبهٔ- علی:

(۱) جههٔ المسجد أو ناحیته، کما هو لغهً وتفسیراً.

(۲) المسجد الحرام نفسه کما هو الوارد فی الآیاتصریحاً.

(۳) عین الکعبهٔ نفسها، باعتبار أن الخطاب الوارد فی آیات القبلهٔ أطلق علی الکلِّ المسجد الحرام وأرید به أهم وأقدس أجزائه وهو الکعبهٔ المبارکهٔ.

وهذا الأخیر فیه تفصیل:

* ما إذا کان المصلی داخل المسجد وقریباً من الکعبهٔ، فیجب علیه التوجه نحوها، فهی قبلهٔ لمن شاهدها أو کان فی حکم المشاهد لها کالأعمی..

* علیه بعین الکعبهٔ سواء أکان قریباً أم بعیداً، ولکنّ الفرق بین القریب والبعید- کما عند بعضهم- هو أن القریب یجب علیه أن یحرز- یقیناً- التوجه نحو عینها. وأما البعید فإن أمکنه العلم باستقبال عینها لا جهتها تعیّن علیه ذلک، وإلّا یکفیه الظنُّ، وشرطیهٔ الظن هذه لم یقبلها المحقق الکرکی حیث یقول: «إن البعید لا یشترط لصحهٔصلاته ظنّه محاذاهٔ الکعبهٔ؛ لأن ذلک لا یتفق غالباً، فإن البعد الکثیر

۱- ۱ سلسلهٔ الینابیع الفقهیهٔ- فقه القرآن للراوندی- ۴:ص ۵۳۱.

ص: ۹۳

یخلّ بظن محاذاة الجرم اللطیف، فیمتنع اشتراطه فی الصلاة» (۱).

وبعد أن اتفقت کلمتهم علی أن الکعبة- عیناً- قبلة من کان داخل المسجد الحرام، اختلفوا فی کون الحرم قبلة مَن بَعُدَ أو نأی علی قولین کما فی التقسیم التالی:

الأول:

عین الکعبة قبلة لمن کان داخل المسجد الحرام وهو محلّ اتفاق بینهم.

المسجد الحرام قبلة لمن کان خارج المسجد الحرام أی فی الحرم.

الحرم قبلة لمن کان بعیداً عن الحرم، ولمن نأی عنه.

وهذا التقسیم ذهب إلیه جمع من المتقدمین منهم الشیخ المفید فی المقنعة- باب القبلة، والشیخ الطوسی فی کتبه، وابن حمزة فی الوسیلة، وسلار فی المراسم، وابن البراج فی مهذبه، وآخرون... وقد استدلوا علی مختارهم هذا بروایات:

فعن الإمام الصادق علیه السلام: «إنّ اللّه تبارک وتعالی جعل الکعبة قبلةً لأهل المسجد، وجعل المسجد قبلةً لأهل الحرم، وجعل الحرم قبلةً لأهل الدنیا» (۲).

وفی روایة: البیت قبلة لأهل المسجد، والمسجد قبلة لأهل الحرم، والحرم قبلة للناس جمیعاً (۳).

وفی أُخری.. ما بین المشرق والمغرب قبلة کلّه.

وأیضاً النبوی المروی عن الاحتجاج للطبرسی بإسناده الی العسکری علیه السلام فی احتجاج النبیّصلی الله علیه و آله علی المشرکین، قال فیه: «فلما أمرنا أن نعبده بالتوجه الی الکعبة أطعنا، ثم أمرنا بعبادته بالتوجه نحوها فی سائر البلدان، التی نکون بها فأطعناه، فلم نخرج فی شیء من ذلک عن أمره» (۴).

وإن کان هذا النبویصریحاً فی المراد أعلاه، إلّاأنّ ظاهره یصلح مؤیداً أیضاً لما ذهب إلیه جمع آخر من الفقهاء من أن الحرم لم یذکر قبلةً لمن بَعُِدَ عنه، إلّاأن العاملی بعد ذکره لهذه الأحادیث یقول:.. وقد ذکر بعض المحققین أنه لا نزاع هنا ولا اختلاف بین أحادیث هذا (الباب ۳ والذی قبله، الباب ۲ من أبواب القبلة) (۵)

۱- ۱ جامع المقاصد ۲: ۴۸.

۲- ۲ الوسائل کتاب الصلاة، الباب ۳ من أبواب القبلة الحدیث ۳.

۳- ۳ الوسائل: کتاب الصلاة، أبواب القبلة، الحدیث ۲.

۴- ۴ الوسائل: کتاب الصلاة، الباب ۲ من أبواب القبلة، الحدیث ۱۴.

۵- ۵ انظر هذه الأبواب فی الوسائل.

ص: ٩٤

لأن جهة المحاذاة مع البعد متسعة، وهذه الأحاديث وما دلّ على أن ما بين المشرق والمغرب قبلة، وما دلّ على استقبال المسجد الحرام من الآيـة والروايـة وغير ذلـك كلّه إشارة الى اتساع جهـة المحاذاة، وتسـهيل الأمر ودفع الوسواس، ويؤيـده الاكتفاء شـرعاً لأهل إقليم عظيم بعلامة واحدة (١)..

هـذا فى الروايات، وأما فى أقوال الفقهاء الآخرين فقـد قالصاحب الجواهر:.. بأنّ القبلـة «هى الكعبـة لمن كان فى المسـجد، والمسـجد لمـن كـان فى الحرم، والحرم لمن هـو خـارج عنه» وإن قـال المصـنف (صـاحب الشـرائع) إنه كـذلك «على الأـظهر» وفاقـاً للمبسـوط والخلاف والمصـباح والجمل والعقود والمحكى عن الإصـباح والمهـذب والمراسم، بل فى المسالك نسـبته الى كثير، بل فى الذكرى والروضة الى الأكثر، بل فى المحكى عن مجمع البيان نسـبته الى أصحابنا، بل فى الخلاف الإجماع عليه، وربما حكى عن المفيد وأبى المكارم أيضاً، لكن ما وصل إلينا من مقنعـة الأول: «القبلة هى الكعبة ثم المسـجد قبلة من نأى عنها؛ لأن التوجه اليه توجه إليها. ثم قال بعـد أسـطر: ومَن كـان نائيـاً عنها خارجاً عن المسـجد الحرام توجّه إليها بالتوجه إليه». ومن غنيـة الثانى: «القبلـة هى الكعبـة، فمن كان مشاهداً لها وجب عليه التوجّه إليها، ومن شاهد المسـجد الحرام ولم يشاهد الكعبة وجب عليه التوجّه إليه، ومن لم يشاهده توجه نحوه بلا خلاف». يقول الشيخ فى الجواهر عندما يصل الى هذه النقطة: (وهذا) لا يطابق الحكاية، إذ لم يذكر فى شىء منهما الحرم، بل هما الى القول: بأن الكعبة القبلة عيناً أو جهة أقرب من ذلك قطعاً..

أقول: يبدو أنصاحب الجواهر لم يصل إليه ما كتبه المفيد فى باب القبلة كاملًا، حيث يقول فيه بعد ذلك.. وجعل اللَّه تعالى لمن غابت عنه أو غاب عنها التوجّه الى أركانها بحسب اختلافهم فى الجهات من الأماكن والاصـقاع: فجعل الركن الغربى لأهل المغرب، والركن العراقى لأهل العراق وأهل المشرق، والركن اليمانى لأهل اليمن، والركن الشامى لأهل الشام، وتوجه الجميع إنما هو من هذه

١- ١ الوسائل ۴: ٣٠۴- ٣٠۵.

ص: ۹۵

البلاد الی الحرم وهو عن یمین المتوجه من العراق الی الکعبة أربعة أمیال وعن یساره ثمانیة أمیال (۱)..

فما حکی عن المفید من أن.. الحرم قبلة من نأی.. فحاله حال سـلار فی مراسمه الذی بعد أن یذکر أن الکعبة لأهل المسجد والمسجد قبلة لمن نأی عنه..

والناس یتوجهون الی الأرکان.. یقول: وتوجه الجمیع إنما هو فی هذه البلاد الی الحرم..

وما ذکره عن الغنیة فهوصحیح إذ لم یذکر أنّ الحرم قبلة من نأی عنه.

وقـد قال الشـیخ فی المبسوط: المکلّفون علی ثلاثـة أقسام، منهم من یلزمه التوجه الی نفس الکعبـة، وهو کلّ من کان مشاهـداً لها بأن یکون فی المسـجد الحرام، أو فی حکم المشاهد بأن یکون ضریراً، أو یکون بینه وبین الکعبة حائل، أو یکون خارج المسجد بحیث لا تخفی علیه جهـة الکعبـة... وقال أیضاً: «القبلـة علی ثلاثة أقسام، فالکعبة قبلة من کان مشاهداً لها أو فی حکم المشاهد، والمسـجد قبلة من لم یشاهد الکعبة، وشاهده أو غلب فی ظنه جهته ممن کان فی الحرم، والحرم قبلة من نأی عنه وعن الحرم (۲)..

وفی التذکرة: «الکعبة القبلة مع المشاهدة إجماعاً» وعن النهایة: «إجماعنا علی ذلک». وفی کنز العرفان: «الإجماع علیه أیضاً».

هذا هو القول الأول: إن الکعبة قبلة لمن کان فی المسـجد الحرام، والمسجد قبلة لمن کان فی الحرم، والحرم قبلة لأهل الدنیا ممّن نأی عنه.

الثانی:

وهو اختیار کلّ من ابن الجنید وأبی الصلاح وابن إدریس والسید المرتضی الذی یقول فی ذلک:

القبلـة هی الکعبـة ویجب التوجّه إلیها بعینها إذا أمکنه ذلک بالحضور والقرب، وإن کان بعیداً تحرّی جهتها وصـلّی الی ما یغلب علی ظنّه أنه جهة الکعبة، وهو

۱- ۱ سلسلة الینابیع الفقهیة ۳/ ۹۶- ۹۷، المقنعة فی الاصول والفروع للشیخ المفید.

۲- ۲ المبسوط فی فقه الإمامیة للشیخ الطوسی ۱: ۷۷- ۷۸

ص: ۹۶

اختيار ابن الجنيد وأبى الصلاح، وابن إدريس، وهو الأقوى عندى (۱)..

ويقول ابن إدريس فى السرائر: يجب على المصلّى أن يتوجه الى الكعبة، وتكونصلاته إليها إذا أمكنه ذلك، فإن تعذر فإلى جهتها، فإن لم يتمكن من الأمرين تحرّى جهته وصلّى الى ما يغلب على ظنّه بعد الاجتهاد (أنه جهة الكعبة).

ثم يقول: وهذا مذهب السيد وغيره من أصحابنا وهو الذى يقوى فى نفسى وبه أفتى (۲).

وعبارات هذا الفريق خالية من ذكر الحرم، وأنه قبلة من نأى عنه كما هوصريح أقوال الفريق الأول.

من هذا كلّه يظهر رواية وفتوى ألا خلاف بينهم فى كون الكعبة عيناً قبلة من يشاهدها، وهذا لا يتسنى إلّالمن كان قريباً منها بحيث يتمكن من رؤيتها ولمن كان بحكمه.

*** هذا وقدصارت بعض الروايات التى تبيّن: أنّ الكعبة قبلة لمن هو فى المسجد، والمسجد قبلة لمن هو فى الحرم، والحرم قبلة لمن كان خارج الحرم،صارت هذه الروايات والأقوال التى تبعتها سبباً- عند بعضٍ- للقول: إن الكعبة ليست قبلة الناس جميعاً، وإنما هى فقط لمن كان منهم داخل المسجد لمشاهد الكعبة ومن كان بحكمه كالضرير..

ولا شك فى أن هذا القول واضح البطلان؛ لأنه مخالف لضرورة الدين الإسلامى، ولجميع الأدلة والروايات التى منها:

* عن معاوية بن عمار، عن أبى عبد اللّه عليه السلام قال: قلتُ له: متيصرف رسول اللّه الى الكعبة؟ قال: بعد رجوعه من بدر.

*... وكان يصلّى فى المدينة الى بيت المقدس سبعة عشر شهراً، ثم أعيد الى الكعبة.

۱- ۱ انظر المختلف ۲: ۶۰- ۶۱.

۲- ۲ السرائر لابن إدريس- باب القبلة..

ص: ۹۷

*... فقلت: أكان يجعل الكعبة خلف ظهره؟ فقال: أما إذا كان بمكّة فلا، وأما إذا هاجر الى المدينة فنعم، حتى حوّل الى الكعبة.

*... عن أبی عبداللَّه علیه السلام: إنّ اللَّه بعث جبرئیل الی آدم، فنزل غمام من السماء فأظل مکان البیت، فقال جبرئیل: یا آدم، خطّ برجلک حیث أظلّ الغمام، فإنه قبلة لک ولآخر عقبک من ولدک.

*... قال النبیُّصلی الله علیه و آله: لن یعمل ابن آدم عملًا أعظم عند اللَّه عزّوجلّ من رجل قتل نبیّاً، أو هدم الکعبة التی جعلها اللَّه عزّوجلّ قبلةً لعباده...

* وعند نزول آیة تحویل القبلة... ثم أخذ (جبریل) بید النبیّصلی الله علیه و آله فحوّل وجهه الی الکعبة...

*... فی احتجاج النبیّصلی الله علیه و آله علی المشرکین: قال:... فلما أمرنا أن نعبده بالتوجه الی الکعبة أطعناه،... (۱) فالکعبة هی القبلة کما هو واضح من هذه الروایات...

ولمخالفته لاتفاق فقهاء المسلمین علی أن الکعبة قبلة جمیع المسلمین إما عیناً لمن کان قریباً منها، وإما جهةً لمن کان بعیداً عنها. ولمخالفة ذلک للأمور البدیهیة عند المتشرعة والتی یلهج بها لسان کلّ إنسان مسلمصغیراً کان أم کبیراً، عالماً کان أم جاهلًا، ولما تعارف علیه الناس فی وصایاهم وفی دفن موتاهم من أن القبلة هی الکعبة ولیس غیرها، ولا أظنّ إنساناً ما یقول: إنّ الجهة أو المسجد الحرام قبلتی أو إن الحرم قبلتی علی نحو الحقیقة، ولم نسمع بهذا أبداً. بل قد یُسخر ممن یقول مثل ذلک إلّاعلی نحو التجوز بوجود الکعبة فیها.

ومع هذا الاتفاق علی أن الکعبة هی القبلة، وقع الخلاف بینهم فی المقصود بعین الکعبة، وظهر فی ذلک قولان:

الأول: أن القبلة هی بناء الکعبة نفسها بشکلها وجدرانها وأرکانها الأربعة، وهی بالتالی القبلة التی یجب علینا التوجه نحوها، ولو أخذنا بهذا القول فلازمه:

۱- ۱ انظر فی هذا کلّه الوسائل ۴/ ۲۹۸- ۲۹۹ أبواب القبلة.

ص: ۹۸

* عدمصحة التوجه نحو الكعبة، لو فرض انهدام بنائها، وحتى لو قلنا: إنّ البناء إذا انهدم فإنه يعاد ببناء جديد، لأنّ هذا البناء الجديد- قطعاً- غير البناء القديم الذى أمرنا بالتوجه نحوه.

* بطلانصلاة كلّ من أهل البلاد المرتفعة عن المنطقة التى فيها بناء الكعبة؛ لأنّه أى بناء الكعبة أخفض منها، اللهم إلّاأن يؤدى المكلفصلاته منكوساً وهو أمر غير ممكن. وأهل البلاد المنخفضة عن منطقة بناء الكعبة؛ لعدم قدرة المكلف أن يؤديصلاته إلّاأن يصلى مستلقياً على ظهره وهذا كالأول غير متيسر..

وهذه الأمور- وقد يكون هناك غيرها- جعلت الحاجة ماسة الى الأخذ بالقول:

الثانى: أن القبلة هى الكعبة ولا شك فى ذلك ولا ريب، ولكن ليس خصوص البناء، الذى يشكّل الكعبة، بل المراد من الكعبة هنا الأوسع والأشمل من البنية نفسها، وهو ما يشكّل الامتداد ما بين السماء والأرض «من تخوم الأرض الى عنان السماء» فالفضاء المذكور هو القبلة، ولئن عبر عنه بالكعبة فالمراد مكانها بامتداده المذكور عمقاً وارتفاعاً.

أما عرضها فهو بين ۲۰- ۲۵ ذراعاً من جهاتها الأربع.

وقد يرد هنا هذا الإشكال: بما أن طول كلّ جدار بين ۲۰- ۲۵ ذراعاً- إذا لم نأخذ بقول من يقول: إنّ حجر إسماعيل كلّه ۵/ ۱۶ ذراع أو بعضه من البيت ۶- ۷ أذرع-، فيلزم من هذا بطلانصلاة بعض المصلين الذين يزيد عددهم على المقدار المذكور..، ومنشأ هذا الإشكال هو الاعتقاد بما يسمى بالمواجهة الدقّية: وهنا لابدّ لنا من الحديث عن موضوعين مهمّين بهما سيندفع هذا الإشكال أو التساؤل:

الأول: الاستقبال العرفى:

إنّ المراد بالقبلة هى الكعبة وإنما ذكرت الآيات المسجد الحرام من باب ذكر العام وإرادة الخاص، ذَكَر المسجدَ الحرام وأراد الكعبة، التى هى أشرف أجزائه،

ص: ۹۹

ولولاها لما کانت للمسجد هذه الأهمیة والعظمة والقدسیة، فوجوده من وجودها وکرامته من کرامتها، وقدسیته من قدسیتها، وهی بالتالی المرادة من الآیات، وهی القبلة التی أمرنا اللّه تعالی بالتوجه نحوها، وهی قبلة المسلمین قربوا منها أم بعدوا عنها، وسمّی التوجه نحوها استقبالًا.

ولیس اتخاذها قبلة یقصد منه التوجه إلیها توجهاً دقیّاً، بحیث لو خرج من موقف المصلی خطٌّ مستقیم لانتهی- قطعاً- بالکعبة.

نعم قد یکون هذا- واقعاً ومتیسّراً- لمن کان قریباً من الکعبة؛ ولکنه لیس ممکناً بالنسبة لمن کان بعیداً عنها، الذی تصدق علیه المواجهة العرفیة دون المواجهة الدقیّة، فما یراه العرف ویدرکه بالنسبة لاستقبال المصلی للکعبة ومواجهته لها یکون کافیاً، ولا تشترط تلک الدقة فی الاستقبال. یقول السید السبزواری: (الاستقبال والتوجه الی الشیء من المبینات العرفیة یکفی فیهما الصدق العرفی، إلّاإذا دلّ دلیل شرعی علی الخلاف، وحیث لم یرد دلیل شرعی علی تحدید خاص فی جمیع ما یعتبر فیه الاستقبال، مع أنّ بیان قیود المکلّف به وحدوده علی عهدة الشارع، فیتعیّن أن یکون المرجع هو الصدق العرفی فقط، کما فی سائر متعلقات التکالیف التی لم یرد فی تحدیدها حدّ شرعی، ثم یستدل علی قوله بتحول النساء مکان الرجال، والرجال مکان النساء، وجعلوا الرکعتین الباقیتین من الظهر الی الکعبة، فبهذا أدوا هذه الصلاة الی القبلتین..

فیقول: فإن توجه المصلین فی أثناءصلاتهم الی القبلة بفطرتهم، وتقریر النبیصلی الله علیه و آله لهم یکشف عن أنه من العرفیات، ویشهد له أیضاً أنه لم یعهد من أحد من المعصومین علیهم السلام ولا من أصحابهم ما هو خارج عن المتعارف بالنسبة الی الاستقبال.

ویشهد له أیضاً ذکر المسجد الحرام فی الآیات الکریمة، ولیس ذلک إلّا لأجل التوسعة لا الدقة (۱).

ثم إن المواجهة العرفیة هذه تتسع بحسب کیفیة المواجهة، فإذا قدر لخمسین

۱- ۱ مهذب الأحکام ۵: ۱۸۰- ۱۸۱.

ص: ۱۰۰

نفراً مواجهـة الكعبـة مثلًا، فبالابتعاد عنها يتمكن مئـة نفر من مواجهتها، وهكـذا كلما ابتعدنا عن الكعبة، كلما ازدادت مساحة مواجهتها واتسعت، ولكنه ليس اتساعاً دقيّاً رياضياً بل اتساعاً عرفيّاً تتسع فيها مساحة المواجهة أكثر من اتساعها في المواجهة الدقيّة الهندسية.

ومن هنا جاءت العبارتان المشـهورتان: (جهة المحاذاة مع البعد متسـعة) (الجرم الصـغير كلما ازداد بُعداً ازداد محاذاةً) وهذا كلّه لا يرد في المحاذاة الحقيقية.

إضافـة الى هـذا فـإن المسائـل الهندسـية ليست لها مدخليـة في القضايا الشـرعية، التي منها مسألـة القبلـة بالـذات التي تعود للعرف في تحديدها والاستفادة منه فيصدقها، وليس للشـرع مدخلية فيها. يقولصاحب الجواهر: «وكيفية اسـتقبالها أمر عرفي لا مدخل للشـرع فيه» (۱) ويقول السـيد السبزواري: (فالاستقبال ليس من الأمور التعبدية ولا من الأمور الدقية، ولا من الموضوعات المستنبطة، ولا من الأمور المسامحية العرفية، بل هو عرفي دقيّ؛ لأنه المنساق من الأدلة..).

ويواصل كلامه: (والمراد به (الاستقبال) عرفاً بحيث يحكم العرف المتعارف أنه واقف نحو الكعبة، فيتحقق مفهوم الاستقبال حينئذ من دون تجوّز، سواء اتصل الخط الفرضـي الخارج من جهة الى عين الكعبة أو لا، بل لو أمكن ذلك بغير عذر لا يجب؛ لصدق الاستقبال العرفي بدونه أيضاً، وهو يكفي بحسب الأدلة الشاملة للقريب والبعيد، وإرادة غير ذلك من الأدلة المنزلة على العرفيات تكلّف زائد بلا دليل عليه فيرجع فيه الى أصالة البراءة العقلية والنقلية) (۲).

الثاني: المقصود من الجهة:

يقول الشـهيد في الـذكرى: المراد بالجهـة: السـمت الـذي يظن كون الكعبة فيه لا مطلق الجهة. ومراده بالسـمت هو ما يسامته المصـلي ويحاذيه عند توجهه اليه.

بينما يقول المحقق الثاني:.. والـذي ما زال يختلـج بخاطري: أن جهـة الكعبة هي المقدار الذي شأن البعيد أن يجوز على كلّ بعض منه أن يكون هو الكعبة، بحيث

۱- ۱ الجواهر.

۲- ۲ مهذب الأحكام ۵/ ۱۸۲.

ص: ۱۰۱

يقطع بعدم خروجها عن مجموعه، وهذا يختلف سعةً وضيقاً باختلاف البعد (۱).

وفى المقصود من الجهة وفى التفريق بين الاستقبال الهندسى الدقىّ والاستقبال العرفى، حيث إنّ الأول يتأثر بالبعد والقرب دون الثانى الذى لا يتأثر بذلك يقول السيد الشهيد الصدر رحمه الله: نفترض أن عدداً من الناس سبعة مثلًا وقفوا على خط مستقيم فتشكلصفٌ طويل، فإذا وقفت أمامهم قريباً منهم ووجهك نحوهم، فهل تكون مستقبلًا ومقابلًا للصف بالكامل، أو للفرد الذى وقفت أمامه مباشرةً؟ من الواضح أن الثانى هو الصحيح. أما من وجهة النظر الهندسية فلأنك لو مدّدت خطّين مستقيمين متقاطعين أحدهما بين يمينك وشمالك والثانى يقطع ذلك الخط على نحو يشكل زاويتين قائمتين- فيكون الخطّان متقاطعين متعامدين- لو وضعت ذلك وامتد الخط الثانى من أمامك لالتقى بواحد معين فى ذلك الصف فقط، وهذا هو المقياس فى الاستقبال الهندسى.

وأما من وجهة النظر العرفية فواضح أيضاً لدى كلّ إنسان اعتيادى بحكم نظرته الساذجة وفهمه الفطرى أنك إذا وقفت أمام الصف فى الوسط فأنت تستقبل الشخص الرابع من السبعة فقط دون الأول والأخير.

ولنفرض أن الصف كان فى أرض منبسطة كالصحراء، وأنك ابتعدت عنه متقهقراً الى الخلف آلاف الأمتار ثم أردت أن تستقبل بوجهك أولئك المصطفين، ففى هذه الحالة اذا استعملنا المقياس الهندسى نرى أنك أيضاً لا تستقبل إلّاواحداً من السبعة المصطفين فقط، لو رسمنا خطاً مستقيماً من موضعك على ما تقدم لالتقى فى امتداده بواحد منهم فقط، وهذا يعنى أن الاستقبال الهندسى لا يختلف فيه القرب والبعد.

وأما اذا لاحظنا الموقف من الوجهة العرفية وبالنظرة الفطرية للإنسان الاعتيادى نجد أنك فى هذه الحالة تستقبل السبعة جميعاً بوجهك؛ لأن الاستقبال كما يفهمه الإنسان الاعتيادى هو كون الشيء يبدو حيال وجهك وفى مقابله، ومن

۱- ۱ انظر جامع المقاصد ۲/ ۴۹.

ص: ۱۰۲

الواضح أن الصف بالکامل یبدو لک وأنت تستقبله من بعد- حیال وجهک- نتیجهٔ تضائِله بسبب البصر، فإن تضائلَه یجعله یبدو أصغر حجماً، فکأنه لا یزید عن مقدار وجه من یستقبله، وهذا یعنی أن الاستقبال العرفی یتأثر بالقرب والبعد، فما تستقبله عن بعد أوسع کثیراً مما تستقبله عن قرب، وکلما بعدت الجهۀ التی ترید أن تستقبلها فأنت تستقبل منها مساحۀ أوسع.

وعلی هـذا الأسـاس اذا وقفت عن قرب أمـام الشـخص الرابع فی الصف المکون من سـبعۀ فـأنت مسـتقبل له خاصـۀ، فـإذا رجعت الی الخلف مسافۀ کبیرۀ فی خط مسـتقیم وجدت نفسک مسـتقبلًا للسبعۀ جمیعاً، أی أن منطقۀ الاستقبال التی کانت مقصورۀ علی الشخص الرابع اتسـعت من الجانبین فشـملت الصف کلّه. ویمکننا أن نؤکـد بهذا الصدد أن اتساع منطقۀ الاسـتقبال من کلّ من الجانبین لا تقل عن خمس المسافۀ بینک وبین المنطقۀ التی ترید أن تسـتقبلها، فإذا کنتَ تبعد عن مکۀ ألف کیلومتر- وکان الصف المکون من سبعۀ وسط مکۀ مثلًا فأنت تسـتقبل علی بعد ألف کیلومتر الصف المکون سـبعۀ مضافاً إلیه مساحۀ تمتد من کلّ من الجانبین مائتی کیلومتر، فیکون مجموع منطقۀ الاسـتقبال العرفی علی هذا البعد أربعمائۀ کیلومتر، فإذا کانت الکعبۀ الشریفۀ واقعۀ ضمن هذه المنطقۀ والمساحۀ اعتبر ذلک اسـتقبالًا عرفیاً لها، ولو لم یمکن ایصال خط مسـتقیم من الناحیـۀ الهندسـیۀ بینک وبینها علی النحو المتقدم، وهذه المساحۀ هی التی نطلق علیها اسم الجهۀ حین نقول: یجب علی البعید فیصلاته أن یستقبل جهۀ الکعبۀ.

قال السـید السند فی المدارک: ثم إن المستفاد من الأدلۀ الشرعیۀ سهولۀ الخطب فی أمر القبلۀ والاکتفاء فی التوجه الی ما یصدق علیه عرفاً أنه جهۀ المسجد وناحیته..

کمـا أن البلاغی فی آلاء الرحمن یقول:.. ولا مانع من أن تسـمی الکعبـۀ مسـجداً باعتبار أنها یسـجد إلیها. أو یقال: إن الآیـۀ نزلت فی السنۀ الثانیۀ من

ص: ۱۰۳

الهجرة، فكان الخطاب بجعل الكعبة قبلة عامة ومتوجهاً لرسول اللَّهصلی الله علیه و آله ومَن معه من المسلمين وأهل المدينة وضواحيها فجرى التعبير بالمسجد الحرام، باعتبار سعة استقبالهم للكعبة باستقبال المواجهة وللاحترام والتعظيم مما يتحقق به ذلك عند الناس كما هو الظاهر من الآية، وأن استقبالهم للمسجد بهذا النحو يلزمه استقبال الكعبة بهذا النحو أيضاً وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره أى نحوه بالنحو المتقدم دون الاستقبال الهندسى؛ لأن تكليف النائين به حتى مثل أهل المدينة بل ما كان عن مكة بمرحلة مثلًا يستلزم التكليف بما لا يطاق، ولا شك فى أنه كلما بعد المستقبل اتسعت وجهة استقباله للكعبة بالمواجهة الاحترامية التعظيمية (۱).

فإذا عرفنا بعد هذا كلّه أن المقصود من المواجهة هى المواجهة العرفية لا المواجهة الدقّية.. فيمكننا حينئذٍ حلّ الروايات التى تقول كما عن الإمام أبى عبد اللَّه الصادق عليه السلام:

إن اللَّه تعالى جعل الكعبة قبلة لأهل المسجد، وجعل المسجد قبلة لأهل الحرم، وجعل الحرم قبلة لأهل الدنيا.

البيت قبلة المسجد، والمسجد قبلة مكة، ومكة قبلة الحرم، والحرم قبلة الدنيا.

وأنه بناءً على هذا التفسير للاستقبال يكون مضمون هذه الروايات مضموناًصحيحاً، فإنه من كان داخل المسجد ولقربه من الكعبة فلا يتمكن من مواجهتها عرفاً أيضاً إلّابمواجهة عينها، لكن مساحة المواجهة تكون ضيقة بخلاف من كان خارج المسجد فإن بمواجهته للمسجد الحرام قد واجه الكعبة وهكذا إذا ما ابتعد عن المسجد وصار خارجه أى فى الحرم يصدق بمواجهته للمسجد أنه واجه الكعبة، ومن نأى عن الحرم يصدق بمواجهته للحرم أنه قد واجه المسجد الحرام وبالتالى الكعبة.

۱- ۱ البلاغى- آلاء الرحمنص ۱۳۶.

ص: ۱۰۴

وأن من کان فی کوکب آخر فاذا ما أراد التوجه الی الکعبـة فیمکنه ذلک بتوجهه الی الکرة الأرضـیة، ویصـدق علیه حینئذٍ- ونحن ما زلنا مع العرف- أنه مواجه للکعبة ومستقبل لها ویمکنه أداءصلاته باستقبالصحیح.

إذن المشـکلة تحـدث عنـدنا ویطول فیهـا الکلام والأخـذ والرد إذا ما أدخلنا فی حساباتنا المسألـة الدقیّـة الهندسـیة وجعلها محوراً فی تعاملنا مع هـذه المسائل، التی هی مسائل عرفیـة بعیـدة حتی عن القضایا الشـرعیة فضـلًا عن المسائل الهندسـیة ودقتها. وإن إدخال مثل هذه الأمور یعنی التعسیر علی الناس وبالتالی نبتعد عن «الشریعة السهلة السمحاء» وعن «یسروا علی الناس ولا تعسروا».

ومن هذا کلّه ظهر لناصحةصـلاة الصف الطویل، لأن البعید فرضه هو الجهة، وإلّا إذا کان فرضه عین الکعبة لماصحتصلاة هذا الصف؛ لأـن فیهم- قطعاً- من یخرج عن محاذاة العین التی لا تتجاوز ۲۵ ذراعاً. وکما قال فی المجموع (۱).. مع الاتفاق علیصحةصلاة الصف الطویل؛ لأنه تظهر فیه المسامتة والاستقبال مع طول المسافة.

وبهذا اندفع الإشکال أو التساؤل السابق.

المذاهب الاخری

فیما ذهب القرطبی فی جامعه الی أن شـطر أی ناحیـة المسـجد الحرام یعنی الکعبة، ولا خلاف فی هذا. قیل: حیال البیت کلّه؛ عن ابن عباس. وقال ابن عمر:

حیال المیزاب من الکعبة؛ قال ابن عطیة، والمیزاب: هو قبلة المدینة وأهل الشام، وهناک قبلة أهل الأندلس.

قلت: قد روی ابن جریج عن عطاء عن ابن عباس أن رسول اللّهصلی الله علیه و آله قال:

«البیت قبلة لأهل المسجد، والمسجد قبلة لأهل الحرم، والحرم قبلة لأهل الأرض فی مشارقها ومغاربها من أمتی» (۲). انتهی.

وراح القرطبی یذکر أن لا خلاف بین العلماء أن الکعبة قبلة فی کلّ افق،

۱- ۱ المجموع ۳/ ۲۰۴.

۲- ۲ الجامع لاحکام القرآن للقرطبی ۲: ۱۵۹، فی تفسیر الآیة ۱۴۴ من سورة البقرة.

ص: ۱۰۵

وأجمعوا على أن من شاهـدها وعاينهـا فرض عليه اسـقبالها، وأنه إن ترک اسـتقبالها وهو معـاين لهـا وعالم بجهتها فلاصـلاة له، وعليه إعادة كل ماصلى، ذكره أبو عمر.

وأجمعوا أن كـلّ من غـاب عنها أن يسـتقبل ناحيتها وشـطرها وتلقاءها، فإن خفيت عليه فعليه أن يسـتدل على ذلک بكلّ ما يمكنه من النجوم والريـاح والجبـال، وغير ذلـک ممـا يمكن أن يسـتدل به على ناحيتهـا. ومن جلس فى المسـجد الحرام فليكن وجهه الى الكعبة وينظر اليها إيماناً واحتساباً، فإنه يروى أن النظر الى الكعبة عبادة، قاله عطاء ومجاهد.

- كما يذكر القرطبى فى المسألة الرابعة من هذا البحث أنهم: اختلفوا هل فرض الغائب استقبال العين أو الجهة؛ فمنهم من قال بالأول. ويذكر قول ابن العربى بتضـعيف من قال باسـتقبال العين فرضاً للغائب. حيث قال ابن العربى: وهو ضعيف لأنه تكليف لما لا يصل إليه أو لما لا يوصل إليه. ومنهم من قال بالجهة- أى فرض الغائب الجهة- وهوصحيح لثلاثة أوجه:

الأول: أنه الممكن الذى يرتبط به التكليف.

الثانى: أنه المأمور به فى القرآن لقوله تعالى: فول وجهک شـطر المسـجد الحرام وحيث ما كنتم.. يعنى من الأرض من شرق أو غرب. فولوا وجوهكم شطره. فلا يلتفت الى غير ذلک.

الثالث: أن العلماء احتجوا بالصف الطويل الذى يعلم قطعاً أنه أضعاف عرض البيت. ويجب أن يعول على ما تقدم، فإن الصف الطويل إذا بعد عن البيت أو طال أو عرض أضعافاً مضاعفة لكان ممكناً أن يقابل جميع البيت (۱).

هذا فى مسألتى استقبال العين أو استقبال الجهة وأيهما هو فرض الغائب البعيد عن الكعبة.

إذن فالقبلة هى جهة الكعبة أو عين الكعبة، فمن كان مقيماً بمكة أو قريباً منها فإنصـلاته لا تصح إلّاإذا اسـتقبل عين الكعبة يقيناً ما دام ذلک ممكناً، فإذا لم يمكنه

۱- ۱ الجامع لاحكام القرآن للقرطبى ۲: ۱۶۰، أحكام القرآن لابن العربى ۱: ۶۴- ۶۵.

ص: ۱۰۶

ذلك، فإنّ عليه أن يجتهد فی الاتجاه الی عین الکعبة، إذ لا یکفیه الاتجاه الی جهتها ما دام بمکة، علی أنه یصح أن یستقبل هواءها المحاذی لها من أعلاها، أو من أسفلها، فإذا کان شخص بمکة علی جبل مرتفع عن الکعبة أو کان فی دار عالیة البناء، ولم یتیسر له استقبال عین الکعبة، فإنه یکفی أن یکون مستقبلًا لهوائها المتصل بها، ومثل ذلک ما إذا کان فی منحدر أسفل منها، فاستقبال هواء الکعبة المتصل بها من أعلا أو أسفل، کاستقبال بنائها عند الأئمة الثلاثة (أی الحنفی والشافعی والحنبلی)، وخالف المالکیة حیث قالوا: یجب علی من کان بمکة أو قریباً منها أن یستقبل القبلة؛ بناء الکعبة، بحیث یکون مسامتاً لها بجمیع بدنه، ولا یکفیه استقبال هوائها، علی أنهم قالوا: إن مَنصلی علی جبل أبی قبیس فصلاتهصحیحة، بناءً علی القول المرجوح من أن استقبال الهواء کافٍ (۱)...

أما من کان بعیداً عن مکة، فالشرط الذی فی حقه أن یستقبل الجهة التی فیها الکعبة، ولا یلزمه أن یستقبل عین الکعبة، بل یصح أن ینتقل عن عین الکعبة الی یمینها أو شمالها، ولا یضر الانحراف الیسیر عن نفس الجهة أیضاً؛ لأن الشرط هو أن یبقی جزء من سطح الوجه مقابلًا لجهة الکعبة، مثلًا إذا استقبل المصلی فی مصر الجهة الشرقیة بدون انحراف الی جهة الیمین، فإنه یکون مستقبلًا للقبلة؛ لأن القبلة فی مصر وإن کانت منحرفة الی جهة الیمین، ولکن ترک هذا الانحراف لا یضر؛ لأنه لا تزول به المقابلة بالکلیة؛ فالمدار علی استقبال جهة الکعبة أن یکون جزء من سطح الوجه مقابلًا لها، وهذا رأی ثلاثة من الأئمة (الحنفیة والمالکیة والحنبلیة) وخالفهم الشافعیة حیث قالوا: یجب علی من کان قریباً من الکعبة أو بعیداً عنها أن یستقبل عین الکعبة، أو هواءها المتصل بها کما فی أعلاه، ولکن یجب علی القریب أن یستقبل عینها أو هواءها یقیناً بأن یراها أو یلمسها أو نحو ذلک مما یفید الیقین، أما من کان بعیداً عنها فإنه یستقبل عینها ظناً لا جهتها علی المعتمد، ثم إن الانحراف الیسیر یبطل الصلاة إذا کان بالصدر بالنسبة للقائم والجالس، فلو

۱- ۱ انظر الفقه علی المذاهب الاربعة للجزیری، مباحث استقبال القبلة- تعریف القبلة:ص ۱۹۴.

ص: ۱۰۷

انحرف القائم أو الجالس في الصلاة بصدره بطلت، أما إذا انحرف بوجهه فلا، والانحراف بالنسبة للمضطجع يبطل الصلاة إذا كان بالصدر أو بالوجه، وبالنسبة للمستلقي يبطل إذا انحرف بالوجه أو بباطن القدمين (۱).

حجر إسماعيل والقبلة:

في العدد الخامس من مجلة ميقات الحجص ۱۳۶ كانت لنا مقالة عن حجر إسماعيل، تطرقت فيها الى أن كون الحِجر- كلّه أو بعضه، لا ـ فقط حكماً بل موضوعاً أيضاً- من البيت، وقد مثّل واحداً من موقفين عند فقهاء الإمامية، والثاني هو أن الحجر ليس من البيت موضوعاً بل حكماً وعليه أكثر فقهاء الإمامية، ولهذا ادخل في الطواف فقط للنصوص المستفيضة في ذلك ولسيرة الرسول وللإجماع- لقد ذهب الى الرأي الأول كلٌّ منصاحب الدروس والعلّامة في التذكرة وفي المنتهى.. (المشهور أنه من البيت) (عندنا أنّه من الكعبة).

هذه الخلاصة لابدّ من مراجعة تفصيلها في العدد المذكور أعلاه، قبل قراءة هذه الإضافة، التي تبين لنا إن كان من الكعبة وبالتالي يصحّ استقبال بعضه أو كلّه في الصلاة وفي غيرها.. كما عن نهاية الأحكام: «يجوز أن يستقبله؛ لأنه كالكعبة عندنا..» وهذا لمن كان في المسجد الحرام، لا ـ من كان خارج المسجد الحرام كالبعيد أو النائي لأنّ كلًا من الكعبة والحِجر يعدّ شيئاً واحداً بالنسبة إليه فالمطلوب منه استقبال الجهة.

إن الشيخ يوسف البحراني ذكر في حدائقه ۶: ۳۸۱ في البحث السادس من بحوث القبلة أنه أي الشهيد قال في الذكرى: ظاهر كلام الأصحاب أن الحجر من الكعبة بأسره، وقد دلّ عليه النقل أنه كان منها في زمن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام الى أن بنت قريش الكعبة فأعوزتهم الآلآت، فاختصروها بحذفه، وكان كذلك في عهد النبيصلى الله عليه و آله ونقل عنه الاهتمام بإدخاله في بناء الكعبة، وبذلك احتج ابن الزبير

۱- ۱ انظر الفقه على المذاهب الأربعة للجزيري ۱/ ۱۹۵.

ص: ۱۰۸

حيث أدخله فيها، ثم أخرجه الحجاج بعـده وردّه الى ما كان، ولأن الطواف يجب خارجه. وللعامـة خلاف فى كونه من الكعبة بأجمعه أو بعضه أو ليس منهـا وفى الطواف خـارجه. وبعض الأصـحاب له فيه كلاـم أيضـاً مع إجماعنا على وجوب إدخاله فى الطواف، وإنما تظهر الفائدة فى جواز اسـتقباله فى الصلاة بمجرده، فعلى القطع بأنه من الكعبة يصحّ، وإلّا امتنع؛ لأنه عدول من اليقين الى الظن. انتهى قولصاحب الذكرى.

وهنا يقولصاحب الحدائق:... فلم نقف عليه فى أخبارنا، وبه اعترف جملة من علمائنا..

كما نقل عن التذكرة قولًا للعلامة يظهر فيه أن الحجر ليس كلّه من البيت بل جزءاً منه فيقول:... إلّاأن العلامة فى التذكرة نقل أن البيت كان لاصـقاً بالأرض، وله بابان شرقى وغربى، فهدمه السيل قبل مبعث النبيصلى الله عليه و آله بعشر سنين، وأعادت قريش عمارته على الهيئـة التى هو عليها اليوم، وقصـرت الأموال الطيبة والهدايا والنذور عن عمارته، فتركوا من جانب الحجر بعض البيت، وقطعوا الركنين الشاميين من قواعد إبراهيم عليه السـلام وضـيقوا عرض الجدار من الركن الأسود الى الشامى الذى يليه، فبقى من الأساس شبه الدكان مرتفعاً وهو الذى يسمى بالشاذروان. انتهى.

وهنا يقول حول ذلك: وهو مع مخالفته للنصوص... إنما يدل على جزء من الحجر لا مجموعه كما يستفاد من كلامه..

وذكر أيضاً قولصاحب الدروس: إن المشهور كونه من البيت، ثم قال بعد نقله هذا: ولا يخلو من غرابة.

ونقل فى المدارك عن العلّامة فى النهاية أنه جزم بجواز استقباله.

وهنا يقول: وهو أغرب؛ لما ورد فى النصوص من أنه ليس من البيت حتى إن فى بعضها: «ولا قلامة ظفر»...

ص: ۱۰۹

کما أن السید السبزواری فی مهذبه ذکر أدلته علی أن الحجر لیس من الکعبهٔ حقیقهٔ، مستعیناً بذلک بجملهٔ من الأخبار التی منها:.. لا ولا قلامهٔ ظفر.. حینما سئل علیه السلام الحجر أمن البیت..؟ وبالقرائن التی استفادها من الآیات والأخبار والتی منها:

اطلاق لفظ الکعبهٔ من زمان إبراهیم، بل من زمان بناء الملائکهٔ لها، وهی عبارهٔ عن المربع المکعب ولا یطلق علی المستطیل.

أنه یبعد عن مثل إسماعیل علیه السلام أن یدفن بناته فی جوف الکعبهٔ.

أنه لو کان من الکعبهٔ لا وجه لجعل فتحتین فیه من أول حدوثه، کما تشهد به التواریخ.

أنه لو کان منها لأشیر إلیه فی خبر من أخبار المعصومین، الذین هم أهل البیت، بل دلّت أخبارهم علیهم السلام علی أنه لیس من البیت.

أنه لم ینقل عن النبیصلی الله علیه و آله ولا عن أوصیائه ولا عن أحد من أصحابه أنهمصلَّوا إلیه بحیث لم یکن متوجهاً الی البیت، فلو کان منها لِمَ لم یصلّوا إلیه ولم ینقل ذلک عنهم؟!

ثم واصل السید السبزواری کلامه بقوله:

نعم، نسب الی بعض العامهٔ أنّه منها، وأن النبیّصلی الله علیه و آله کان یهتم بإدخاله فی البیت، وعن بعضهم: أنّ فیه ستهٔ أذرع من البیت، کما عن عائشهٔ: «إنّی نذرتُ أن أصلّی رکعتین فی البیت، فقالصلی الله علیه و آله:صلِّ فی الحجر، فإنه فیه ستهٔ أذرع من البیت» (۱).

کما أنّ السید السبزواری عدّ ما نسبه الشهید فی الذکری الی أصحابنا أن الحجر من البیت، وعن العلّامهٔ فی المنتهی جواز الصلاهٔ فیه، عدّه باطلًا وقال فی تعلیل ذلک: لأنه اجتهاد فی مقابل قولصادق أهل البیت- الذی هو أدری بما فی البیت- منصحیح ابن عمار أنه لیس منه، ولا قلامهٔ ظفر. ثم قال: نعم إنه من

۱- ۱ المغنی ۳: ۳۸۲.

ص: ۱۱۰

البیت من حیث الـدخول فی الطواف بإجمـاعهم ونصوصـهم، ولاـ ملازمـهٔ بین وجوب إدخاله فی الطواف، وکونه قبلـهٔ. مع أنه لو کان لـدخوله فی البیت مدرکصـحیح حتی عند العامهٔ؛ لاهتم خلفاء بنی أمیهٔ وبنی العباس فی إدخاله فی البیت، فإنه من أجلّ آثارهم وأهم مفاخرهم خصوصاً بعـدما قیل من أنّ ابن الزبیر أدخله فی البیت وأخرجه الحجاج، ولم یعلم من التأریـخ معارضـهٔ فقهاء العامـهٔ لما فعله الحجاج.

ثم ختم کلامه بقوله: وبالجملـهٔ: لم یبق فی البین ما یصح علیه لدخول شـیء منه فی البیت، وما تقدم من قول أبی عبد اللّه علیه السـلام وقوله علیه السـلام أیضـاً من أن: «الحجر مـدفن إسـماعیل وأمّه وبنـاته، حجّر علیه کراهـهٔ أن یوطـأ». ظـاهر، بل نصّ فی الخروج وقرّره الشارع؛ لأن لإسـماعیل وأبیه خلیل الرحمن علیه السـلام کان حقّ بناء البیت وخدمته وسدانته، فیستحق أن یتفضل اللّه تعالی علیه بهذه الفضیلهٔ العظمی، التی تبقی أمد الدهر (۱).

وما انتهی إلیه الشیخ حسن زاده آملی فی درسه ۷۴ حول حجر إسماعیل...

والمختـار أن الحجر مطلقـاً أعنی کلّا أو بعضاً لیس من البیت، فالصـلاهٔ مثلًا نحوه لیست بمجزیـهٔ؛ وذلک لأن الأخبار الواردهٔ فی المقام من أنه لیس من البیت مطلقاً أکثر عـدداً، وأصـحّ سـنداً وأوضـح دلالهٔ من غیرها، وما دلت علی أنّه منه روایهٔ واحدهٔ مرویهٔ عن عائشهٔ، ونصوص أهـل البیت علیهم السـلام تخالفها. علی أن محققی العامـهٔ أیضاً کما دریت ذهبوا إلی أنّ الشاذروان لیس من البیت. ودخول الحجر فی الطواف لا یدل علی أنه من البیت؛ وذلک لورود الأخبار الخاصهٔ، وقیام الإجماع من المسلمین علی أنه داخل فی الطواف... وفی بعض الرسائل الفقهیهٔ: والشاهد علی أنه لیس من الکعبهٔ ضیق محلّ الطواف من جانبه، وهو حسن جداً.

ثم راح یواصل کلامه بقوله: علی أن الصلاهٔ نحو الحجر وحده تصحّ متی علم

۱– ۱ مهذب الأحکام ۵/ ۱۷۷.

ص: ۱۱۱

بأنه من البيت وإلّا فباطلة؛ لأنه عدول عن اليقين الى الظن، والذمة بها مشتغلة، وأنى يحصل القطع بأن الحجر من البيت، وقد ذهب جمٌ غفير من الفريقين الى أنّه ليس منه، وقد دلت أيضاً نصوص أهل البيت عليهم السلام على أنّه ليس منه حتى بمقدار قلامة ظفر؟! ثم ذكر بعض تلك الروايات ثم ذكر أخيراً ما ذكره العلامة بحر العلوم فی الدّرة:

وما من البيت مكان الحجر كلّا ولا قلامة من ظفر

فلا تصلّ نحوه وإن دخل كالبيت فی الطواف فی بعض العلل

وصلّ فيه الفرض مطلقاً بلا حجر وفی الكعبة منع قد جلا انتهی (۱).

إذن فالذی يذهب الى أن الحجر من البيت حقيقة جوّز الصلاة اليه وبالتالی توسعة مساحة القبلة عيناً أو بنية وحتی جهة، أما الذی ذهب- وهو المشهور- الى أن الحجر من البيت حكماً لا حقيقةً فلم يتخذ منه قبلة.

أما عند المذاهب الأخرى غير الحنابلة فإن الحجر ليس من الكعبة ولا ـ الشاذروان، فمن كان بمكة واستقبل الحجر أو الشاذروان فإنصلاته لا تصح، وقد خالف ذلك الحنابلة حيث قالوا: إن الشاذروان وستة أذرع من الحجر وبعض ذراع فوق ذلك من الكعبة، فمن استقبل شيئاً من ذلكصحتصلاته (۲).

مصلّی المعصوم:

من الوسائل التی يستطيع البعيد الاستعانة بها على تعيين القبلة أو جهتها مصلّی النبیّصلی الله علیه و آله والأئمّة الأطهار عليهم السلام فی البقاع التی تشرّفت بهم، وهو محلّ اتفاق الفقهاء، إلّاأنّ الخلاف وقع بين بعض علماء الإمامية؛ فبعد أن اتفقت كلمتهم على أن مصلّی النبیّصلی الله علیه و آله لا يمكن الشك فی كونه وضع فی الاتجاه الصحيح والدقيق للقبلة، وأنّه على الكعبة وبمنزلتها بالضبط؛ لأنّه وضع بيد معصوم وكان جبريل

۱- ۱ دروس معرفة الوقت والقبلة للشيخ حسن حسن زادة آمليص ۵۲۰- ۵۲۲.

۲- ۲ الفقه على المذاهب الأربعة ۱/ ۱۹۵.

ص: ۱۱۲

معه، وفيه قالصلى الله عليه و آله: «محرابی علی المیزاب» وقع الخلاف بینهم فی تلک الصحّة وهذه الدقّة بعدما تعرّض فی أزمنة مختلفة للتغییرات کالتهدیم والتجدید، فأفقدته الصحّة وسلبت منه الدقّة، التی أضفتها علیه ید المعصوم ووجوده، وبالتالی لا یمکن أن یکون مصلی النبیّصلی الله علیه و آله ومصلی الإمام المعصوم علیه السلام أمارة تدلّنا علی الاتجاه السلیم للقبلة بعد أن لامسته ید التهدیم والبناء، وهذا ما ذهب إلیه بعضٌ کالشیخ المجلسی وتبعه فی ذلک الشیخ الأنصاری فی کتابه الصلاة (۱).

یقول العلّامة فی التذکرة بهذا الخصوص: المصلّی بالمدینة یجعل محراب رسول اللَّهصلی الله علیه و آله قبلته من غیر اجتهاد؛ لعدم الخطإ فی حقّهصلی الله علیه و آله.

ویقول الشهید فی الذکری: لا اجتهاد فی محراب رسول اللَّهصلی الله علیه و آله فی جهة القبلة ولا فی التیامن والتیاسر فإنّه منزل منزلة الکعبة، وروی أنّه لما أراد نصبه زویت له الأرض فجعله بإزاء المیزاب، ولأنّ النبیصلی الله علیه و آله معصوم لا یتصوّر منه الخطأ، وعند من جوّزه من العامة لا یقرّ علیه، فهوصواب قطعاً، فیستقبله معاینة، وتنصب المحاریب هناک علیه، وفی معنی المدینة کل موضع تواتر أن النبیصلی الله علیه و آلهصلّی فیه إلی جهة معیّنة مضبوطة الآن، وکذا لا اجتهاد فی المسجد الأعظم بالکوفة فی التیامن والتیاسر، مثل ما قلناه فی مسجد النبیصلی الله علیه و آله لوجوب عصمة الإمام کالنبیصلی الله علیه و آله وقد نصبه أمیر المؤمنین وصلّی إلیه هو والحسن والحسین علیهم السلام.

وأمّا محراب مسجد البصرة فنصبه عقبة بن غزوان فهو کسائر محاریب الإسلام، وربّما قیل بمساواته مسجد الکوفة؛ لأنّ أمیر المؤمنین علیه السلامصلّی فیه وجمع من الصحابة، فکما لا اجتهاد فی مسجد الکوفة فکذا فی مسجد البصرة، وأمّا مسجد المدائن فصلّی فیه الحسن علیه السلام فإن کان المحراب مضبوطاً فکذلک، وبمشهد سر من رأی مسجد منسوب إلی الهادی علیه السلام فلا اجتهاد فی قبلته أیضاً إن کانت مضبوطة.

ولو تخیّل الماهر فی أدلّة القبلة تیامناً وتیاسراً فی محراب رسول اللَّهصلی الله علیه و آله

۱- ۱ انظر دروس معرفة الوقت والقبلة للشیخ حسن زاده آملی: ۳۷۸.

ص: ۱۱۳

ومحراب أمیر المؤمنین علیه السلام فخیاله باطل لا یجوز له ولا لغیره العمل به (۱).

وأمّا السمهودی وهو من العامّة فیقول: والذی ذکره أصحابنا أنّه لا یجتهد فی محراب النبیّصلی الله علیه و آله لأنّهصواب قطعاً إذ لا یقرّ علی خطإ، فلا مجال للاجتهاد فیه حتی لا یجتهد فی الیمنة والیسرة بخلاف محاریب المسلمین، سیما وقد تقدّم أنّه وضعه وجبرئیل یؤم به البیت، والمراد بمحرابهصلی الله علیه و آله مکان مصلّاه، فإنّه لم یکن فی زمنهصلی الله علیه و آله محراب (۲).

وقد ذکر الجزیری: ومن کان بمدینة النبیصلی الله علیه و آله، فإنّه یجب علیه أن یتّجه إلی نفس محراب المسجد النبوی، وذلک لأنّ استقبال عین محراب مسجد النبیصلی الله علیه و آله هو استقبالٌ لعین الکعبة؛ لأنّه وضع بالوحی، فکان مسامتاً لعین الکعبة بدون انحراف (۳).

أمّا ما ذهب إلیه العلّامة المجلسی: وما ذکره أصحابنا من أن محراب مسجد الکوفة محراب المعصوم لا یجوز الانحراف عنه إنّما یثبت إذا علم أن الإمام بناه- ومعلوم أنّه لم یبنه- أوصلّی فیه من غیر انحراف عنه وهو أیضاً غیر ثابت، بل ظهر من بعض ما سنح لنا من الآثار القدیمة عند تعمیر المسجد فی زماننا ما یدل علی خلافه.. مع أن الظاهر من بعض الأخبار أن هذا البناء غیر البناء الذی کان فی زمن أمیر المؤمنین علیه السلام بل ظهر لی من بعض الأخبار والقرائن أن محراب مسجد النبیصلی الله علیه و آله بالمدینة أیضاً قد غیّر عمّا کان فی زمانه؛ لأنّه علی ما شاهدنا فی هذا الزمان موافق لخط نصف النهار وهو مخالف للقواعد الریاضیة من انحراف قبلة المدینة إلی الیسار قریباً من ثلاثین درجة ومخالف لما رواه الخاصّیة والعامّیة من أنّهصلی الله علیه و آله زویت له الأرض ورأی الکعبة فجعله بإزاء المیزاب (۴).

فإنّ من وقف بحذاء المیزاب یصیر القطب الشمالی محاذیاً لمنکبه الأیسر، ومخالف لبناء بیت رسول اللّهصلی الله علیه و آله الذی دفن فیه. مع أن الظاهر أن بناء البیت کان موافقاً لبناء المسجد وبناء البیت أوفق بالقواعد من المحراب، وأیضاً مخالف لمسجد قبا ومسجد الشجرة وغیرهما من المساجد التی بناها النبیّصلی الله علیه و آله أوصلّی فیها. ولذا

۱- ۱ الذکری، القبلة.

۲- ۲ وفاء الوفاء ۱/ ۲۷۳.

۳- ۳ الفقه علی المذاهب الأربعة ۱/ ۱۹۴- ۱۹۵ للجزیری.

۴- ۴ تاریخ المدینة للسمهودی ۱/ ۲۶۱ والدرة الثمینة ۳۵۷.

ص: ۱۱۴

حمل بعض الأفاضل ممّن کان فی عصرنا حدیث المفضّل وأمثاله علی مسجد المدینة، وقال: لما کانت الجهة وسیعة وکان الأفضل بناء المحراب علی وسط الجهات إلّاأن تعارضه مصلحة لمسجد المدینة حیث بنی محرابه علی خط نصف النهار لسهولة استعلام الاوقات مع أن وسط الجهات فیه منحرف نحو الیسار فکذا حکموا باستحباب التیاسر فیه لیحاذی المصلّی وسط الجهة المتسعة.

ویقول فی موضع آخر:.. وأغرب من جمیع ذلک أن مسجد الرسولصلی الله علیه و آله محرابه علی خط نصف النهار مع أنّه أظهر المحاریب انتساباً إلی المعصوم، وهو مخالف للقواعد لانحراف قبلة المدینة عن یسار نصف النهار أی من نقطة الجنوب إلی المشرق بسبع وثلاثین درجة. وأیضاً مخالفاً لما هو المشهور من النبیصلی الله علیه و آله قال:

محرابی علی المیزاب.

ومن یقف فی المسجد الحرام بإزاء المیزاب یقع الجدی خلف منکبه الأیسر بل قریباً من رأس المنکب، وکنت متحیّراً فی ذلک حتی تأمّلتُ فی عمارة روضة النبیصلی الله علیه و آله التی حول قبره الشریف فوجدتها منحرفة ذات الیسار کثیراً، وإن لم یکن بهذا المقدار، وظاهر أن البیوت کانت مبنیة بعد المسجد علی وفقها، فظهر أن محراب المسجد أیضاً ممّا حرّف فی زمن سلاطین الجور. ویؤیّده أن محراب مسجد قبا ومسجد الشجرة، وأکثر المساجد القدیمة التی رأیتها فی المدینة وبین الحرمین، إمّا موافقة للقواعد أو قریبة منها مع أن النبیّصلی الله علیه و آله والأئمّة علیهم السلامصلّوا فیها واللَّه یعلم.

وهنا یقول الشیخ حسن زاده آملی فی درسه ۵۶ وبعد أن یصف ما ذهب إلیه العلّامة والسمهودی وغیرهما: من أن المصلّی بالمدینة یجعل محراب رسول اللَّهصلی الله علیه و آله قبلته من غیر اجتهاد لعدم الخطإ فی حقّهصلی الله علیه و آله یصفه بأنّه کلام فی غایة الاستواء ونهایة المتانة؛ لعدم تحوّله عمّا بناه رسول اللَّهصلی الله علیه و آله. فیقول: وما ذهب إلیه بعض المتأخّرین حیث قال: «ومنها المحاریب التی علم بصلاة المعصوم فیها کمحراب مسجد المدینة والکوفة والبصرة والمدائن، ولکن العلم بکون المحاریب

ص: ۱۱۵

الموجودة الآن هی التیصلّی فیها المعصومون علیهم السلام بعید بل معدوم العدم وذلک للتغییرات الفاحشة فی تلک المساجد من جهة التخریب والتعمیر والتوسعة والتضییق کما لایخفی فهذه العلامة لیست متحقّقة فی هذه الأزمنة». فهو فی قبلة المدینة خاصة بعید عنصوب الصواب جدّاً...

ولا یخفی علیک أن تعمیر مسجد النبی وتوسعته أو تضییقه لا توجب تغییر المحراب الذیصلّی فیه رسول اللّهصلی الله علیه و آله بل المسلمون فضلًا عن مؤمنیهم یراقبون فی حفظه علی ما کان تبرکاً منهم بذلک، وأی غرض یتعلّق فی ذلک للمخالف أن یغیّر المحراب مع اهتمام المسلمین طرّاً بذلک بل عدم التغییر معلوم، ومن أین ثبت ونقل أن تغیّر المحراب بالتعمیر فضلًا عن أن یکون خامشاً؟ وبالجملة لا یساعد هذا القول دلیلٌ بل کما قلنا عدم التغییر معلوم....

ثم بعد ذلک ینتقل إلی قول المجلسی وهو مخالف للقواعد... فیقول فیه: تلک القواعد هی المستفادة من الأرصاد والآلات المبنیة علی ما ذهب إلیه القدماء، ولا یخفی علی البصیر فی الفن أنّه قد وقع للقدماء فی تعیین أطوال البلاد وعروضها خبط عظیم، وإن کان الخبط فی الطول أشدّ وأکثر....

ثم ان احتمال تحریف قبلة المدینة من سلاطین الجور ضعیف غایة الضعف؛ لأنّهم کانوا متظاهرین بحفظ الدین وآثار النبیّ وشعائر الإسلام، مع عنایة قاطبة المسلمین إلی حفظ ما بقی من الرسول وبنی تبرّکاً منهم بذلک، وإن کان هؤلاء السلاطین یردّون الناس علی أعقابهم القهقری.

ثمّ ینتهی فی ردّه الی القول: والصواب أن یجعل محرابهصلی الله علیه و آله أصلًا فإن طابقته قواعد الهیئة وما استنبطت من الآلات الرصدیّة وغیرها، کما فی القانون المسعودی، وإلّا فقد حصل خلل فی عمل أرباب الأزیاج وأصحاب الأرصاد لا فی فعل النبیصلی الله علیه و آله کما فعله غیر واحد من مهرة الفن من القدماء (۱).

۱- ۱ دروس معرفة الوقت والقبلةص ۳۷۶- ۳۷۹ وتحوی علی تفاصیل أکثر.

ص: ۱۱۶

الهوامش:

من رحلات الحج الإيرانية (٢)

ص: ١١٨

من رحلات الحج الإيرانية (٢)

رحلة ناصر خسرو

٣٩٤- ٤٨١ ه. ق

حسن الإسلامی

«کنت فی جوزجانان أحتسی الخمر، حتی رأیت فی المنام أحداً یهتف بی قائلًا: (حتام تحتسی شراباً یُذهب بالعقول؟ أما کان أجدر بک أن تُبقی علی وعیک؟... علیک بطلب ما یزید فی عقلک وفهمک). فأجبتُ: وأنّی لی بهذا؟ قال:

(مَن جدّ وجد) ثم أشار الی جهة القبلة ولم یعقّب». ناصر خسرو.

ناصر خسرو

رجلٌ یعمل فی الدیوان، سعید الحظّ، ینعم بالمال والجاه والراحة، بعد أن اجتاز أواسط العمر، ونزل فی منحدر الموت. فجأة، تملّکه إحساس الملالة والعبث، فراح ینظر الی عُمُره الذی خلّفه وراءَه فلا یری إلّافناءً وخواءً. تخلّی عن عمله یائساً، ورکن الی زاویة- ومن أجل الهروب من الواقع- انغمس فی احتساء الشراب؛ لیرسل عقله فی خیال بعید، واستمرّ علی هذا الحال شهراً واحداً، حتی رأی فی منامه حُلُماً قَلَب حیاته رأساً علی عقب. یقول ناصر خسرو: ذات لیلة، رأیت أحداً فی منامی یقول لی: «حتام تحتسی شراباً یُذهب بالعقول؟ أما کان

ص: ۱۱۹

أجدر بك أن تُبقى على وعيك؟..» فأجبته: «لم يصنع الحكماء شيئاً يُذهب بهمّ الدنيا غير هذا». فقال: «لا راحة فی اللاوعی، والحكيم لا يهدی الناس الى ما يُذهب بعقولهم، عليك بطلب ما يزيد فی عقلك وفهمك». فأجبته: «وأنّی لی بهذا؟» قال: «من جدّ وجد» ثم أشار الى جهة القبلة ولم يعقّب (۱).

بهذا الحُلم وبهذا الحديث انقطع ناصر خسرو عن ماضيه دفعةً واحدة، وارتبط بمستقبل مشرق، وبُعِث من جديد، وراح يحدث نفسه: «استيقظتُ من حُلم الأمس، وآن لی أن استيقظ من حُلم الأربعين سنة كذلك» (۲) وفعلًا جدّ واجتهد حتى بدّل أعماله وأفعاله كلّها، ووصل إلى الفرج بعد الشدّة.

وعلى هذا الأساس، وضع عنه متعلّقاته، وعزم على السفر الى مكّة المكرّمة برفقة شقيقه الأصغر وبرفقة مملوكه، فوصل إليها عن طريق مصر. وقد حَجّ أربع مرات. وفی الختام أنهى سبع سنوات من السفر ثم عاد أدراجه؛ ليكتب لنا مذكّراته عن هذه الرحلة، ويترك إرثاً يُخلّد ذكره.

حياته:

ولد ناصر عام ۳۹۴ ه. ق فی بلدة قباديان بلخ، وتشرّب من علوم ومعارف عصره، وحفظ القرآن، وقرأ الملل والنِحل، وكان له نصيبٌ فی تعلّم الرسم، وأحياناً كان يرتزق منه.

فی سنوات شبابه، وجد طريقه الى بلاط الأمراء، حيث حضر فی بلاطی الأمير محمود والأمير مسعود الغزنوی، وكان حتى سنّ الثالثة والأربعين، يعمل فی الديوان وفی التدريس، وفی هذه المرحلة تفجّرت فی داخله ثورة معنوية، فعزم على الرحيل الى مصر، وتعرّف على الفاطميين هناك، واعتنق مذهبهم، وأقام هناك ما يقارب ثلاثة أعوام، وعند انتهاء الرحلة، رجع بلقب حجّة إقليم خراسان، وكمبلّغ عنهم.

ومنذ ذلك الحين، كان فی اختفاء وهروب دائمين، حتى التجأ مُرغماً إلى يمگان

۱- ۱ رحلة ناصر خسرو القبادیانی المروزی، تحقیق نادر وزین پور، طهران، کتابهای جیبی، ۱۳۷۰،ص ۲.

۲- ۲ رحلة ناصر خسرو القبادیانی المروزی، تحقیق نادر وزین پور، طهران، کتابهای جیبی، ۱۳۷۰،ص ۲.

ص: ١٢٠

إحدى ضواحي بدخشان، وقضى حياته هناك وحيداً ومنعزلًا حتى أغمض عينيه عن هذا العالم في عام ۴۸۱ ه. (۱).

بعد عودته الى خراسان، كان ناصر قد نذر نفسه لمذهبه الجديد ولم يتوان عن خدمته وتبليغه لحظة واحدة، وقد استعان بقوة شعره وقلمه في هذا الطريق.

مؤلّفاته:

دافع ناصر المتشرّب بعلوم عصره، وبطبعه الشاعري وعقله الاستدلالي، وتجربته ذات السنوات السبع، بلا هوادة عن عقيدته الجديدة، وكتب مؤلّفات في تأييد المذهب الإسماعيلي.

مؤلّفات ناصر، التي اصطبغت بصبغة باطنية، هي محاولة لتفسير نظريات الإسماعيلية والباطنية على أساس عصره. ويغالي ناصر كثيراً في هذا المسير إلى الدرجة التي يتجاهل فيها مسلّمات العقل، ويدافع فيها عن التحجّر الطائفي، حتى إنّه ذهب إلى تكفير من لم يكن باطنياً. في حين أنّ مؤلّفاته، عموماً، تنحى منحىً منطقياً. ومجمل هذه المؤلفات هي:

ديوان أشعاره، خوان الأخوان، زاد المسافرين، وجه الدين، الخلاص والنجاة، والرحلة.

الرحلة:

المؤلَّف الوحيد الذي لا يحمل مسحة باطنية، هو رحلة الحج، حتى إنّ بعضاً يعتقد أنّه أثناء كتابته لهذه الرحلة، لم يكن يحمل أدنى ميل لهذا المذهب (۲). بعد عودته من السفر، جمع ناصر مذكّراته، ونظّم رحلته المذكورة بحيادية محيّرة، وبشكلٍ أصبحت فيه من أرقى نماذج تسجيل المشاهدات وتصويرها.

في هذه الرحلة، يشرع ناصر من عمله وسبب تركه له، وحُلُمِهِ الذي أقضّ مضجعه، والطريق الذي سلكه، والمدن التي شاهدها، والحكايات التي

۱- ۱ وصف ناصر حالته مع أعدائه في قصيدة طويلة، وللحصول على تفصيل أكثر حول هذه القصيدة، راجع كتاب: چشمه روشن أي النبع المضيء، لقاء مع الشعراء، لغلامحسين يوسفي طهران، علمي، ۱۳۶۹ص ۸۹- ۷۹.

۲- ۲ «ره آورد سفر» هدية السفر، مقتطفات من رحلة ناصر خسرو، تصحيح وتوضيح السيد دبيرسياقي طهران، سخن، ۱۳۷۰ص ۱۹.

ص: ۱۲۱

سمعها، كلّ ذلك يشرحه بالتفصيل، وينهى رحلته بشرح عودته منها إلى بلخ فى عام ۴۴۴ ه. ق.

خصوصيّات هذه الرحلة:

حاول ناصر فى هذا الكتاب عدم الابتعاد عن جادّة الصواب، وأن يوضّح الحقائق بعيداً عن أهوائه فكانت النتيجة، أن أصبح كتابه موضع ترحيب العام والخاص؛ للأسباب التالية:

۱- الصدق والإخلاص فى عرض الحقائق، حتى على نفسه.

فى بداية رحلته، يتحدّث عن شربه الخمر لمدة شهر واحد. ويُلقى على مسامعنا هذا الدرس للنبيّ الأكرمصلى الله عليه و آله «قولوا الحقَّ ولو على أنفسكم» (۱).

۲- مراعاة الاختصار والإيجاز؛ والابتعاد عن الحشو والزيادة.

يلخّص ناصر لنا مشاهداته ومسموعاته فى سبع سنوات من رحلته فى ۱۲۵صفحة فقط، وهذه دلالة على براعة المؤلف بالاستعمال المناسب للكلمات.

۳- المشاهدة الدقيقة، ووصف وتصوير ما رأى.

فهو لا يمرّ على الأشياء مرّ الكرام، بل يعطى العين والأذن حقّهما، ويصف مشاهداته بشكل نعتقد معه أننا نحن الذين ننقل مشاهداتنا.

يقول أحد أصحاب الرأى السديد فى هذا المجال:

«من قرأ فى هذا الكتاب بدقّة وصفه مكّة المكرّمة، والكعبة المشرّفة ومناسك الحجّ، وتُتاح له زيارةُ بيت اللَّه الحرام، يرى أنه بالرغم من ألف عام تفصلنا عنه، غير متخلف فى أداء مناسك الحج عن أولئك الذين حظوا بشرف أدائها فى ذلك الوقت» (۲).

وهنا يضع ناصر معلومات جمّة بين يدى القارئ، فهو يُطلعه على جغرافية المدن، والفن المعمارى، والتقاليد الدينية والاجتماعية والمنظمات الإدارية، وعادات الناس، وحتى مسألة الماء ومعدّل الاستفادة منه.

۱- ۱ الرحلة،ص ۲.

۲- ۲ رحلة الحكيم ناصر خسرو القباديانى المروزى، تحقيق السيد محمد دبيرسياقى طهران، زوار، ۱۳۵۶ص ۳۹.

ص: ١٢٢

۴- النثر البسيط وبلا تكلّف:

فى هـذا الحقل، ينظر ناصـر إلى اللغـة المكتوبـة باعتبارها وسـيلة اتصال ونقل المعلومات، ومن هـذا المنطلق فهو قلّما يقع فريسـة للّعب بالألفاظ، كما أنه يبتعد عن الشوائب الأدبية، وبالرغم من أنّه أديب وكاتب، إلّاأنّ هذه الأشياء لم تكن عقبات فى طريق عمله. وهذا ما يُفسّـِر لنـا أنّه وبعـد مضـى ألف عام لا يزال كتابُه مفهوماً ومشوّقاً. وما نراه فى الكتاب- أحياناً- مانعاً لعمله من كلمات أو عباراتصـعبة؛ فذلك لتباعد الزمان ليس إلّا؛ لأن هذه الكلمات أو العبارات هى بالحقيقة، كانت متداولة تماماً، زمان تأليف الكتاب.

۵- الأمانة فى نقل المواضيع:

إن ناصر خسرو مع كونه مسلماً ملتزماً، إلّاأنّه لا يسمح لآرائه أن تتدخّل فى نقل مشاهداته ومسموعاته، أى حسب ما يُصطلح عليه اليوم (الأمانة فى النقل)، هذه الميزة جعلت الكتاب مشوّقاً ومرغوباً فيه حتى من قبل من يخالفون ناصر خسرو فى العقيدة.

إن الخصوصـيّات أعلاـه- علاـوة على موضـوع الكتـاب وعوامـل اخرى- أوجبـت طبعـه مرّات عـدّة، وترجمتـه، وجعلته موضـع عنـاية المحقّقين.

طبع هذا الكتاب، حتى الآن، بشكل كامل، ومنتخب ومحقّق، ونُشرت منه نسخ باللغات العربية والتركية والفرنسية والانكليزية (١).

وننقل منه هنا فقرات تتعلّق بالحج:

رحلة الحجّ الأولى:

(وذهبتُ الى مرو، وطلبتُ إعفائى من عملى، وقلتُ: إنى عازم على السـفر الى القبلـة (الحج)، وعليه فقد سدّدت حساباتى، وتركتُ من دُنياى ما أملك، إلّا القليل الضرورى.

فقد رحلتُ من هناك (مشهد الخليل فى قرية حبرون) قادماً إلى بيت

---

١ - ١ لأجـل الحصـول على معلومـات أكـثر حول طبعـات هـذه الكتب، اقرأ: تحليـل رحلـة ناصـر خسـرو لجعفر الشـعار طهران، قطره، ١٣٧١ص ٢٨.

ص: ١٢٣

المقـدس، وانطلقنا من بيت المقـدس مع مجموعـة كانت عازمـة على السـفر إلى الحجاز مشـياً على الأقدام. لقد كان دليلُنا رجلًا جَلداً، مترجّلًا وطَلِق الوجه. وكان يسـمى «أبو بكر الهمـدانى». وتركتُ بيت المقدس فى النصف من ذى القعدة سـنة ۴۳۸ ه، وبعد ثلاثة أيام، وصـلنا الى منطقـة يُقال لها (ارعز) وكانت تحتوى على جداول ماءٍ وأشـجار. ووصـلنا إلى منزل آخر يُدعى (وادى القرى) ومن هناك انطلقنا الى منزل آخر، حيث وصـلنا بعـد عشـرة أيام الى مكّة المكرّمة. وفى ذلك العام، لم تكن قد وصـلت قافلة من أى مكان، وكان يصعب الحصول على الطعام، وبعد ذلك نزلنا فى سكّة العطارين أمام باب النبىّ عليه السلام.

ويوم الاثنين كنّا على عرفات. وكان الناس يهابون العرب كثيراً، وعنـد العودة من عرفات، مكثتُ فى مكّة يومين، وسـلكتُ طريق الشام عائداً الى بيت المقدس. ووصلنا إلى القدس فى الخامس من شهر محرّم سنة تسع وثلاثين وأربعمائة هلالية.

لم آت هنا على شرح مكّة المكرّمة والحج، حتى أصل إلى بيان رحلة الحج الرابعة واستفيض بالشرح.

بعد بيت المقدس، عزمت على ركوب البحر، متوجّهاً إلى مصر، ومن ثمّ من هناك إلى مكّة المكرّمة.

رحلة الحجّ الثانية:

فى سـنة تسع وثلاـثين وأربعمائـة هجريـة تُلىَ حُكم السـلطان على النـاس من أنّ أمير المؤمنين يقول: «لاصـلاح من سـفر الحجاج إلى الحجاز هذا العام؛ لأن القحط والجوع قد ضرب تلك البلاد، وأنّ خلقاً كثيراً قضوا نحبهم، وإنّى لأقول هذا من باب الشفقة الإسلامية».

وانصرف الحجاج عن عزمهم. وعلى ما هو معهود، فإن السلطان كان يبعث بحلّة الكعبة- كل عام مرتين- ولمّا كانت النية هذا العام فى إرسالها عن طريق بحر القُلزم، فقد رافقتهم فى ذلك.

ص: ١٢۴

غادرت بلاد مصر فی غرّة شهر ذی القعدة، ووصلتُ القلزم فی العشرین منه، ومن هناک رکبنا السفینة، وبعد مضی ١۵ یوماً وصلنا إلی منطقة یُقال لها (جار)، وکان ذلک فی الثانی والعشرین من نفس الشهر، وبعد أربعة أیام کنّا فی مدینة رسول اللّهصلی الله علیه و آله.

المدینة:

مدینة الرسول- علیه السلام- بلدة تقع علی أطراف الصحراء، وأرضها رطبة ومالحة، وتجری المیاه فیها ولکن بشحّة، وبساتین النخیل تغطّیها. وهناک تکون القبلة باتجاه الجنوب. ومسجد رسول اللَّه- علیه الصلاة والسلام- یوازی المسجد الحرام فی مساحته. وحجرة رسول اللَّه- علیه السلام- جنب منبر المسجد. فعندما تستقبل القبلة تکون إلی الیسار، وحینما یرید الخطیب ذکر النبیّ- علیه السلام- والصلاة علیه من علی المنبر، یُدیر بوجهه إلی الیمین، ویشیر إلی قبره. وهذه المقبرة عبارة عن بیت خماسی الأضلاع، وقد ارتفعت جدرانها من بین أعمدة المسجد وعددها خمسة، وقد علت جدرانها واقیة تمنع الدخول إلیها، وقد وُضع فی ساحتها مصیدة تمنع تردّد الطیر هناک.

وبین القبر والمنبر حجرة أیضاً بُنیت من الرخام شبیهة بالعتبة، تسمی الروضة، ویُقال: إنّها بستان من بساتین الجنة. کما جاء فی حدیث رسول اللَّه- علیه السلام- حیث قال: «بین قبری ومنبری روضة من ریاض الجنة» وتقول الشیعة فی هذا: هناک حیث قبر فاطمة الزهراء علیها السلام.

وللمسجد بابٌ. وخارج البلدة، نحو الشمالصحراء، وفیها مقبرة تضم قبر حمزة بن عبدالمطلب رضی الله عنه، وهذا الموضع یسمی بقبور الشهداء.

واستمرّت إقامتنا فی المدینة یومین، ورحلنا عنها لضیق الوقت، حیث سلکنا طریق المشرق، وعلی مسافة منزلین من المدینة کان هناک جبل ومضائق عدیدة کمضیق (الجحفة) وهو میقات أهل المغرب والشام ومصر، والمیقات هو

ص: ۱۲۵

ذلـك الموضع الـذى يُحرم فيه الحجيـج. ويُحكى أنه فى إحـدى السـنين نزل بها حجاج كثيرون، وفجأة غمرهم سـيلٌ عرم آبادهم عن آخرهم، ولهذا السبب سُمّى ب (الجُحفة). إن بين مكّة المكرّمة والمدينة مائة فرسخ، وهو طريق حجرى، وقد قطعناه فى ثمانية أيام.

مكّة:

وصـلنا مكـة، يوم الأحـد، السادس من ذى الحجـة، ونزلنا بباب الصـفا، وكان عام قحطٍ على مكّة، حيث بلغ سـعر كلّ أربعة أرغفة من الخبز ديناراً نيشابورياً واحـداً، وكان المقيمون بمكّة يرحلون عنها، ولم يرد أى حاج من أى جهـة. وقد أدّينا مراسم الحج على عرفات يوم الأربعاء، بفضلٍ من البارى- سبحانه وتعالى- ثم أقمنا بمكّة يومين، وكان خلقٌ كثيرٌ يهرب من الحجاز، ويهيم بوجهه فى كلّصوب بسـبب الجوع وقلّة الحيلـة. ولن آتى على شـرح الحـج ووصف مكّة فى هذه المرة، بل أدع ذلك إلى المرّة القادمة عندما أصل إليها. حيث المرّة القادمة جاورتها ستة أشهر وما رأته عيناى كتبته يداى.

رحلة الحجّ الثالثة:

ومرّة اخرى فى رجب سنة أربعين وأربعمائة هجرية، تُلى حُكم السلطان على الخلق وقد جاء فيه: «ضرب القحط الحجاز، ولا نريصلاحاً فى سفر الحجيج، فهم معذورون، وعليهم بأداء ما أمرهم اللّه تعالى به».

وفى ذلك العام أيضاً لم يسافر الحجاج. وقـد بعث السـلطان بهـداياه السـنوية المتكونـة من حُلّة الكعبة، والخدم والحاشـية لأمراء مكّة والمدينة، وصـلة أمير مكّة وراتبه الشـهرى حيث كان ثلاثة آلاف دينار شهرياً وحصاناً وخِلعة، بعث كلّ ذلك ولكن على دفعتين، ولم يكن قد أخّرها عن قصور أو احتباس.

فى هذا العام، كان هناك شـخص يُدعى القاضـى عبداللّه، كان يقضـى فى الشام، وقد أسـندوا إليه حمل تلك الهدايا، وقد رافقته إلى طريق القلزم، ووصلت السفينة

ص: ١٢٦

هذه المرّة إلى (جار) فى الخامس والعشرين من ذى القعدة، وكان الوقت يمضى بسرعة. وثمن البعير قد وصل إلى خمسة دنانير، فذهبتُ بعجلة.

وصلت مكّة فى الثامن من شهر ذى الحجة وأديتُ مناسك الحج بتأييد من الحقّ- سبحانه وتعالى-.

ولمّا أنهيتُ مناسك الحج، عدتُ أدراجى إلى مصر، حيث كان لى هناك بعض الكتب، ولم تكن لى نية العودة.

رحلة الحج الرابعة:

والآن، أسردُ لكم قصة رجوعى إلى البيت الحرام، فى مكة- حرسها اللَّه تعالى من الآفات- من مصر.

فقدصلّيتُ فى القاهرةصلاة العيد، وركبتُ السفينة انطلاقاً من مصر، حيث جرت نحو الصعيد الأعلى، وذلك يوم الثلاثاء المصادف للرابع عشر من شهر ذى الحجة سنة إحدى وأربعين وأربعمائة هجرية.

جدّة:

وهى مدينة كبيرة، ولها قلعةٌ حصينة على شاطئ البحر، وفيها خمسة آلاف رجل، يحدّها البحر من الشمال، وتضمّ أسواقاً جميلة. واتجاه قبلة مسجد الجمعة نحو المشرق، ولا توجد أى عمارة خارج المدينة إلّاالمسجد المعروف بمسجد رسول اللَّه- عليه الصلاة والسلام- وبوابتا المدينة، الأولى باتجاه المشرق، التى تواجه مكّة، والثانية باتجاه الغرب، وهى تقابل البحر. والمسافة من هناك إلى مكّة اثنا عشر فرسخاً. وكان أمير جدّة عبداً لأمير مكّة، وكان يُلقّب بتاج المعالى بن أبى الفتوح، وكان أمير المدينة أيضاً كذلك. وقد نزلتُ عند أمير جدّة، وكان بى حفيّاً، وقد أعفانى من دفع الضريبة التى استحقت علىّ، وعند خروجى من بوابة مسلم إلى مكّة كتب أمير جدة يقول: «إنّ هذا رجل عالم، فلا تأخذوا منه شيئاً».

رحلنا عن جدّة يوم الجمعة وبعدصلاة العصر، ووصلنا إلى باب مدينة

ص: ١٢٧

مكّة، يوم الأحد، سلخ جمادى الآخرة. وكان فيها خلقٌ كثير جاؤوا من نواحى الحجاز واليمن؛ ليحضروا العمرة فى أول رجب. وهو موسم عظيم وكذلك ليحضروا عيد الفطر، ويأتوا عند موسم الحج. ولأن مسيرهم قريب وسهل فهم يأتون ثلاث مرات كلّ عام.

وصف مدينة مكّة- شرّفها اللّه تعالى-:

تحيط بمدينة مكّة الجبال العالية من كل جانب، وإذا توجهنا إليها من أى جهة كانت، لا نراها حتى نصل إليها، وأعلى الجبال القريبة منها هو جبل «أبو قبيس»، وهو يبدو كقبّة مدوّرة، إذا اطلق سهمٌ من قاعدته وصل إلى قمّته. ويقع على مشرق المدينة، فإذا كنا فى شهر دى (هذا الشهر وباقى الشهور الأخرى المذكورة فى هذه الرحلة هى من الشهور الهجرية الشمسية) فى المسجد الحرام، أشرقت الشمس من فوقه، وعلى قمته ميلٌ من حجر منتصب، يقال: إن إبراهيم عليه السلام نصبه. والعرصة التى أمام الجبل تشكّل موقع المدينة، وهى على مرمى سهمين ليس إلّا، ويقع المسجد الحرام وسط هذه العرصة. وتحيط المدينة بالمسجد الحرام من كلّصوب بأزقّتها وأسواقها.

وكلّ شَقّ فى داخل الجبل يشكّل باباً، وقد بنى له جدار وقلعة، وعليها بوابة.

ولا يوجد فى المدينة أى شجرة سوى واحدة على باب المسجد الحرام، تقع بجهة المغرب. وبجهة المشرق من المسجد يوجد سوق كبير يمتدّ من الجنوب إلى الشمال. ويعلو جبل أبو قبيس على الطرف الجنوبى للسوق. وتقع عند قاعدة أبو قبيس (الصفا)، وقد جعلوا فى قاعدة الجبل مدرجات كبيرة، بحيثصُفّت أحجارها بالتسلسل؛ ليقف الناس على أعتابها ويشتغلوا بالدعاء. وفى نهاية السوق، من جهة الشمال جبل (مروة) وهو عالٍ قليلًا فى وسط المدينة، وقد بنوا منازل كثيرة عليه، فيسعى الناس فى السوق من أقصاه إلى أقصاه، وما يُقال عن الصفا والمروة هو هذا.

ص: ١٢٨

وللّذى ينوى العمرة، إذا أقبل من مكان بعيد، وكان على مسافة نصف فرسخ من مكّة، فأينما وجد الأميال منصوبة، ورأى المساجد، أحرم من هناك للعمرة.

والإحرام هو أن ينزع عنه الثياب المخاطة ويشدّ إزاراً على ظهره، ويلفّ آخر على بدنه ويهتف بصوتٍ عالٍ: «لبّيك اللّهم لبّيك...» ويتّجهصوب مكّة.

وأما المقيم بمكّة ممّن نوى العمرة، إذا وصل إلى تلك الأميال فعليه الإحرام، ويصيح لبّيك، ثم يأتى إلى مكّة بنيّة العمرة، وإذا وصل إلى المدينة أتى المسجد الحرام، واقترب من بيت اللّه، ويطوف من اليمين، فيكون البيت على يساره: ويصل إلى الركن الذى فيه الحجر الأسود فيقبّله، ويعدّى الحجر، ويطوف حتى يصل مرّة اخرى إلى الحجر ويقبّله فيكون هذا شوطاً واحداً ويكرّره سبع مرّات. ثلاث منها فى حالة الهرولة، والأربعة الباقية بتوءدة. وإذا فرغ من الطواف، يذهب إلى مقام إبراهيم عليه السلام فى مقابل البيت، ويقف وراء المقام، فيكون بينه وبين البيت. ويُصلّى عنده ركعتين يقال لها:صلاة الطواف. وبعد ذلك يأتى إلى بئر زمزم، ويشرب منه الماء، أو يمسح به على وجهه، وبعدها يخرج من المسجد الحرام إلى باب الصفا- وهو أحد أبواب المسجد، فإذا خرج منه لقيه جبل الصفا- فيقف على أعتاب جبل الصفا، ويستقبل البيت، ويدعو بالدعاء المعلوم. وبعد قراءته الدعاء، ينزل منه، ويذهب نحو المروة عن طريق السوق، بحيث يكون اتجاهه من الجنوب إلى الشمال، وعندما يمرّ بهذا السوق يدور حول أبواب المسجد الحرام، وداخل السوق- وفى المكان الذى سعى فيه رسول اللّه، عليه الصلاة والسلام، وهرول وآخرون كذلك هرولوا- يهرول خمسين خطوة.

يوجد على طرفى هذا الموضع- موضع الهرولة-، أربع منارات، فيأتى الناس من جبل الصفا، وعندما يتوسطون هاتين المنارتين، يهرولون من هناك، حتى يصلوا إلى المنارتين الأخريين، الواقعتين فى الطرف الآخر من السوق؛ ليمشوا بعدها بتمهّل، حتى جبل مروة، وحينما كانوا يَصلون إلى الأعتاب يصعدون عليها،

ص: ١٢٩

ويـدعون بـذلك الـدعاء المعلوم، ويعودون أدراجهم. ومرّة اخرى يـدخلون إلى هذا السوق. فعندما يسـعون أربع مرات من الصـفا إلى المروة، وثلاث مرات من المروة فإنهم بذلك يقطعون السوق سبع مرات، وينزلون من جبل المروة على سوقٍ فيه عشرون دكاناً متقابلة، وفيه حجّامون، وهم منتظرون ليحلقوا الرؤوس. وعندما تنتهى العمرة، يخرجون من الحرم، إلى هذا السوق الكبير الواقع بجهة المشـرق، والذى يُدعى بسوق العطّارين: وفيه أبنية جميلة، وكلّهم بائعوا عقاقير.

يوجـد فى مكّـة حمّامان. أرضـيّتهما من الحجر الأخضـر، وهو الحجر الـذى تُسنّ به السـكاكين. ولقـد خمّنتُ أن عـدد سـكان مكّـة لا يتجاوز ألفى رجل من الحضـر، والبقيـة الذين يقدّرون بخمسـمائة رجل هم من الغرباء والمجاورين. وفى ذلك الزمان، كان القحط قد ضرب المدينة، وكانت قيمة ١۶ مَنّاً من الحنطة، ديناراً مغربياً واحداً مما دفع أهل مكة للخروج منها.

توجـد داخـل مدينـة مكّـة منـازل كبيرة خاصـة لمسـافرى بلاـد خُراسان، وما وراء النهر، والعراق وغيره، ولكن كانت فى معظمها خَرِبة ومُهدّمة. وقد شـيّد خلفاء بغداد هناك أبنية عديدة وجميلة. وفى ذلك الزمان الذى وصـلنا فيه، كان بعضـها قد هُدِّم وبعضها الآخر قد بنوا عليها الأبنية الخاصة.

آبار مكّـة كلّها مالحـة ومُرّة، إلى درجة يصـعب شـربها، ولكنهم بنوا أحواضاً ومصانع كثيرة قُدّرت كلفة كلّ منها بعشـرة آلاف دينار. حيث تمتلئ هذه الأحواض بمياه الأمطار الجارية من الوديان. وفى ذلك الوقت الذى كنّا هناك كانت خالية.

وكان أمير عدن هناك، حيث كان يُدعى ب «ابن شاد دل».

وقـد جلب ماء من السـراديب إلى مكّـة، وبـذل فى سبيل ذلك أموالًا طائلـة، وفى عرفات كانوا يأخذون من ذلك الماء لزراعتهم. وقد سخّروا الماء لتلك المنطقة.

وأنشأوا بساتين فيها، وكان قليل منه يأتى إلى مكّة، ولكن لا يصل الى المدينة

ص: ١٣٠

نفسها. وكذلك أنشأوا حوضاً؛ يتجمّع الماء فيه، فيأخذ منه السقّاؤون؛ لبيعه فى المدينة.

وعلى مسافة نصف فرسخ من طريق برقة، يوجد مسجدٌ جميلٌ يضمّ بئراً يقال له بئر الزاهد، وماء ذلك البئر عذبٌ، ولهذا يذهب السُقاة إلى هناك ويحملون الماء ليبيعوه فى المدينة.

إن المناخ فى مكة قائض. ووجدت هناك الخيار والأترج والباذنجان الطازج، حيث كان الوقت أواخر شهر بهمن. وهذه هى المرة الرابعة التى أزور بها مكّة، وقد جاورتها من غرّة رجب سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة وحتى العشرين من شهر ذى الحجة.

فى الخامس عشر من شهر فروردين كان العنب قد نضج، وقد شحنوه من الأرياف إلى المدينة، لبيعه فى الأسواق. وفى أوائل شهر ارديبهشت، وصلت كمّيات كبيرة من البطيخ إلى هنا، وكان الشتاء هناك يحمل معه مختلف أنواع الفاكهة، ولم تخلُ الأسواق منها أبداً.

قلنا فى وصفنا للمسجد الحرام والكعبة المشرفة: إنّ الكعبة تتوسط المسجد الحرام، والمسجد يتوسط مكّة، أما جدار المسجد فمنحنٍ وأركانه مائلة وهو أقرب إلى الدائرة، لتكون الصلاة فيه، ومن جميع الجهات، باستقبال القبلة. ويبلغ طول المسجد الذى يبدأ من المشرق الى المغرب أى من باب إبراهيم عليه السلام وانتهاءً بباب بنى هاشم (٤٢٤) أرشاً، وعرضه من باب الندوة، من جهة الشمال، وحتى باب الصفا، فى الجنوب، فى أوسع نقاطه، يكون بحدود (٣٠٤) أرشات. وبسبب شكله الدائرى، فهو يحتوى على أماكن واسعة واخرى ضيّقة.

وتحيط بالمسجد من جميع أطرافه، ثلاثة أروقة مغطاة ومحمولة على أعمدة من رُخام، وتشكل هذه الأعمدة خمسة وأربعين قوساً تحيط بساحة المسجد، وعرضها كان ثلاثة وعشرين قوساً، أما عدد الأعمدة الرخامية فهو مائة وأربعة

ص: ۱۳۱

وثمانون عموداً. وقيل: إنّ جميع هذه الأعمدة، قد جيء بها من الشام بطريق البحر وذلك بأمرٍ من خلفاء بغداد. وقيل كذلك: إنّ الأعمدة التي يُراد وصولها إلى مكّة، قد انقطعت الحبال التي كانت تُربط بالسفينة التي تحملها وبالعجلات، فتمّ بيعها بستّين ألف دينارٍ مغربياً. وأحد تلك الأعمدة، هو ذلك المنصوب على باب الندوة، وهو عمود رخامي أحمر، وقد ابتاعوه بثقله من الدنانير، وكان وزن العمود الواحد حوالي ثلاثة آلاف مَنّ.

للمسجد الحرام ثمانية عشر باباً، بُنيت كلّها على شكل أقواس، على أعمدة من رُخام.

وتوجد في جهة المشرق، أربعة أبواب: باب النّبي في الزاوية الشمالية وهو مربوط بثلاثة أقواس، وعلى هذه الجهة وفي الزاوية الجنوبية، يوجد باب آخر، وهو أيضاً يسمى بباب النبيّ، والمسافة بين هذين البابين تزيد على مئة أرش.

وهذا الباب مربوط بقوسين، وعندما تخرج من هذا الباب يصادفك سوق العطّارين، حيث كان منزل رسول اللَّه- عليه السلام- في ذلك الزقاق. ويرد إلى الصلاة في المسجد من خلال هذا الباب.

ويلي هذا الباب، على الجدار الشرقي، باب علي عليه السلام وهو الباب الذي كان أمير المؤمنين علي عليه السلام يَرِدُ منه لأداء الصلاة. وهو مربوط بثلاثة أقواس، وبعد أن تُعدّى هذا الباب، توجد منارة اخرى على زاوية المسجد، وهي تقع على أول السعي، فيجب الهرولة من هذه المنارة، التي هي باب بني هاشم، وهذه هي إحدى المنارات الأربع.

ويوجد على الجدار الجنوبي، الذي يشكّل طول المسجد، سبعة أبواب:

الأول يقع في الركن- وقد جُعل على شكل نصف دائرة- ويسمى بباب الدقاقين، ومربوط بقوسين، وإذا اتّجهت قليلًا نحو جهة الغرب، تجد باباً آخر وقد ربط بقوسين، يدعى بباب الفسانين. وإذا تابعت السير قليلًا سيصادفك باب الصفا، قد

ص: ١٣٢

ربط بخمسة أقواس. وأكبر هذه الأقواس، القوس الأوسط، وعلى كلّ جانب، قوسانصغيران، وكان رسول اللَّه- عليه السلام- يخرج من هذا الباب ليصل إلى الصفا ويدعو فيه. وعتبة هذا القوس الأوسط تتألف من حجر أبيض عظيم، وآخر أسود حيث كان رسول اللَّه- عليه الصلاة والسلام- يضع قدمه المباركة عليه. وقد طُبع أثر قدمه الشريفة عليه، وقد اقْتُطِع ذلك الجزء الذى يحمل الأثر المبارك من الحجر الأسود المذكور، ورُكّبَ على الحجر الأبيض، وأنّ رؤوس أصابع القدم تتجه داخل المسجد. وكان بعض الحجاج يمرّغ وجههُ على ذلك الأثر تبرّكاً، والبعض الآخر يرتَئى وضع قدمه عليه، أمّا أنا، فأعتبرُ وضع وجهى على الأثر أدعى.

ونذهب من باب الصفا قليلًا باتجاه المغرب، ليواجهنا باب الطوى وقد ربط بقوسين، ونتابع السير قليلًا فنصل إلى باب التمارين، وقد ربط بقوسين، وعندما نتجاوز الباب المذكور نجد باب المعامل وهو كذلك مربوط بقوسين. ويقابله دار أبى جهل، التى تحولت الآن إلى دورة مياه.

وهناك ثلاثة أبواب على الجدار الغربى، والذى يشكّل عرض المسجد.

الأول: فى الزاوية المطلّة على الجنوب، وهو يحتوى على عروة ومربوط بقوسين، وفى وسط هذا الضلع، يوجد باب إبراهيم عليه السلام بثلاثة أقواس.

وأمّا على الجدار الشمالى، الذى يشكّل طول المسجد، فهناك أربعة أبواب، ففى الزاوية الغربية يوجد الباب الوسيط بقوس واحد، وعندما تتركه متجهاًصوب المشرق، يلاقيك باب العجلة بقوس واحد. وعندما نستمر فى السير نحو أواسط الضلع الشمالى، يواجهنا باب الندوة بقوسين، ويليه باب المشاورة بقوسٍ واحد. وعندما تصل إلى زاوية المسجد، فى الجهة الشمالية الشرقية، يلاقيك باب يُقال له باب بنى شيبة.

وتتوسط الكعبة ساحة المسجد، وهى مربعة الشكل طولانية، وطولها من

ص: ١٣٣

الشمال إلى الجنوب ثلاثون أرشاً، وعرضها من المشرق إلى المغرب ستة عشر أرشاً.

وباب الكعبة هو باتجاه المشرق، وعند الدخول إلى الكعبة المشرفة يكون الركن العراقى على اليمين، وركن الحجر الأسود على اليسار، والركن الغربى الجنوبى يقال له بالركن اليمانى. والركن الشمالى الغربى هو الركن الشامى. والحجر الأسود موجود على زاوية الجدار وقد رُكّب داخل حجر كبير، ومكان الحجر يصل الصدر شخص يقف منتصباً، وأما ارتفاعه فهو بمقدار كفّ وأربعة أصابع وعرضه ثمانية أصابع. وشكله مدوّر، والفاصلة بين الحجر الأسود وباب الكعبة هى أربعة أرشات. وتدعى هذه الفاصلة بالملتزم. وتعلو باب الكعبة عن الأرض بأكثر من أربعة أرشات، وإذا وقف رجل على الأرض، وانتصب بقامته فسيصل برأسه إلى العتبة. وقدصُنع سلّمٌ من خشب يُوضع أمام الباب عند الحاجة؛ ليصعد عليه مَنْ يريد دخول البيت، وهو من الوُسع بحيث يمكن لعشرة أشخاص ملتصقين من الجوانب الصعود والنزول عليه. وأما أرض الكعبة فهى بالارتفاع الذى ذُكر آنفاً.

وصف باب الكعبة: باب مصنوع من الخشب الساج، ويحتوى على مصراعين، وارتفاع الباب ٦/٥ أرش، وعرض كلّ مصراع ذراع واحدة وثلاثة أرباع الذراع، فى حين أن عرض المصراعين هو ٣/٥ ذراع، وهناك على الباب كتابات، وعلى مستوى واحد، وجرى تنقيرها على شكل دوائر وكتابات منقوشة من الذهب والفضة.

وقد كتبت هذه الآية عليها حتى آخرها: إنّ أوّل بيتٍ وُضع للناس للّذى ببكّة...، ووضُعت حلقتان فضيّتان كبيرتان أُرسلتا من غزنين، على مصراعى الباب. لا تصل اليد إليهما.

وهناك حلقتان فضيتان اخريانصغيرتان، وضعتا كذلك على مصراعى الباب، وهما فى متناول اليد، وهناك قفل فضّى كبير يوضع على الحلقتين السفليّتين

ص: ١٣٤

فتغلق بذلك الباب. وما لم يُرفع القفل لا ينفتح الباب أبداً.

وصف داخل الكعبة:

يبلغ عرض الحائط، أى ثُخنه، ستة أشبار. وأرضية البيت هى من الرخام الأبيض، وتوجد فى البيت ثلاث خلوات شبيهة بالدكاكين، إحداها أمام الباب، والاخريان على الجانب والشمال. والأعمدة المنصوبة تحت السقف فى داخل البيت هى من الخشب، مقلّمة من أطراف أربعة، ومصنوعة من خشب الساج، عدا عمود واحد مدوّر. وفى جهة الشمال يوجد سرير رخامى أحمر طويل افترش الأرض، حيث يُقال: إنّ رسول اللَّه- عليه الصلاة والسلام-صلّى عليه، ولذلك يسعى للصلاة عليه كلّ من يراه.

وجدران البيت مغطّاة كلّها بصفائح من الرخام الملوّن. وهناك على الجانب الغربى، توجد ستة محاريب مصنوعة من فضة وذهب؛ وقد خيطت على الجدار بالمسامير، وارتفاع كلّ واحدة منها بمقدار قامة رجل، كما أنها مرتفعة عن الأرض. وقد ارتفع أيضاً جدار البيت ۴ أرشات من الأرض. وعلاوة على هذا، فالجدار مبنيّ من الرخام حتى السقف. وقد نُقرت عليه النقوش. والجدران الأربعة مطلية بالذهب فى معظمها.

أمّا فى الخلوات الثلاث التى مرّ ذكرها سابقاً، الموجودة إحداها فى الركن العراقى، والثانية فى الركن الشامى، والثالثة فى الركن اليمانى، ففى كلٍّ من هذه الأركان، يوجد لوحان خشبيان خيطا على الجدار بمسامير فضية، وهى الألواح المتبقية من سفينة نوح عليه السلام وطولّ كل لوحة خمسة أذرع، وعرضها ذراع واحد.

وقد أُسدل على زاوية الحجر الأسود من داخل البيت الديباج الأحمر، وفى جهة اليمين عند الخروج من باب البيت، حيث زاوية من البيت وقد قسمت الى أربع جهات، بمقدار ٣ أذرع* ٣ أذرع، وفى هذا المكان يوجد سلّمٌ يؤدى الى سطح البيت، وقد وضع عليه بابٌ فضيّ، يسمّى باب الرحمة. وعلى الباب قفلٌ فضّى.

ص: ١٣٥

وإذا كنتَ على السطح وجدتَ هناك باباً كباب السطح، غُطّى سطحا الباب بالفضة.

أما سطح البيت فقد غُطّى بالخشب، الذى غطّى هو الآخر بالديباج، بحيث لا يُشاهد أى أثر للخشب، وعلى جدار واجهة البيت، أعلى الخشب، خيطت كتابات مذهّبة، وقد كُتب اسم سلطان مصر العزيز لدين اللّه على هذه القطعة، أيام استيلائه على مكّة، وإخراجها من سلطة الخلفاء العباسيّين. وهناك أربع ألواح فضّية كبيرة اخرى متقابلة، خيطت كذلك على حائط البيت بمسامير من فضة، ونُقش على كلّ منها اسم أحد سلاطين مصر، حيث بعث كلّ منهم لوحاً من هذه الألواح أيام ملكه.

وعُلّقت بين الأعمدة ثلاث قناديل فضية، وقد غُطّى البيت من الخارج برخام يمانى كالبلور، وللبيت أربع نوافذ تقع فى الزوايا الأربع، وعلى كل نافذة، وُضع لوح زجاجى لإنارة البيت، وليحول دون نفوذ مياه الأمطار إلى الداخل.

وميزاب البيت هو فى جهة الشمال، فى الوسط تماماً، وبطول ثلاثة أذرع، وقد نُقشت عليه كتابات ذهبية. وحُلّة البيت كانت بيضاء، وكانت مطرّزة فى موضعين، وكلّ طراز بعرض ذراع واحد، والفاصلة بين الطرازين حوالى عشرة أذرع، وتفصل نفس هذه المسافة من أعلى وأسفل الطرازين، حيث ينقسم ارتفاع البيت بواسطة هذين الطرازين إلى ثلاثة أقسام، وكلّ قسم بطول عشرة أذرع. وعلى الأوجه الأربعة للحلّة، حِيكَت محاريب ملونة ونقشت عليها خيوط من ذهب، ويوجد على كل جدار محاريب ثلاثة: واحدٌ كبير فى الوسط، وعلى جانبيه اثنانصغيران، فيكون بذلك عدد المحاريب المنقوشة على جدران البيت اثنى عشر محراباً.

حِجر إسماعيل:

خارج البيت، فى الجهة الشمالية منه، بُنى جدار بمقدار ذراع واحد ونصف

ص: ١٣٦

الذراع، ويقترب طرفا الجدار من البيت، بحيث يكون مقوّساً، على شكل نصف دائرة، وتبعد نقطة الوسط لهذا الجدار عن جدار البيت بحوالى خمسة عشر ذراعاً، وقد جُعل جدار وأرض هذا الموضع من نفس رخام البيت وبمقدار خمسة عشر ذراعاً، وهو من الرخام الملوّن والمنقوش. وهذا الموضع يقال له حِجر. ويفرغ الميزاب الماء المتجمع على سطح البيت فى هذا الحِجر. ووُضعت تحت الميزاب لوحة حجرية خضراء، على شكل محراب؛ ليتساقط ماء الميزاب عليه، ومساحتها بمقدار يستطيع شخص واحد الصلاة عليها.

مقام إبراهيم:

وهو من البيت، يقع فى جهة المشرق، ويحمل أثر قدمى إبراهيم عليه السلام، وقد وضع على حَجر آخر، وجُعل له غطاء خشبى ذو أربعة أطراف يكون بمقدار قامة إنسان، وقد أُنجز بأروع شكل، ويحمل طبولًا فضّية. وهذا الغطاء مربوط من الجانبين إلى أحجار ضخمة بواسطة سلاسل، ووضع عليها قفلان، حتى لا تمسّها يد، والمسافة بين المقام والبيت هى ثلاثون أرشاً.

بئر زمزم:

وهى من الكعبة المشرفة، وتقع فى جهة المشرق، فى زاوية الحجر الأسود، وتبعد عن البيت ستة وأربعين أرشاً. ووسع فوهة البئر ٥/ ٣* ٥/ ٣ ذراع وماؤها مالح، ولكن يمكن شربه، وقد بنوا على فوهة البئر حُجرة من ألواح الرخام الأبيض، ارتفاعها أرشان، ووضعوا خزانات على أربع جهات، ليصبّوا فيها الماء، حتى يتوضّأ الناس منها، وقدصُمِّمَت أرضيّة بيت زمزم بشكل مشبّك وهى من الخشب، لجذب الماء المسكوب بسرعة.

وباب هذا البيت (زمزم) متّجه نحو المشرق، ويقابله من جهة المشرق، بيت آخر مربع الشكل، يحوى قبّة، يُعرف بسقاية الحاجّ. وُضعت فى داخله جِرار ليستقى منها الحجّاج، وعلى مشرق سقاية الحاج أيضاً يوجد بيت آخر طويل،

ص: ١٣٧

يحوى ثلاث قُبب، يُدعى بخزانة الزيت، فى داخله شموع وزيت وقناديل.

وغُرزت حول الكعبة أعمدة، وعلى رأس كلّ زوج منها وضع خشب، أجريت عليها أعمال النقارة والنقش، وعُلّقت عليها حلقات وكلّابات ليعلّقوا عليها فى المساء، المصابيح والقناديل، ويُطلق عليها اسم المشاعل. وبين جدار الكعبة وهذه المشاعل المذكورة، حوالى مائة وخمسين ذراعاً، وهو مكان الطواف.

والبيوت الموجودة فى ساحة المسجد الحرام عدا الكعبة المعظمة- شرّفها اللّه تعالى- هى:

زمزم.

سقاية الحاج.

خزانة الزيت.

وتحت الغطاء الذى يحيط بالمسجد بجانب الجدار، توجدصناديق، كلّ منها مختصّة ببلدان المغرب، مصر، الشام، الروم، العراقين، خراسان وماوراء النهر وغيرها.

وعلى مسافة أربعة فراسخ إلى الشمال من مكّة، هناك منطقة يُقال لها برقة، وهى مقرّ أمير مكّة مع جنده، وتحتوى على الماء الجارى والأشجار، ويبلغ طولها فرسخين، ويبلغ نحواً من ذلك عرضها.

وفى هذه السنة، جاورتُ مكّة من أوّل شهر رجب، وقد جرت عادتهم على فتح باب الكعبة فى شهر رجب كلّ يوم عند مطلع الشمس.

وصف فتح باب الكعبة- شرّفها اللّه تعالى-:

إن مفاتيح الكعبة المشرّفة عند قبيلة من العرب يقال لها «بنو شيبة»، ويقوم على خدمتها زعيمهم. وهو يستلم من سلطان مصر المشاهرة (الراتب الشهرى) وخلعة. وهو الزعيم الذى بيده المفاتيح، وإذا حضر رافقه خمسة أو ستة أشخاص، فإذا وصل الزعيم مع مرافقيه، ذهب عشرة أشخاص، وحملوا السُلّم- الذى مرّ ذكره- وجاؤوا به إلى الكعبة ووضعوه أمام الباب، فيصعد عليه ذلك الشيخ

ص: ١٣٨

الزعيم، ويقف على العتبـة، ويصـعد اثنان آخران حتى يرفعا عن الباب الحلّة والديباج. فيمسك أحدهما أحد الطرفين، ويمسك الثانى بالطرف الآخر، كأنهم أرادوا أن يلبسوا الزعيم لبّادة وهو يفتـح الباب، فيفتـح القفل وينزع الحلقـة منها، وفى هذه الأثناء يقف عند باب الكعبـة جمع من الحجيـج يرفعون أيـديهم مبتهلين عنـد فتـح الباب، وعندما يتعاليصوت الحجيج يعلم كلّ الحاضـرين فى مكّة أن باب البيت قـد فُتـح، فيهمّ الجميع بالابتهال والـدعاء بصوت عالٍ، فتدوّى الأصوات المنادية دويّاً عظيماً فى أنحاء مكّة، وعندها يدخل ذلك الشـيخ إلى داخل البيت، فيُصـلّى فيه ركعتين، حيث لا يزال الشـخصان حاملين حلّة الكعبة. ثم يرجع الشيخ ويترك باب الكعبة مفتوحاً على مصـراعيه، ويقـف على العتبـة ليخطب بالنـاس- بصوت جهور- فيُصـلّى على رسول اللّه- عليه الصـلاة والسـلام- وعلى أهـل بيته. عنـدها يقـف ذلـك الشـيخ ومُرافقوه على جـانبى بـاب الكعبـة فيُمسـكون بالحـاجّ ويُـدخلونه الى الكعبـة، فيُصـلّى الحجيـج ركعـتين، ويخرجون، ويستـمرّون على ذلك حتى ينتصف النهار، فيؤدّون الصـلاة فى البيت تجاه باب الكعبة وإن جاز أداؤها إلى ساير الجوانب. ولقد أحصيت عدد الناس الذين دخلوا البيت بحيث لم يبق متّسع لأحد يدخل، فكانوا سبعمائة وعشرين رجلًا.

إنّ حجـاج اليمن عنـدما يـأتون إلى الحـج، يفعلون كما يفعل الهنود، حيث يلفّون مئزراً على ظهورهم، ويُسـدلون شـعرهم، ويضـفرون لحاهم، متحزّمين بخناجرهم القطيفية، كالهنود، ويُقال إن أصل الهنود من اليمن.

وتُفتح باب الكعبة خلال أشهر شعبان ورمضان وشوال، وأيّام الاثنين والخميس والجمعة، وتُغلق بحلول شهر ذى القعدة.

عمرة جعرانة:

على بعد أربعة فراسخ الى الشـمال من مكّة، هناك منطقة تسمى جُعرانة، فمن هذا المكان أحرم المصطفيصلى الله عليه و آله مع جيشه يوم السادس عشر من ذى القعدة، وجاء

ص: ١٣٩

إلى مكّة لأداء العمرة. ويحتوى هذا المكان على بئرين: الأولى يُقال لها: بئر الرسول، والثانية: بئر على بن أبى طالب-صلوات اللّه عليهما- وماء البئرين عذب فرات، وتفصلهما عن بعضهما عشرة أذرع، ولا تزال تلك السُنّة قائمة، حيث يعتمر الناس من ذلك الموسم. وبالقرب من تلك الآبار يقع جبلٌ تكثر فيه حُفرٌ حجرية تشبه الجِفان أو الأحواض الصغيرة، ويُقال: إنّ النبيّصلى الله عليه و آله كان يَعجن الطحين بيديه الشريفتين فى تلك الحُفر. وكذا يفعل الناس الذين يذهبون إلى هناك حيث يقومون بعجن الطحين من ماء تلك الآبار.

وتوجد فى هذه المنطقة أشجار كثيرة، يأخذون حطبها ليطبخوا عليه خبزهم فيحملوه معهم ليوزّعوه بعد ذلك تبرّكاً. وهناك توجدصخرة كبيره حيث وقف عليها بلال الحبشى ليؤذّن للصلاة، فلهذا يصعد بعض الناس عليها ليؤذّنوا للصلاة. وفى الوقت الذى كنت هناك، كان الحشد عظيماً، حيث زاد عدد الإبل العِمارية على الألف، واللّه أعلم بعددها بعد ذلك.

عرفات:

كانت المسافة فى الطريق الذى سلكته من مصر الى مكّة هذه المرّة، حوالى ثلاثمائة فرسخ، ومن مكّة إلى اليمن كانت اثنى عشر فرسخاً، وصحراء عرفات تبدو وكأنها ضائعة بين الجبال، كالتلال الصغيرة، ووسعها بمقدار فرسخين فى فرسخين. وهناك مسجدٌ فى هذه الصحراء بناه إبراهيم عليه السلام ولكن لم يبق منه غير منبر خَرِب من الآجر، وعندما يحين وقت الصلاة، يصعد عليه الخطيب، ويُلقى خطبته، ثمّ يُؤذّن للصلاة، وتُؤدّى ركعتا الصلاة جماعةً وقصراً كصلاة المسافر.

والجميع فى هذا الوقت يؤدّون ركعتين اخريين من الصلاة جماعةً، ثم يركب الخطيب على البعير ويتجه نحو المشرق.

جبل الرحمة:

وعلى بُعد فرسخ من هناك، يوجد جبلصغير وحجرى يُقال له: جبل

ص: ۱۴۰

الرحمهٔ، هناك يقف الحجيج ويبتهلون حتى غروب الشمس.

وابن شاد دل أمير عدن، الذى جلب الماء من أماكن بعيدهٔ، وصرف أموالًا طائلهٔ من أجل هذا كما ذكرنا سابقاً، كان قد جلب الماء من هذا الجبل وذهب به إليصحراء عرفات. وقد أنشأ هناك الأحواض التى تملأ بالماء أثناء موسم الحج ليستقى منه الحاج. وابن شاد دل هذا، قد أنشأ غرفةً عظيمةً على جبل الرحمهٔ، وفى أيام عرفات توقد المصابيح والشموع، وتوضع على قبهٔ هذا البناء حتى يمكن للقادم رؤيتها على مسافهٔ فرسخين.

ويقال: إنّ أمير مكّهٔ قد تلقّى مبلغ ألف دينار من أمير عدن مقابل السماح له بإنشاء ذلك البناء!!...

المشعر الحرام:

فى التاسع من شهر ذى الحجهٔ من سنهٔ اثنتين وأربعين وأربعمائهٔ هجريهٔ، أدّيت مناسك الحج بفضل اللّه سبحانه وتعالى، وللمرّهٔ الرابعهٔ. وقد رجع الخطيب والحجيج من عرفات عند غروب الشمس، وقطعوا فرسخاً واحداً حتى وصلوا إلى المشعر الحرام، ويسمى هذا المكان بالمزدلفهٔ، وهو بناء جيد، يشبه المقصورهٔ، ليؤدّى فيه الناس الصلاهٔ، ويأخذوا منه الحصى التى سيرمون بها الجمرات فى منى، وجرت العادهٔ على أن يقضوا ليلهٔ العيد هناك، ثمّ يؤدّواصلاهٔ الصبح، وبطلوع الشمس يتحركون إلى منى، ليرمى الحجاج الجمرات ويذبحوا أضاحيهم هناك. كما يوجد هناك مسجد كبير يسمى مسجد الخيف. وليست العادهٔ أن تقامصلاهٔ العيد والخطبهٔ بمنى، ولم يأمر المصطفيصلى الله عليه و آله بهذا. فاليوم العاشر يكونون بمنى ويرمون الحصى، وشرح ذلك قد ورد فى مناسك الحج. وفى الثانى عشر من الشهر، كلّ من عزم على العودهٔ، يعود من هنا، وأمّا المقيمون بمكّهٔ، فيعودون أدراجهم إليها (۱).

---

۱ – ۱ فقرات منقولهٔ، عن رحلهٔ ناصر خسرو بتصحيح نادر وزين پور حيث أوردت معلومات عن التعريف بالكتاب. فى كتابهٔ هذه المقالهٔ، إضافهٔ للمصادر أعلاه، فقد تمّ الاستفادهٔ من هذين الكتابين: مع قافلهٔ الحُلّهٔ: مجموعهٔ النقد الأدبى، لعبد الحسين زرين كوب، طهران، علمى، ۱۳۷۰ آواره يمگانص ۱۰۱– ۸۵. لقاء مع أهل العلم: حول العشرين كتاب للنثر الفارسى، لغلامحسين يوسفى طهران، علمى، ۱۳۶۷ سيرى در آفاقص ۸۶– ۵۳.

ص: ۱۴۱

مختاراتٌ شعرية

ص: ۱۴۲

مختاراتٌ شعرية

رفعوا الأكفَّ وأرسلوا الدعواتِ وتجرّدوا للَّهِ فى عرفاتِ

شُعْثاً تُجَلِّلُهُمْ سحائبُ رحمةٍ غُبْراً يفيضُ النورُ فى القَسَمات

وكَأَنَّ أجنحةَ الملائكِ عانقَتْ أرواحَهم بالبرّ والطاعات

فتنزلت بين الضلوع سكينة علوية موصولة النفحات

وتصاعدت أنفاسهم مشبوبةً وجْدا يسيلُ بِوَاكِفِ العبراتِ

هذى ضيوفُك يا إلهى تبتغى عفواً وترجو سابغَ البركات

غصّتْ بهم فى حلِّهِمْ ورحيلهم رحبُ الوهاد وواسعُ الفلوات

تركوا وراء ظهورهم دنيا الورى وأتَوْكَ فى شوق وفى إخبات

وفدوا إلى أبواب جودك خُشَّعاً وتزاحموا فى مهبط الرحمات

فاقبل إله العرش كلّ ضراعةٍ وامح الذنوب وكَفِّر الزلَّات

***

وتلفَّت الأقصى وبين جفونه دمعٌ وبين ضلوعه نيرانُ

ص: ۱۴۳

وتلفَّت الأقصى لمكَّة لوعةً أختاه! تنهش أضلعي الغربانُ

أختاه! أين المسلمون وحشدهم أين الملايين الغثاةُ! أهانوا؟

أختاه! وانقطعت حبال ندائه واغرورقت من دمعه الأجفانُ

وهوت معاول كي تدقَّ حياضه وهوت على أمجاده الجدرانُ

القبلتان مرابعٌ موصولةٌ درجت على ساحاتها الفتيانُ

القبلتان يموج بينهما الهدى نوراً ويخشع عنده الإنسانُ

القبلتان وكلُّ رابيةٍ لها حرمٌ وكلُّ شعابه أكنانُ

يهدى الحمام إلى الشِّعاف هديله ويردُّ جنحيه رضىً وأمانُ

ويضمُّ بينهما ظلال نبوَّةٍ والصَّالحين فطاب منه مكانُ

والكعبة الغرَّاء بين حجيجها نورٌ وتحت ظلاله ركبانُ

تتقطَّع الأيَّام من أحداثها وحجيجها متواصلٌ ريَّانُ

ص: ۱۴۴

يسعى وما ظمأ به، وبهاجر ظمأ الرُّبى ورضيعها ظمآنُ
أجرى لها الرَّحمن زَمزم آيَةً فَابتَلَّت السَّاحَات والأزمانُ
وجرى بكلِّ عروقها منه هوىً وصفت على جنباتها الغدرانُ
أمقام إبراهيم والبيت العتيق هدىً وآياتٌ له وبيانُ
الطَّائفون الرَّاكعون لربِّهم خفقت قلوبهم وضجَّ لسانُ
تتزاحم الأقدام في ساحاته وترفُّ بين ظلَاله الأَبدَانُ
ومتَصدى ربواتها التَّوحيد والتكبير والإخبات والإذعانُ
عرفات ساحاتٌ تضجُّ ورحمةٌ تغشى ودمعٌ بينها هتَّانُ
لبَّيك يا اللَّه! وانطلقت بها رسلٌ وفوَّحت الرُّبى وجنانُ لبَّيك والدُّنياصدَى والأفق يرجعها ندىً يبتلُّ منه جنانُ
لبَّيك وحدك لَاشَريكَ لَكَ الرِّضَا وَالخير منكَ ببَابكَ الإحسَانُ

ص: ۱۴۵

لَبَّيك، والتفت الفؤاد ودارت العينان وانفلتت لها الأشجانُ

دقَّت قوارعها الدِّيار فزُلزلت تحت الخطى الأرباض والأركانُ

جمعت مراميه البلاد فمشرقٌ غافٍ وغربٌ لفَّه النِّسيانُ

أين الحجيج! وكلُّ قلبٍ ضارعٍ ومشارف الدُّنيا له آذانُ

نزعوا عن السَّاحات وانطلقت بهم سبلٌ وفرَّق جمعهم بلدانُ

وطوتهم الدُّنيا بكلِّ ضجيجها وهوىً يمزِّق شملهم وهوانُ

ومضى الحجيج كأنَّه ما ضمَّهم عرفات أو حرمٌ له ومكانُ

بالأمس كم لبَّوا على ساحاته بالأمس كم طافوا هناك وعانوا

عرفات ساحاتٌ يموت بها الصَّدى وتغيب خلف بطاحه الألوانُ

لم يبق فی عرفات إلَّادمعةٌ سقطت فبكَّت حولها الوديانُ

هی دمعة الإسلام يلمع حولها أملٌ وتهرق بينها الأحزانُ

ص: ۱۴۶

يا أمَّةَ القرآن دارك حلوةٌ ما طوَّفت ذكرى وهاج حنانُ فى مدح الرسولصلى الله عليه و آله

عبدالحسين الحويزى

جلّ فى الذكر للنبىّ ثناء ما حوت بعض وصفه الأنبياء

فهم نسبة لعلياء أرض وهو فى مجده الرفيع سماء

وهو روح الهدى وهم منه جسم نشطت للهدى به الأعضاء

وهو قطب للكائنات عليه قد اديرت من العلى أرحاء

وهو بحر بكلّ علم محيط راشح منه فى الخليقة ماء

قطرة من علومه تغرق الأر ض ومن بعضها يضيق الفضاء عرجت للسما له ذات قدس نشأت عن وجودها الأشياء

تلك ذات تجرّدت وصفات أنفذت آدماً لها أسماء

كونت قبل خلقه الكون نوراً وبمشكاته تجلى الضياء

ص: ۱۴۷

حلّ من بارئ السما قاب قوسين غداة انتهت به العلياء

حيث لم يدر أين حلّ سوى اللّه ومنه له أتاه النداء

قائلًا أنت خاتم الرسل جمعاً وعليهم لك استقل الولاء

أين للرسل من علاه مقام فيه للروح مهبط وارتقاء؟!

علة للوجود عائبة الصنع بها يصنع القضا ما يشاء

والمقادير طوع أمر يديه ينبريصرفها ويجرى القضاء

سله اللّه مرهفاً ذا غرارٍ فلّ حد الآجال منه مضاء

واولو العزم تحت ظل علاه خافق للعلى عليهم لواء

أفضل الأنبياء علماً وحلماً وبه للهدى أتت أنباء

وله حلت النبوة جيداً فصلت من عقوده الجوزاء

وتجلّت له الرسالة تاجاً قد تحلى به علًا وبهاء

ص: ۱۴۸

ذاك خير الأنام بطناً وظهراً مَن اليه يعزى الندى والسخاء

واحد ماله من المجد ثانٍ لم يخب منه بالطلاب الرجاء

قدصفا بينه وبين على مثل هارون الكليم أخاه

نفس هذا ونفس ذاك قديماً بالمعالى والكرامات سواء

هو وابناه والبتول وطه ضمّهم باليقين ذاك الكساء

خمسة كان سادساً لهم الروح بهم يعرف الهدى والعماء وبهم ينزل السماء فتحيا الأرض فيه وتكشف الغماء

فهم الداء للقلوب اللواتى لم يفد للرشاد فيها الدواء

أولياء الإله يبدو ولاهم حيث أعداؤه لهم أعداء

بدل السيئات عن حسنات حبهم حيث طعمه الكيمياء

بهم باهل النبىُّ النصارى فأبان الحق المبين انجلاء

ص: ۱۴۹

آل بیت قد أذهب اللَّه عنهم کلّ رجس رجالهم والنساء
کم نجت فیهم عوالم قدماً حین حلّ القضا وعمّ البلاء
وبیوم الجزا لکلّ محب منهم رحمهٔ یفیض الجزاء
ومن الکوثر الزلال یروون قلوباً تلوب وهی ضماء
عصمهٔ فی الوجود یأوی إلیهم کلّ من انزلت به الضراء
کلّ شیء یفنی وهم لاله الخلق وجه به یدوم البقاء
فالمثانی بهم مدی الدهر سبعاً ملؤها مدحهٔ لهم وثناء
هم لوجه الإله نور تجلی تمّ فی رشدها فما له اطفاء
وهموا للوری أئمهٔ حقّ علماء فی عصرهم حکماء
عن فیوض الاله ینهل منهم کرم هل سواهموا کرماء
قد أضاؤا کالزاهرات وجوهاً غیر بدع فأمّهم زهراء

ص: ۱۵۰

يا حماة الهدى بكلّ زمان ولبارى السما هم الأولياء

يكشف الضر باسمهم فى البرايا حين تدعوا ويستجاب الدعاء

يا بنى الوحى رحمة اللَّه أنتم وبكم منه تمت الآلاء

أقعس اللَّه امّة جهلتكم ولكم عزة سمت قعساء شرعة الدين فى الوجود تبدت فيكم فهى بالسنا غرّاء

فعليكم من الإلهصلاة ما دعت فى أليفها الورقاء

الحجّ عبر الحضارات والامم

ص: ۱۵۱

الحجّ عبر الحضارات والامم

ماجدة المؤمن

قد يعتقد بعض الناس أنّ الحجّ أمرٌ أو حالة تقتصر على الدين الإسلامى والمسلمين فقط، وبالكيفية التى فصّلتها كتب الفقه المستمدّة من الكتاب الكريم والسُنّة الشريفة.

ولكنّ المتتبع للحضارات القديمة والديانات السماوية والوضعية يجد أنّ الحج ركن دينى أساسى، مارسته الحضارات المختلفة، وألِفَته الأديان السماوية والوضعية بشكل مشابه بعض الشىء للحج الإسلامى.

ولعلَّ الكشوفات الأثرية الحديثة والتطوّر فى المعارف والثقافة، والاطّلاع على الشعوب البدائية من خلال الدراسات «الإنثروبولوجية» الميدانية، لعلَّ كلّ ذلك كشف المزيد من المعلومات عن هذه الفريضة العالمية الكبيرة.

إنّ كثيراً من الهياكل والمعابد والمراكز الدينية المنتشرة فى العالم، فى بلاد وادى الرافدين وبلاد وادى النيل، وهياكل العبادة فى كثير من المدن والبلدان هى فى الحقيقة كانت مراكز أساسية للحج، يأتونها الزائرون قاصدين إليها لأداء أعمال

ص: ۱۵۲

وأفعال وممارسات وطقوس محدّدة يعرفها المنتسبون لتلك الديانات.. يأتون فی وقت محدّد وعلی جماعات، أَليس ذلک هو الحج؟ إنّ الحج وإن اختلف بین حضارة وحضارة ودین ودین، یبقی مرجعه ومحوره النموذجی هو الحج الذی فرضه اللَّه تعالی علی عباده.

والمحور النموذجی والمرجع الحقیقی لکل حج فی تاریخ الإنسان هو حج الأنبیاء والرسل وحج إبراهیم علیه السلام الذی دعا الناس بأمرٍ من اللَّه تعالی لأوّل بیت مقدّس علی وجه الأرض، إلی أوّل بیت من بیوت اللَّه جُعل للهدایة ولغفران الذنوب، وهو بیت اللَّه العتیق فی مکّة المکرّمة، قال تعالی: إنّ أوّل بیت وضع للناس للذی ببکّة مبارکاً وهدًی للعالمین (۱)

.

أی: جعل هذا البیت لجمیع الناس، ولجمیع الأدیان، منذ خلقه اللَّه تعالی حتّی یقوم الحساب، ولم یخصّصه لفئة معیّنة أو لدین معیّن؛ لأنّ الدعوة إلی الدین، مصدرها الواحد الأحد لا غیر، فالخالق واحد، والدعوة إلی الهدی فی جمیع الأدیان السماویة التوحیدیة واحدة أیضاً، ولا یمکن أن یفرق بین عباده، بأن یجعل لأحدهم بیتاً مبارکاً ذا رحمة وخیر وبرکة، ولا یجعل للآخرین مثله، وقوله تعالی: وضع للناس و هدًی للعالمین یدل علی ذلک المعنی.

لکنّ الناس عبر المسیرة البشریة حرّفت الأدیان والتعالیم السماویة، والکتب المنزلة، کصحف إبراهیم علیه السلام، وتوراة موسی علیه السلام، وإنجیل عیسی علیه السلام، وزبور داود علیه السلام، إلی ما تشتهی الأنفس ویمیل الهوی عندهم اتخذوا دینهم لعباً ولهواً وغرّتهم الحیاة الدنیا (۲)

، وابتعدوا تماماً عن الدین، إلّامن هدی اللَّه تعالی منهم، قال تعالی:

ولقد بعثنا فی کلّ امّةٍ رسولًا أن اعبدوا اللَّه واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدی اللَّه ومنهم من حقّت علیه الضلالة (۳)

.

فلما ابتعد أکثر الناس عن الدین الحنیف- دین اللَّه- عبدوا الأصنام،

۱- ۱ آل عمران: ۹۶.

۲- ۲ الأنعام: ۷۰.

۳- ۳ النحل: ۳۶.

ص: ۱۵۳

وتعدّدت الآلهة، وصُنفت إلى إله الشمس وإله القمر وإله الخير وإله الشر...، وقدّسوا ظواهر الطبيعة من أشجار وغابات وجبال وأنهار وكواكب ووديان وأفلاك. وبعضهم الآخر قدّس قبور الموتى وحيوانات معيّنة...

وجعلوا منها أماكن ومراكز يزورونها في أوقات معيّنة وأكثرها زيارات الأعياد؛ لتكون زيارة جماعية موقتة بزمن ومكان، وإذا اجتمعت هذه الثنائية كوّنت حجّاً!.

الحج في حضارة وادي النيل

اشتهرت أرض مصر الفرعونية بالهياكل، والمقابر الضخمة كالاهرامات، وبتعدّد الآلهة إلّافي زمن اخناتون الموحِّد للآلهة.

فالهياكل انتشرت في أنحاء مصر القديمة وأشهرها «الكَرْنَك» و «الأُقصُر» و «إدْفُو» و «دَنْدارة». وهذه الهياكل بعضها محفور في شاهقصخري كمعبد «أبي سِنْبل» في بلاد النوبة، الذي هو أشهر الهياكل وقيل أقدمها، وله أهمية كبيرة في نفوس المصريين القدماء، وحين تولّى رمسيس الثاني عرش مصر نحته في الصخر الحيّ وأتمّ بناءه (۱).

واعتقد المصريون بآلهة كثيرة، ولكنّهم آثروا عبادة اثنين كان لهم السبق على جميع الآلهة الاخرى، أحدهما (أوزيريس) الذي لم يقهره الموت، والآخر هو الشمس التي تبهر البصر بضيائها في سماء مصر الصافية، هذا هو الإله «رع» الذي كان أعظم الآلهة المصرية كإله للأحياء، والذي أقام المصريون لعبادته أفخم معابدهم. ولم يكن الهرم إلّارمزاً مقدّساً له (۲).

وكانت الهياكل على شكلٍ كبير من الضخامة؛ لتليق بالآلهة- كما يعتقدون- كمعبد «الكرنك» الذي يبلغ طوله حوالي (۱۰۰) متر تقريباً. والتصميم المعتمد هو

۱- ۱ انظر قصّة الحضارة، ول ديورانت، مج ۱، ج ۲. وكتاب الحضارات:ص ۲۶- ۲۷، وكذلك موسوعة المورد: ۱/ ۳۰.

۲- ۲ انتصار الحضارة، جيمس هنري برستر، ترجمة د. أحمد فخري:ص ۹۴، الجامعة العربية.

ص: ۱۵۴

نفسه تقريباً فی كلّ الهياكل. وأقسامه الأساسية هی: بُرجان ضخمان عند المدخل، وأمام كلّ من البرجين تنتصب مِسَلّة حجرية وسارية ترفرف عليها أعلام. وفی بعض المعابد يحيط بالمدخلصفّان من تماثيل «أبی الهول» (۱) وفی نهاية المدخل بوّابة تؤدی إلی باحة محاطة بالأعمدة، وفی نهاية الباحة «بهو الأعمدة» الذی لا يدخله إلّاالكهنة والمتنفّذون. ويلی «بهو الأعمدة» حجرة سرّية تحيط بها مقصورات تعجّ بالنفائس، وفی وسطها المركب المقدّس. بينما تمثال الإله يوضع فی فناء المعبد (۲).

ثمصار الآلهة فی آخر الأمر بشراً- أو بعبارة أصحّ أصبح البشر آلهة، ولم يكن آلهة مصر من الآدميين إلّارجالًا متفوّقين أو نساء متفوّقات خُلقوا فيصورة عظيمة باسلة (۳). فقد ألَّهوا (أزوريس) الذی أصبح قبره فيما بعد محجّةً لهم وللأجيال بعدهم. ويذكر لنا التاريخ أنّ المصريين القدماء كانوا يعتقدون أنّ آلهتهم تجتمع فی معبد «أوزيرس» بمدينة «أبيدوس» فی عيد هذا المعبود، فكانوا يحجّون إليه بهذه المناسبة، ولمدينة أبيدوس تاريخ دينی وسياسی مرموق، ففيها دُفن أقدم ملوك مصر، وإليها انتقلت عبادة «أوزوريس» وفی المكان المعروف اليوم «بأم العقاب» جعل المصريون قبره، وعُدت أبيدوس كعبة يطوفون بها حول قبر الشهيد «أزوريس» الذيصار لديهم (إمام الموتی) والشهداء، لا يدخلون الجنّة إلّامن بابه، ويبنون لهم فيها مزارات...» (۴).

ولهذا الشهيد اسطورة تحكيها لنا الكتابات المسجلة علی جدران المعبد باللغة «الهيروغليفية». ولأهمية هذه الاسطورة الخرافية فی معتقداتهم بحيث يصبح قبر بطلها كعبة يُحج إليها كلّ عام، ويُقدّم لها كل غالٍ ونفيس، تقول الاسطورة: «إنّه فی قديم الزمان كان يحكم هذه البلاد ملك اسمه "جب "وكان له ولدان من الذكور واثنتان من الإناث. وزوّج الملك ابنه أوزوريس من اخته ايزيس، كما زوج ابنه

۱- ۱ أبی الهول: تمثال رأسه علی شكل إنسان، ووجهه كالفرعون خفرع يرقی تاريخه إلی حوالی ۲۲۵۰ ق. م.

۲- ۲ كتاب الحضارات، لبيب عبدالساتر:ص ۲۷.

۳- ۳ قصّة الحضارة، مصدر سابق:ص ۱۵۹.

۴- ۴ راجع الموسوعة العربية الميسّرة، مصدر سابق:ص ۱۵۹.

ص: ۱۵۵

ست من أخته تفتيس.. ولأنّ أوزوريس كان طيب القلب عادلًا ملَّكه أبوه الوديان الخضر والسهول والأنهار. أما ست الذى كان شرّيراً حاقداً فقد ملّكه أبوه أرض الصحارى القاحلة والرمال القفر. وكان أوزوريس موسيقياً بارعاً أحبّهُ الناس، فحقد عليه أخوه ست، وتآمر مع آخرين حتيصنعصندوقاً من الذهب الخالص بحجم أوزوريس، وزعم فى حفل أقامه أنّه يهديه لمن يتسع له..

فأقام مأدبة واستلقى فيه كثيرٌ حتى استلقى الأخ، فأمر ست بإغلاق الغطاء وإلقائه فى النيل. وراحت الأمواج تتقاذف الصندوق.. ووظّفت زوجته الوفية، ما لديها من علوم السحر، حتّى عرفت محلّه الذى استقر فيه الصندوق. فركبت سفينة انطلقت بها.. وتحايلت على ملك ببلوس الذى احتفظ بالصندوق، وكشفت له عن شخصيتها، وأماطت اللثام عن سيّدها، فسمح لها باسترداد الصندوق. وإذ حلَّ عليها المساء، نامت فوق الصندوق الذى فيه زوجها، فجاءتها الرؤيا وهى نائمة بأنّها حملت من روح زوجها، وعندما عادت إلى مصر اختفت ومعها الصندوق فى جزيرة فيلة خوفاً عليه من (ست). وظلّت مختفيةً حتى ولدت «حورس». وعثر (ست) على الصندوق، وقطّع جثة أوزوريس إلى (۱۶) قطعة بعثرها فى جميع مقاطعات مصر، وفتشت الزوجة الوفية فعثرت عليها إلّاالقدم اليمنى.. وكانت هذه القدم تجلب الخير والخصب والطمى؛ لتنمو ربوع مصر بالخير والفيضان للنيل، ومنذ تلك اللحظةصار أوزوريس ملكاً للموتى يتولى حسابهم فى الآخرة، وأصبح ابنه «حورس» من بعد هو الإله.. ونُصب له تمثال برأس الصقر الذهبى..» (۱).

۱- ۱ انظر قصة الحضارة، مصدر سابق:ص ۱۵۹- ۱۶۷. وانتصار الحضارة، مصدر سابق:ص ۹۳- ۹۴. ومجلة العربى، استطلاع: سليمان مظهر:ص ۱۴۲- ۱۴۳ منهم من اختصر القصّة ومنهم من فصّلها.

ص: ۱۵۶

كعبة الفراعنة

معبد «أبى سنبل» وفيه قبر «إمام الموتى والشهداء!» أوزوريس

ص: ۱۵۷

الحجّ فی حضارة وادی الرافدین

أمّا فی حضارة ما بین النهرین- السومریة والبابلیة والأکدیة والآشوریة- التی استمرّت ثلاثة آلاف عام، کان (الإله آنو) علی رأس (البانتیون)، وکانت الآلهة تخرج بملابس محمولة بشرف علی أکتاف الکهنة، فی أعیاد رأس السنة، وبمراسم خاصّة وطقوس خاصّة، وکانت لها أهمّیة ذات حدّین، وقد یقوم الإله بزیارة طقسیة إلی معبودات اخری بمناسبة الأعیاد الکبیرة، لذا فإنّ (نابو) فی بورسیا یزور بانتظام والده مردوخ فی عید رأس السنة الجدیدة فی بابل (۱).

وتعدّدت الآلهة فی وادی الرافدین بتعدّد المدن والدویلات، وحصر السومریون آلهتهم فی مجموعتین: الثالوث الأوّل ویتألّف من «آنو» إله السماء «وأنلیل» إله الأرض، و «إیا» إله المیاه الجوفیة، فجمعوا بذلک بین عناصر المادّة الثلاثة: السائل والهواء والجماد. والثالوث الثانی یتألّف من «شَمَشْ» إله الشمس، و «سین» إله القمر، و «أدَدْ» الذی یجمع کلّ عناصر الطبیعة. وأدَدْ هذا أدخله «الاکدیون» معهم من بلاد «أمورّو». وأضافت کلّ دولة إلهاً خاصّاً بها مثل «مردوخ» و «آشور» و «عشتار» و «نَبُو» (۲).

وأهم الأبنیة الدینیة عندهم هی المعابد والمقابر: وعُرفت المعابد باسم «الزقورة» أقدمها ما بناه السومریون، وأشهرها «برج بابل» حیث عُبد الإله «نَبُو» (۳).

وکان لکلّ مدینة مهمّة- فی بلاد ما بین النهرین- معبد مهم، وفی کلّ معبد برج شامخ یسمّونَهُ «زقورة» شکله مربّع فی المعابد المربعة، ومستدیر فی المعابد البیضویة، تراقب منه الکواکب والنجوم. نظراً لما لعلم الفلک من أهمّیة وتأثیر فی الحیاة الیومیة والدینیة، وکانوا یعلنون من خلاله بدایة رأس السنة الجدیدة، لیعلنوا بدایات الطقوس الدینیة السنویة لزوّار الزقورة فی المعبد. وقد کشفت التنقیبات الحدیثة عن زقورات عدیدة منها زقورة اورک ونیبور وآشور وخورس

۱- ۱ انظر عظمة بابل، د. هاری ساکز، ترجمة د. عامر إبراهیم:ص ۴۱۲.

۲- ۲ الحضارات، لبیب عبد الساتر،ص ۴۲.

۳- ۳ المصدر السابق،ص ۴۶ وقصّة الحضارة: مج ۱/ ج ۲، الباب التاسع بابل.

ص: ۱۵۸

ونمرود وماری وغیرها، وكانت هذه أماكن مهمّة (للحج) فی أعیاد رأس السنة المعروفة عندهم آنذاك علی ما یبدو..

«ویشیر لنزن H. Lenzen، وهو حُجة فی موضوع الزقورة، ویؤكد أن المعبد العالی– أعلی الزقورة– لم یكن مجرّد مكان لاستراحة المعبود، بل أن طقساً حقیقیاً كان یتمّ إجراؤه هناك. ولذا فقد كانت الزقورة بهذا المعنی «مذبحاً عظیماً» وفی داخل المعبد، قریباً من قاعدة الزقورة، كانت غُرفة الإله الرئیس، وعدد من المصلیات الصغیرة بالنسبة للمعبودات المرتبطة به، علی حین یوجد خارج هذا الهیكل الرئیسی ساحة كبیرة حیث تجتمع العامّة فی أوقات الأعیاد» (۱).

یبدو من كلّ ذلك ومن الطقوس والمراسیم والرحلات الجماعیة إلی الزقورة (۲)ومع ما یصطحبها من ذبح وقرابین وأعمال خاصة من النحور وبعض المراسم الطقسیة السنویة. أنّها– الزقورات– أماكن حج لتلك الأقوام.. وبالطبع هو حج وضعی غیر إلهی واضح من آلهتهم المتعدّدة وعبادتهم للآلهة البشر.

والجدیر بالذكر أنّ حضارة وادی الرافدین الطویلة فی الزمن وفی التاریخ، لابد من أن تكون هناك أماكن اخری محلیة قصدها الزوّار؛ لغرض أداء طقوس معیّنة وشكلیات منظمة یمكن أن تحسّها أنواعاً من حجّهم.. ولعل السبب فی عدم العثور علی تلك الحقائق هو طبیعة البناء عندهم، حیث كان ذا أساس طینی ممّا لم تبقِ الفیضانات له شیئاً عبر الزمن. وهذا خلاف طبیعة البناء المصری القدیم الذی غالباً ما یكون بناءصخریاً یحافظ علیه مناخ مصر الجاف آلافاً من السنین.

وهناك مذهب دینی فی حضارة وادی الرافدین یرجع تاریخه إلی عهدٍ قدیم، وهو مذهب الصابئة، یدّعی أصحابه: «أنّ معلمیهم الأوّلین هما النبیان الفیلسوفان عاذیمون (أی الروح الطیب) وهرمس، وقد قیل: إنّ عاذیمون هو شیث (۳) الابن الثالث لآدم علیه السلام، وإنّ هرمس هو النبی إدریس علیه السلام (۴). وكان أورفیوس أیضاً من فلاسفتهم وأنبیائهم» (۵).

۱– ۱ عظمة بابل، مصدر سابق:ص ۴۱۰.

۲– ۲ الزقورة: برج هرمی متعدّد الطبقات، یعتبر بمثابةصرح دینی نموذجی علی ما یصفه د. هنری س. عبودی فیمعجم الحضارات السامیة. والزقورة تبدو فی الصورة أعلاه كالكعبة وسط الحرم. فالزقورة وسط المعبد تحیطها ساحة كبیرة لاستیعاب الحجاج فی موسم رأس السنة.

۳– ۳ شیث: وتعنی هبة اللّه، وهو الجد الثالث لإدریس علیه السلام، وقد حكم فی الناس بعد أبیه آدم علیه السلام واستشرعصحفهوما أنزل علیه فی خاصته من الأسفار والأشراع.

۴– ۴ إدریس: تزعم الصابئة أنّه هرمس، ومعنی هرمس عطارد. وقد أنزل اللّه تعالی علیه ثلاثینصحیفة، وكان قد نزّل قبل ذلك علی آدم، إحدی وعشرینصحیفة، وأنزل علی شیث تسعاً وعشرینصحیفة فیها تهلیل وتسبیح.

۵– ۵ انظر: دائرة المعارف الإسلامیة، مجموعة من المستشرقین: مج ۱۴/ص ۸۹. وكتاب الملل والنحل للشهرستانی:ص ۴۷.

ص: ۱۵۹

وكانت هذه الفئة تسكن مدينة حرّان الواقعة فى الجنوب الشرقى من تركيا الحالية «وهى بين طريق الموصل والشام» (۱).

وحرّان: مدينة قديمة جدّاً تقع قرب منابع نهر البليخ بين الرها ورأس عين، وقد اشتهرت بأنّها موطن إبراهيم عليه السلام ولابان، ولكن شهرتها ترجع بصفة خاصة إلى أنّها (قصبة الصابئة) وموئل دينهم (۲). واشتهرت فى التاريخ أنّها مقر عبادة (سن) إله القمر الذى زيّن معبده أكثر من ملك من ملوك الآشوريين، ولم تتغيّر الأحوال فى المدينة على أثر انهيار سلطان الكلدانيين وقيام دولة الفرس (۳).

وكانت مركزاً هامّاً فى طريق التجارة من نينوى إلى قرقميش، وكانت مركزاً لعبادة إله القمر الآشورى (۴).

وحرّان المدينة المقدّسة عند الصابئة، ومقصد حجّهم حيث معبدهم مقر «سن» إله القمر، «وفئة من الصابئة تحج إلى حاران- أو حرّان- التى هاجر إليها

۱- ۱ معجم البلدان، ياقوت الحموى، باب الحاء والراء.

۲- ۲ انظر دائرة المعارف الإسلامية: مج ۷/ص ۳۵۴.

۳- ۳ انظر المصدر السابق:ص ۳۵۵.

۴- ۴ الموسوعة العربية الميسّرة، مصدر سابق:ص ۶۹۵.

ص: ۱۶۰

إبراهيم علیه السلام، وینسب إلیها الصابئة الحرّانیون» (۱).

والصابئة فرق متعدّدة، رغم قلّتهم، فمنهم من ینتمی إلی کاظم بن تارح، وقد ذکرهم المقریزی بین الفرق المختلفة، وکأنّهم یقابلون دین إبراهیم علیه السلام بدین أخ له ینتمی إلی تارح، أبی إبراهیم فی روایة العهد القدیم (۲).

ویقال: إنّ الحرّانیین ینتمون إلی حاران أو هادان أخی إبراهیم علیه السلام وقد یکون هو نفسه المقصود (کاظم) ولا دلیل لنا علی ذلک.

وقد ذکر أبو ریحان البیرونی فی الآثار الباقیة: «أنّ أوّل المذکورین من الصابئة: یعنی المتنبئین یوذاسف، وقد ظهر عند مضی سنة من ملک طمهورث بأرض الهند، وأتی بالکتابة الفارسیة، ودعا إلی ملّة الصابئین فاتبعه خلق کثیر، وکانت الملوک البیشدادیة وبعض الکیانیة ممّن کان یستوطن بلخ، یعظّمون النیرین والکواکب وکلیات العناصر، ویقدّسونها إلی وقت ظهور زرادشت عند مضی ثلاثین سنة من ملک بشتاسف، وبقایا أولئک الصابئین (بحرّان) یُنسبون إلی موضعهم، فیقال لهم: الحرانیة وقد قیل: إنّها نسبة إلی هاران بن ترخ أخی إبراهیم علیه السلام وأنّه کان من بین رؤوسائهم أوغلهم فی الدین وأشدّهم تمسّکاً به» (۳).

والصابئة الحرّانیون لهم أقوال وآراء فی إبراهیم الخلیل علیه السلام یندی لها الجبین، نذکر هنا ما ینسبونه إلیه علیه السلام فی خروجه عن دینهم: «إنّ إبراهیم علیه السلام إنّما خرج عن جملتهم؛ لأنّه خرج فی قلفته برص، وإنّ من کان به ذلک فهو نجس لا یخالطونه، فقطع قلفته بذلک السبب یعنی (اختتن) (۴)، ودخل إلی بیت من بیوت الأصنام، فسمعصوتاً منصنم یقول له: یا إبراهیم خرجت من عندنا بعیب واحد، وجئتنا بعیبین، اخرج ولا تعاود المجیء إلینا، فحمله الغیظ علی أن جعلها جُذاذاً، وخرج من جملتهم، ثم إنّه ندم بعدما فعله، وأراد ذبح ابنه لکوکب المشتریصدق توبته ففداه بکبش» (۵).

وهناک فرقة اخری من فرق الصابئة تسمّی (المندیا) (۶) أو الصبوة، وهی

۱- ۱ إبراهیم أبو الأنبیاء، العقّاد:ص ۸۹.

۲- ۲ المصدر السابق:ص ۹۰.

۳- ۳ المیزان فی تفسیر القرآن، العلّامة الطباطبائی: ۱/ ۱۹۴.

۴- ۴ مذهب الصابئة یحرّم الاختتان ویعتبر المختتن خارجاً عن الدین.

۵- ۵ المیزان، مصدر سابق: ۱/ ۱۹۴.

۶- ۶ المندیا: فرقة من الصابئة وتسمّی نصاری یوحنا المعمدان.

ص: ۱۶۱

فرقة يهودية نصرانية تمارس شعيرة التعميد فى العراق» (۱).

وهناك فرق اخر، أفرد الشهرستانى لهم ولشرح أقوالهم فصلًا مسهباً غاية الإسهاب فى كتابه الملل والنحل.

ومن الصابئة من يعظّم بيت اللّه الحرام والكعبة الشريفة ويحج إليها كلّ عام، وجاء فى الأحاديث الشريفة، أن أنواعاً من الحج تعدّدت فى الجزيرة العربية قبل الإسلام، وكان أهمّها الحج الجاهلى والحج الحنفى والحج الصابئى.

وتدّعى هذه الفرقة من الصابئة أنّ الكعبة وأصنامها كانت لهم، وعبدتها كانوا من جملتهم وأنّ اللّات كان باسم زحل، والعزى باسم الزهرة» (۲).

«والمشهور عن الصابئة أنّهم يوقّرون الكعبة فى مكّة، ويعتقدون أنّها من بناء هرمس أى إدريس عليه السلام وأنّها بيت زحل أعلى الكواكب السيّارة، ويُنقل عنهم عارفوهم أنّهم قرأواصفة محمّدصلى الله عليه و آله فى كتبهم ويسمّونه عندهم ملك العرب» (۳).

وقد ذكرهم القرآن الكريم فى ثلاثة مواضع فقط، فى سورة البقرة، الآية ۶۲.

وفى سورة المائدة، الآية ۶۹، وفى سورة الحج الآية ۱۷.

والصابئة دين خليط يشبه الجميع فى بعض شرائعه، ويختلف مع الجميع فى بعض شرائعه الاخرى (۴).

۱- ۱ دائرة المعارف الإسلامية: مج ۱۴/ص ۸۹.

۲- ۲ الميزان، مصدر سابق.

۳- ۳ إبراهيم أبو الأنبياء، العقّاد:ص ۹۱.

۴- ۴ إبراهيم أبو الأنبياء، العقّاد:ص ۸۷- ۹۰.

ص: ۱۶۲

الحجّ فی الحضارة الفارسیة القدیمة

وفی الحضارة الفارسیة القدیمة طقوس ورسوم وعقائد وأفکار یطول تعدادها لو أردنا الدخول إلیها، ولکن لنأخذ مقطعاً من تأریخها ولیکن الدیانة الزرداشتیة؛ لأنّها أشهر دیانة وأعظم تعالیم تمسّک بها الفرس منذ «القرن العاشر أو السادس قبل المیلاد» (۱) حتی یومنا هذا توجد بقایا من أتباعه فی مدینة یزد الإیرانیة وفی الهند.

والذین یدینون بالزرداشتیة یعرفون أن تعالیمها تأتی من خمسة کتب مقدّسة ادّعی بها نبیّهم «زرادشت» (۲) أنّها من وحی الإله الواحد أهورا- مزدا إله النور والسماء.

ومن بین هذه الکتب المقدّسة کتاب «الیاسنا» الذی یهتم بالشعائر والطقوس، ویمکننا أن نلتقط من هذه الشعائر والطقوس ما یمکن أن یمثّل شکلًا من أشکال الحج، حیث الزیارات السنویة المقدّسة إلی المعابد فی الأعیاد الدینیة، وتقدیم الأضاحی والنذورات ومراسم مقدّسة أخری..

ومن تعالیم هذا الکتاب «التقوی» یقول وِل دیورانت: «ولمّا کانت التقوی أعظم الفضائل علی الإطلاق- عندهم- فإنّ أوّل ما یجب علی الإنسان فی هذه الحیاة أن یعبد اللّه بالطهر والتضحیة والصلاة. ولم تک فارس الزرادشتیة تسمح بإقامة الهیاکل أو الأصنام، بل کانوا ینشئون المذابح المقدّسة علی قمم الجبال وفی القصور أو فی قلب المدن، وکانوا یوقدون النار فوقها تکریماً لآهورا- مزدا، أو لغیره منصغار الآلهة. وکانوا یتخذون النار نفسها إلهاً یعبدونه ویسمّونها «أنار» ویعتقدون أنّها ابن إله النور.. وکانوا یقرّبون إلی الشمس، وإلی النار- التی لا تنطفئ طیلة العام- وإلی أهورا مزدا، القرابین من الأزهار والخیر، والفاکهة، والعطور، والثیران والضأن والجمال والخیل والحمیر وذکور الوعل، وکانوا فی أقدم الأزمنة یقرّبون إلیها الضحایا البشریة (۳)شأن غیرهم من الامم، ولم یکن للآلهة من هذه

۱- ۱ قصّة الحضارة، مصدر سابق: مج ۱/ ج ۲/ص ۴۲۵.

۲- ۲ زرادشت: مصلح إیرانی ظهر فی إیران قبل المسیح بمئات السنین، وله قصّة مثیرة ومؤثّرة فی نفوس أتباعه، قیل: إنّ امّه قد حملت به حملًا إلهیاً قدسیاً؛ ذلک أنّ الملاک الذی کان یرعاه تسرّب إلی نبات الهَوْما، وانتقل مع عصارته إلی جسم کاهن حین کان یقرّب القرابین المقدّسة. وفی ذلک الوقت نفسه دخل شعاع من أشعة العظمة السماویة إلیصدر فتاة راسخة النسب سامقة فی الشرف، وتزوّج الکاهن بالفتاة، وامتزج الحبیسان الملاک والشعاع، فنشأ «زرادشت» من هذا المزیج، وقهقهه حین ولادته ففرّت من حوله الأرواح الخبیثة، وأحبّ هذا الولید الحکمة والاصطلاح، ثم تجلّی له رب النور الإله الأعظم، ووضع فی یدیه الأبستاق أی کتاب العلم والحکمة، وأمره أن یعظ الناس. وهکذا ولد الدین الزردشتی. وعمَّر زرادشت طویلًا حتّی أحرقه ومیض برق، وصعد إلی السماء، انظر قصّة الحضارة: مج ۱/ ج ۲/ص ۴۲۴.

۳- ۳ کان تقدیم الضحایا البشریة قبل عهد زرادشت أی فی عهد المجوس الذی قضی علیهم زردشت.

ص: ۱۶۳

القرابين إلّارائحتها.. لأنّ الآلهة- على حدّ قول الكهنة- ليست فى حاجة إلى أكثر من روح الضحية (۱).

«وكـان الأهلون- عامّة الشعب المتدين- يجتمعون فى الأعياد وكلّهم يرتدون الملابس البيضاء. وكانت (الشريعة الأبستاقية) (۲) كالشريعتين الإبراهيمية والموسوية مليئة بمراسم التطهير والحذر من القذارة، وكان فى كتاب الزرادشتية المقدّس فقرات طويلة ممّا خصّت كلّها بشرح القواعد الواجب اتباعها لطهارة الجسد والروح» (۳).

ونفهم ممّا سبق أنّ لهم زيارات سنوية لمعابدهم يؤدّون فيها طقوساً خاصّة، ويلبسون الملابس البيضاء، ويقدّمون الضحايا ممّا يدلّ على أنّ لهم حجّاً بالمعنى اللغوى الذى فهمناه.

۱- ۱ قصّة الحضارة، مصدر سابق:ص ۴۳۳.

۲- ۲ الشريعة الابستاقية هى نفسها شريعة زرادشت وتنسب إلى كتابه المقدّس.

۳- ۳ قصّة الحضارة، مصدر سابق:ص ۴۳۹.

ص: ۱۶۴

الحجّ فی الحضارة الرومانیة

والحضارة الرومانیة کذلک عرفت الحج، ونظّمت طقوساً خاصّیة به، ممّا یتعلّق بدیانتهم، وبنت الهیاکل الکبیرة (۱) المربعة منها والمستدیرة، وقدّمت للهیاکل هدایا وأضاحی ونذورات، وعددت الآلهة، وجعلت لکلّ شیءٍ إلهاً، وتقرّبت للآلهة؛ لکسب عونها ورضاها، أو لاتقاء غضبها. وکان الکهنة یوصون الحجّاج أو زائری الهیاکل والمعابد أن یلتزموا بالدقّة فی ممارسة الطقوس والشعائر الخاصّیة فی الاحتفال فی الأعیاد السنویة وغیر السنویة، وإذا وقع خطأ فی طقس من هذه الطقوس أیّاً کان نوعه، وجبت إعادته من جدید، ولو تطلّب ذلک إعادته ثلاثین مرّة (۲).

وکان أهم ما فی هذه الطقوس، التضحیة «وفی أکبر المناسبات أهمیة عید السو أفی یلیة (Su- ove- taur- illa) أی (عید الخنزیر والشاة والثور). وکانوا یعتقدون أنّه إذا تلیتصیغ خاصة علی التضحیة استحالت إلی إله یراد منه أن یتقبلها، وعلی هذا الاعتبار کان الإله نفسه هو الذی یضحی به» (۳).

وهناک مراسم اخری فی عید التطهیر «وکان احتفال التطهیر من أکثر هذه الطقوس متعة، وکان هذا التطهیر یحدث للمحصولات الزراعیة أو لقطعات الماشیة أو للجیش أو المدینة. وکانت الطریقة المتّبعة فی هذا الاحتفال أن یطوف موکب بالشیء المراد تطهیره، ویقدّم له الصلوات والذبائح والانشودة والرقیة، ورجاء الإجابة فانّ لم یجب فإن غلطة ما قد حدثت فی الطقوس المرعیة» (۴).

وهناک مکان آخر حجّ إلیه الرومان وهو إله القمر (دیانا) «وکانت- دیانا- فی زعمهم روح شجرة جیء بها من أریشة (Aricea) حینما خضع هذا الإقلیم من أقالیم لا ینوم لحکم رومة، وکان بالقرب من أریشیا بحیرة نیمی Nemi وأیکتها، وکان فی هذه الأیکة مزار دیانا ملجأ الحجاج، الذین یعتقدون أن هذه الالهة قد ضاجعت فی هذا المکان فربیوس Virbius ملک الغابات الأوّل، ولکی یضمن دوام

۱- ۱ أعظم هیکل رومانی هو هیکل یونو المنذرة أو الحارسة علی القمّیة الشمالیة لتل الکپتول وعلی المنحدرالجنوبی من هذا التل یوجد معبد ساترن، ویرجع بناء ذلک المزار أو الهیکل- الذی هو أقدس مزارات رومة- یرجع تاریخه إلی عام ۴۹۷ ق. م. ولا زالت آثاره باقیة حتی الآن. انظر قصّة الحضارة: مج ۵/ ج ۱/ص ۲۹۳.

۲- ۲ المصدر السابق: ج ۲/ص ۱۳۳.

۳- ۳ المصدر السابق:ص ۱۳۵- ۱۳۶.

۴- ۴ المصدر نفسه.

ص: ۱۶۵

إخصاب ديانا وإخصاب الأرض كان خلفاء فريبوس- وهم كهنة الصائدة وأزواجها- يستبدل بهم جميعاً واحداً بعد واحد أى عبد قوى يعوذ نفسه بغصن (يسمى عندهم بالغصن الذهبى) يأخذه من شجرة البلوط المقدّسة إحدى أشجار الأيكة ويهاجم الملك ويذبحه. وقد بقيت هذه العادة إلى القرن الثانى بعد ميلاد المسيح» (۱).

أمّا رومة المسيحية فقد اتخذت أشكالًا أُخرى وأنواعاً من الحج سنتحدّث عنها فى (الحجّ فى الديانة المسيحية) وفى وقت آخر إن شاء اللّه تعالى.

الحجّ فى الحضارة الهندية

أمّا الهند فلا يمكن استيعابها بأسرها؛ لكثرة السكان واختلاف اللغات والأديان، فهى ليست أمّة واحدة كمصر أو بابل أو رومة، بل هى قارة بأسرها.

لقد تعدّدت الأديان فى الهند، وأخذت عقائدها الدينية ما يمثّل كل مراحل العقيدة من الوثنية البربرية إلى أدقّ وحدة فى الوجود وأكثرها روحانية منذ عام ۲۹۰۰ ق. م إلى يومنا هذا..

لقد وضع الهنود لهم أعياداً سنوية كغيرهم من الامم، وبعض هذه الأعياد يصاحبها حج إلى معبد أو ضريح أو هيكل معيّن، وممارسة بعض الطقوس والشعائر المتعلّقة به، كما وجدنا ذلك عند بقية الامم، فغالباً ما يكون الحج مصحوباً بعيد سنوى دينى.

والهنود قلّدوا ما قبلهم من الأقوام، الذين نطقوا باللغة السنسكريتية، ووضعوا الأدعية والصلاة وغيرها بتلك اللغة «فكانوا يسيرون مواكب عظيمة أو أفواجاً من الحجّاج، قاصدين الأضرحة القديمة، ولم يكونوا ليفهموا ما يُقال من عبارات الصلاة فى تلك المعابد؛ لأنّها كانت تقال «بالسنسكريتية»، لكنّهم كانوا يفهمون الأوثان، فيزينونها بالحُلى ويطلونها بالطلاء، ويرصعونها بكريم الأحجار، وكانوا أحياناً يُعاملونها كأنّها كائنات بشرية..» (۲).

۱- ۱ المصدر السابق:ص ۱۲۸.

۲- ۲ قصة الحضارة: مج ۲/ ج ۳/ص ۲۲۴- ۲۲۵.

ص: ۱۶۶

وأعظم الطقوس الجماعية عندهم هى تقديم القرابين، فالقربان عند الهندى ليس مجرّدصورة خاوية؛ لأنّه يعتقد أنّه إذا لم يقدمه للآلهة طعاماً تموت جوعاً. ولما كان الإنسان فى مرحلة أكل اللحوم البشرية، كانت القرابين فى الهند كما فى غيرها من بلاد العالم قرابين أو ضحايا بشرية.. فلمّا تقدّمت الأخلاق أخذت الآلهة تكتفى بالحيوان قرباناً (۱).

وهناك مركز رئيسى للحج عند الهنود منذ القرن ۱۶ ق. م وهو مدينة بنارس الجليلة القدر عندهم، كعبة يحجّون إليها سنوياً يقدّسها البوذيون والچين، ويقصدها سنوياً حوالى مليون حاج؛ لزيارة معابدها وأضرحتها التى تمتد ۶۵ كم بموازاة الجانج، وبها المعبد الذهبى (۲).

يقول وِل ديورانت فى شأن هذه المدينة:

«.. وبنارس هى المدينة المقدّسة للهند، إذ باتت كعبة الملايين من الحجّاج، يؤمّها الشيوخ من الرجال والعجائز من النساء جاءوا من كل أرجاء البلاد؛ ليستحموا فى النهر المقدّس (نهر الكنج) حتى يستقبلوا الموتى برآء من كل إثم أطهاراً من كلّ رجس. إنّ الإنسان ليأخذه الخشوع، بل يأخذه الفزع، حين يتذكّر أنّ أمثال هؤلاء الناس قد حجّوا إلى بنارس مدى ألفى عام، وغمسوا أنفسهم فى مياهها، وهم يرتعشون من لذعة البرد فى فجر الشتاء، وشمّوا بنفس متقززة لحم الموتى وهو يحترق، فعلوا كلّ ذلك وهم يفوهون بنفس الدعوات التى كان يقينهم أن تجاب، فعلوا ذلك قرناً بعد قرن، وتوجّهوا بالدعاء إلى نفس الآلهة التى لبثت عليصمتها، لكن عدم استجابة إله من الآلهة لا يحول دون تعلّق القلوب به، فلا تزال الهند تعتقد اليوم بنفس القوّة، التى كانت تعتقد بها فى أى عصر مضى فى الآلهة، الذين لبثوا كلّ هذا الزمن ينظرون إلى فقرها وبؤسها، فلا تأخذهم من أجلها رحمة (۳). وما زال السيخ يحجّون إلى هذا المعبد (۴).

هذا نموذج لحج الهند القديمة، وإذا تقدّمنا فى الزمن بعيداً من ذلك التاريخ..

۱- ۱ المصدر نفسه.

۲- ۲ الموسوعة العربية الميسّرة:ص ۴۰۷.

۳- ۳ قصة الرحمة: مج ۲/ ج ۳/ص ۲۲۷.

۴- ۴ انظر موسوعة المورد: مج ۵/ص ۱۱.

ص: ۱۶۷

تقدّمنا إلى الهند فى القرن الثامن الهجرى، فسنجد نوعاً آخر من الحج المنحرف ينسبه أصحابه هذه المرّة إلى الإسلام، ذلك هو الحج على المـذهب الـذِكْرى، وقـد أسّـس هذا المذهب: محمد المهدى الأتكى وضـمّن آراءه فى كتابه البرهان. وتبدأ قصّة هذا الحج كما كتبها (أحمد مولانا عبدالخالق رحمه الله) قال:

«كـان الضـال ملّا محمّـد المهـدى الأـتكى يسـكن فى البنجـاب، وانتقـل منه من موضع إلى موضع حتى وصل إلى موضع مشـهور فى بلوشسـتان المسـمّى ب (كيـج) وبـدأ يسـتفيد من جهّال هـذه المدينـة اسـتفادة باطلة، ويدّعى بأنّه «المهدى الموعود» فصار مقبولًا عند الخـاص والعـام، ولم يمر وقت طويـل حتّى كتب كتاباً ينـبئ فيه امّته المضـلة بـأنّه قـد نُسـخت الشـريعة المحمّديـة بمجيئه فى الـدنيا، واعتقادها كفر ولا يحاسب أحد يوم القيامة عن أركانها الأربعة من الصوم والصلاة والحج والزكاة» (۱).

وبهـذا الكلاـم استطاع محمـد الاـتكى أن يصـرف المسـلمين سـكّان تلـك المنطقـة عن الصوم والصـلاة والزكاة، والحـج إلى الكعبة المشـرّفة؛ وابتكر لهم حجّاً مشابهاً للحـج الاسـلامى المحمّـدى لأماكن شبيهـة بمقـدّسات مكّة المكرّمة كجبل عرفات وجبل ثور وغار حراء، وبنى لهم كعبة ليحجّوا إليها..

ويضـيف أحمـد مولانا قائلًا: «والحـجّ:- لا يحـج معتقـدو هـذا المـذهب- المذهب الذِكْرى- إلى بيت اللّه الحرام الذى أمر المسـلمون بزيـارته. والحـج فى الأشـهر الحرام به، وإنّمـا اتخـذوا جبلًا معروفاً باسم (كوه مراد) حجّاً لهم حيث يقع فى جنوب مدينـة (تربت) وهو منسوب إلى نائبه الضال (ملّا مراد) ساكن تلك المدينة، فيحجّون فى الأيام الأخيرة من شهر رمضان بدايةً من ۲۷ من رمضان ويستغرق ثلاثة أيّام» (۲).

ويضـيف أحمد مولانا أيضاً: «إنّ محمد الأتكى ادّعى أن كتابه (البرهان) (۳) أو بلغتهم (بركهور) كـان ينزل عليه فى جبل (كوه إمام) من خلال «مهبط الالهام» أو

۱- ۱ الفاروق، مجلّة إسلامية ثقافية، فصلية تصدر عن رئاسة الجامعة الفاروقية، باكستان:ص ۳۶ العدد ۵۴/ ۱۹۸۸ م.

۲- ۲ المصدر السابق:ص ۳۷.

۳- ۳ البرهان: كتاب ألّفه محمّـد الاتكى مؤسـس المـذهب الذكرى، وادّعى أنّه قرآنهم الجديد النازل عليه من السـماءوالناسخ لقرآن محمّـد بن عبداللّهصـلى الله عليه و آله. وفيه كـلّ تعـاليم المـذهب، وفيه أحـاديث عن الرسولصـلى الله عليه و آله تؤكّـد ظهـور محمد المهدى الاتكى فى القرن الثامن الهجرى.

ص: ۱۶۸

الوحی تحت الشجرهٔ، وجعل لهم هـذا الجبل (کغار حراء) ثم اتخذ لهم میداناً واسعاً کعرفهٔ، حتی إذا أرادوا الحج ذهبوا لزیارته، وهو میدان یسمّی (بکوه دن) و «کارتیزهزئی» الذی کان نهراً أو منبعاً للماء أصبح لهم بئر زمزم کما فی مکهٔ، ولکن من سوء حظّهم نضب ماؤها الآن بأفعالهم الخبیثهٔ» (۱).

والطریف أنّ معتنقوا هـذا المـذهب یؤکّدون بـأن للرسول محمّدصـلی الله علیه و آله أحـادیث تؤکّد وتبشّر بمجیء إمـامهم الموعود (محمّد المهدی) فنری الشیخ محمد قصر قندی فی نسخته القلمیهٔ یقول:

«إنّ أبا بکر الصدیق سأل رسول اللّهصلی الله علیه و آله: متی یکون خروج المهدی؟

فقالصـلی الله علیه و آله: السـلام: «فقد یجیءُ بعد مماتی فی بلاد الهند سنهٔ سبع وسبعین وتسعمائهٔ اسمه کاسمی واسم أبیه کاسم أبی» (۲).

الحج فی الصین

والصین کالهند، فهی لیست موطناً موحّداً لُامّهٔ واحدهٔ، بل هی خلیط من أجناس مختلفهٔ الأصول متباینهٔ اللغات غیر متجانسهٔ.

وقد حدّثنا المؤرِّخون بأحادیث مفصّلهٔ عن تاریخها منذ (۳۰۰۰ ق. م) حتی العصر الحدیث، عن عاداتهم، وتقالیدهم ودیاناتهم... ولو أردنـا استیعـاب ذلک بأسره لطال الحـدیث بنا، ولکن لنأخـذ نموذجاً یعطیناصورهٔ منصور حجّهم وطریقتهم فی الحـج، علماً أن أشهر هیکل حـج إلیه الصینیون کان «هیکل السماء ومـذبحه» اقتداءً بسنّهٔ الإمبراطور العظیم «تای دز ونج»: الذی کان یأتی هذا الهیکل فی الساعهٔ الثالثهٔ منصباح رأس السنهٔ الصینیهٔ للصلاهٔ والدعاء لأسرته بالتوفیق والفلاح ولشعبه بالرخاء، ویقرب القربان للسماء التی یرجو أن تکون بصـفّهِ لا فیصفّ عدوّه. وموقع هذا الهیکل بالقرب من سور «پیچنچ» التتاری الجنوبی، ویتکوّن مذبح هذا الهیکل من سلسلهٔ من الدرج والشرفات الرخامیهٔ، التی کان لعددها الکبیر ونظامها أثر سحری فی نفوس الزائرین، والهیکل نفسه

۱- ۱ الفاروق، مصدر سابق:ص ۳۷.

۲- ۲ المصدر نفسه:ص ۳۶.

ص: ۱۶۹

(بجودة) معد من ثلاث طبقات قائمة فوق ربوة من الرخام ومشيّدة من الآجر والقرميد الخاليين من الرونق. وقد نزلتصاعقة من السماء على هذا المعبد فى عام ۱۸۸۹ م فأصابتهُ بضرر بليغ (۱). وهذا الهيكل كان لعامّة الشعب أى كان معبداً عامّاً للجميع. وهناك معبد وهيكل مخصّص للديانة الرسمية، وهو الذى أمر ببنائه

هيكل السماء فى پينج

الامبراطور المذكور أعلاه «تاى دزونج»، فلمّا تربّع هذا الامبراطور العظيم على العرش أمر أن يشاد هيكل ل «كنفوشيوس» (۲) فى كلّ مدينة وقرية فى جميع أنحاء الامبراطورية، وأن يقرب لها القرابين (۳). وبنى هيكلًا خاصّاً للديانة الرسمية فى «پيكنج» والمسمى بهيكل «كنفوشيوس»، وحارسه پاى- لو، وكان فخماً محفوراً أجمل حفر..

وقد أدخلت عدّة تعديلات عليه، وأُعيد بناء بعض أجزائه عدّة مرّات، وقد وضعت لوحة روح أقدس القديسين المعلم والأب كنفوشيوس على قاعدة خشبية فى مشكاة مفتوحة فى الهيكل، ونقشت العبارة الآتية فوق المذبح الرئيسى: «إلى

۱- ۱ قصّة الحضارة: مج ۲/ ج ۴/ص ۱۸۲- ۱۸۳.

۲- ۲ كنفوشيوس: ولد عام ۵۵۱ ق. م فى مدينة تشو- فو إحدى البلاد التى كانت تكوّن وقتئذ مملكة لو، والتى تكون الآن ولاية شان توبخ. وصار فيلسوفاً، ومعلّماً محبوباً تهوى إليه القلوب، وألّف خمسة مجلّدات أسماها كتب القانون الخمسة ولما مات عن عمر ۷۲ سنة واراه تلاميذه التراب باحتفالٍ مهيب جدير بما تنطوى عليه قلوبهم من حبٍّ له وإجلال، وأحاطوا قبره بأكواخٍ لهم أقاموا فيها ثلاث سنين يبكون كما تبكى الأبناء على آبائهم. ثم بنى الامبراطور العظيم فوق قبره هيكلًا ومعبداً وأصبح مكاناً يحجّ إليه الصينيون آلاف الأعوام.

۳- ۳ قصة الحضارة: مج ۲/ ج ۴/ص ۶۶.

ص: ۱۷۰

المعلِّم الأعظم والمثال الذى تحتذيه عشرة آلاف جيل» (۱)..

ويمكن تسجيل عدد آخر من الأماكن العبادية المناسبة للحج، ولكن نكتفى بهذين النموذجين اللذين يعتبران أكثر الأماكن أهمّية وقصداً للزيارة فى تاريخ الصين.

الحجّ فى اليابان

وحين ننتقل إلى اليابان نجدها قد تأثّرت بالصين بكثير من الامور كالفلسفة والعقائد الدينية وفن بناء المعابد وغيرها.. غير أنّ معابد اليابان كانت أغنى من معابد الصين زخرفاً وأرقى نحتاً. فما يُرى فى معابد اليابان من بوّابات فخمة على طول المرتقى أو المدخل الذى يؤدّى إلى الحرم المقدّس وغيرها لا يُرى فى معابد الصين.

واعتادت فئة فى اليابان على تقديس أرواح أسلافها فحيث تلتقى عبادة أرواح الأسلاف بالطقوس البوذية (۲) فى تعايش سلمى منسجم، تقوم معابد (الشينتو)- أى معابد تقديس أرواح الأسلاف- مستقلة عند المعبد البوذى ومجاورة له وتسمّى فى لغتهم: «فوجى ياما». ولفظة فوجى تعنى «النار» (۳).

كما يؤمون المعابد البوذية فى مدينة «نارا» حيث أقسم أسلافهم القدماء هناك على تحرير وطنهم من التبعية لإمبراطور الصين، فأصبح معبدها محجّةً لهم، ولم تكن ديانة «شنتو» بحاجة إلى تفصيل مذهبى أو طقوس معقّدة أو تشريع خلقى، ولم تكن لها طبقة من الكهنة خاصة بها، كلا! ولا تذهب إلى ما يبعث العزاء فى نفوس الناس من خلود الروح ونعيم الفردوس، فكان كلّ ما تطالب به من معتنقيها أن يحجّوا آناً بعد آن لأسلافهم وأن يقدّموا لهم ضراعة الخاشعين، ويضحّوا بالقرابين ويقدّموا النذور وغيرها (۴).

ويمكن أن نعدّ فى اليابان نوعاً آخر من الحج يتعلّق بالزهور ويمكن أن نسمّيه (حج الزهور):

۱- ۱ المصدر نفسه:ص ۱۸۲.

۲- ۲ البوذية كانت تمارس فى اليابان ولكن دخلت تعاليمها عام ۵۲۲ م من الصين بتفاصيل، وكان على الرجلالياباني أن يختار لنفسه مذهباً من عدّة مذاهب فى البوذية، أو أن يختار لنفسه سبيلها فى حجصبور إلى حيث دير «كوپاسان» وهناك يبلغ الجنّة بأن يدفن فى أرض تقدّست بفضل ما فيها من عظام «كوبودايشى» ذلك العظيم فى علمه وفى تديّنه وفى فنّه.

۳- ۳ موسوعة المورد: ۴/ ۱۷۷.

۴- ۴ انظر قصّة الحضارة: مج ۳/ ج ۵/ص ۱۰- ۱۴.

ص: ۱۷۱

فالزهور عند اليابانيين بمثابة الدين، فهم يعبدونها عبادة تشيع فيها روح التضحية بالقرابين، ويلتقى فيها أفراد الشعب جميعاً، وهم يرقبون فى كلّ فصل من فصول العام ما يلائمه من زهور، فإذا ما أزهرت شجرة الكريز مدى اسبوع أو اسبوعين فى أوائل شهر ابريل، يخيل اليك أنّ أهل اليابان جميعاً قد تركوا أعمالهم ليحدجوا فيها بأبصارهم، بل ليحجّوا إلى الأماكن المقدّسة التى تزخر بهذه المعجزة، ويكمل فيها إزهار هذا الضرب من الشجر (۱).

حجّ الأنبياء والحضارات

لقد قرأنا الحج فى الحضارات فى النقاط السابقة، ولنا أن نتساءَل... أين عاش الأنبياء، أليس هم بشراً جاؤوا لإرشاد الناس، وأين كان الناس أليسوا هم أبناء الحضارات المختلفة المنتشرة فى العالم؟

۱- ۱ قصّة الحضارة، المصدر السابق:ص ۵۹.

ص: ۱۷۲

الحقيقة أنّ الأنبياء وهم كثيرون جدّاً، لابدّ من أنّهم عاشوا فى ثنايا الحضارات المختلفة يرشدون الناس، ويدلونهم على طريق اللّه الصائب، وعلى الرغم من أننا نعرف أنّ إبراهيم عليه السلام عاش فى حضارة وادى الرافدين، ويوسف وموسى عاشا فى حضارة وادى النيل، وأنبياء بنى إسرائيل عاشوا فى الحضارة الفينيقية وغيرها وآخرين فى حضارات اخرى، إلّاأننا لا نعرفهم جميعهم كما جاؤوا فى أحاديث نبيّناصلى الله عليه و آله والأئمّة الأطهار عليهم السلام أنّهم (۱۲۴) ألف نبىّ أو أكثر و (۳۰۰) رسول أو أكثر.

ولكن على أىّ حال لابدّ من أن نذكّر أنّ ما تبقى من الشعائر الصحيحة فى تلك الحضارات هى لا شك جاءت بفضل كثرة الأنبياء، الذين عاشوا فى تلك الحضارات. فقد كان الأنبياء فى كلّ الحضارات القديمة، القدوة الحقيقية لشعوبهم، بل ولكلّ العالم، وتصرّفاتهم مستمدّة من السماء لا يفعلون شيئاً شائناً مضرّاً بالناس، وإلّا لا يمكن وصفهم بالأنبياء والقدوة، فالمقتدى به يجب أن يكون أفضل الناس.. وهكذا كان الأنبياء فى كلّ مكان وزمان. ولمّا كان الحج فريضة أمر اللّه تعالى بها، فقد كانوا أولى المبادرين إليه، وكانوا أفضل من يقوم به ويؤدّى شعائره وممارسته..

فقد جاء فى الروايات عن النبىّ محمّدصلى الله عليه و آله وعن أهل بيته الكرام عليهم السلام، فى حج الأنبياء، أنّ الأنبياء والرسل مارسوا الحج جميعهم إلى بيت اللّه الحرام، ولم يتخلّف نبىٌّ واحد عن هذا المسار الربّانى السماوى.. وإليك بعض الأحاديث:

عن الحلبى: سُئِل أبو عبداللّه الصادق عليه السلام عن البيت أكان يحجُّ إليه قبل أن يبعث النبىّ محمّدصلى الله عليه و آله؟ قال: «نعم وتصديقه فى القرآن الكريم قول شعيب حين قال لموسى حيث تزوّج: على أن تأجرنى ثمانى حجج ولم يقل ثمانى سنين، وأنّ آدم ونوحاً حجّا، وسليمان بن داود قد حجَّ البيت بالجن والإنس والطير والريح، وحجّ موسى على جمل أحمر يقول: لبيك لبيك، وأنّه كما قال اللّه: إنّ أوّل بيتٍ وضع

ص: ۱۷۳

للناس للذی ببکة مبارکاً وهدًی للعالمین، وقال: وإذ یرفع إبراهیم القواعد من البیت وإسماعیل، وقال: أن طهّرا بیتی للطائفین والعاکفین والرکع السجود وأنّ اللّه أنزل الحجر لآدم وکان البیت» (۱).

وعن الإمام الرضا علیه السلام قال قائل: فَلِمَ جعل وقتها فی ذی الحجّةِ؟ قیل: لأنّ اللّه تعالی أحبَّ أن یُعبد بهذه العبادات فی أیّام التشریق، فکان أوّل ما حجّت إلیه الملائکة وطافت به فی هذا الوقت، فجعله سُنّة ووقتاً إلی یوم القیامة. فأمّا النبیّون آدم ونوح وإبراهیم وعیسی وموسی ومحمّد (صلوات اللّه علیهم) وغیرهم من الأنبیاء إنّما حجّوا فی هذا الوقت، فجُعلت سُنّة فی أولادهم إلی یوم القیامة» (۲).

وجاء فی أخبار مکة للأزرقی، قال: «ما بین الرکن إلی المقام إلی زمزم قبر تسعة وتسعین نبیّاً جاءوا حُجّاجاً فقبروا هنالک» (۳).

البیت الحرام، وجهة حج الأنبیاء

۱- ۱ بحار الأنوار: ۹۹/ ۹۴.

۲- ۲ المصدر السابق:ص ۴۳.

۳- ۳ أخبار مکّة، الأزرقی.

ص: ۱۷۴

الحجّ فی الجاهلیة

والجاهلیون فی الجزیرة العربیة ونواحیها قدّسوا البیت الحرام والکعبة الشریفة ومنی وعرفات، وطافوا ولبّوا ونحروا ورموا الجمرات وأحرموا، وکان حجّهم یبدأ فی الیوم التاسع من شهر ذی الحجّة، وعندما یصل الحجاج إلی عرفة، یرتدون لباساً خاصّاً بالحجّ، قال الجاحظ فیهم:

«کانت سیماء أهل الحرم إذا خرجوا إلی الحلِّ فی غیر الأشهر الحُرم، أن یتقلّدوا القلائد، ویُعلّقوا علیهم العلائق، فإذا أوذم أحدهم الحج، تزیّا بزیّ الحاج» (۱).

وکان الحج الإبراهیمی المحور الأساس فی الحج الجاهلی، ولم یحفظ العرب من شریعة إبراهیم علیه السلام شیئاً إلّاالحج فی مظاهره، غیر أنّهم زادوا فیه وحذفوا منه، وأدخلوا الأصنام فی الکعبة الشریفة، حتّی بلغ عددها أکثر من (۳۰۰۰)صنم، علی رأسها هُبل واللات والعزی ومناة... «.. وهم بعدُ یعظّمون الکعبة ومکّة، ویحجّون ویعتمرون، علی إرث إبراهیم وإسماعیل علیهم السلام..» (۲).

«ومنهم علی ذلک من بقایا عهد إبراهیم وإسماعیل یتنسّکون بها: من تعظیم البیت، والطواف به، والحج، والعُمرة، والوقوف علی عرفة ومزدلفة، وإهداء البُدن، والإهلال بالحج والعُمرة، مع إدخالهم فیه ما لیس منه» (۳).

وذکر القرآن الکریم حجّهم وأعمالهم عند بیت اللَّه الحرام، بأنّها مزیج من الشرک والتفاخر والتجارة والهرج والمرج، قال تعالی: وما کانصلاتُهم عند البیت إلّامُکاءً وتصدیة (۴)

ویتنسّکون عنده مناسک یسمّونها الیوم أعیاداً وموالد کشأن الجاهلیة الاولی، وکلّ ذلک لا یصیب به تشریع اللَّه.. إلّامن حمله الهوی أو الجهل أن یرکب رأسه فیقول، بغیر علم ولا بیّنة..» (۵). وقد عبّر عنهم القرآن الکریم بقوله تعالی:

إن یتّبعون إلّاالظن وما تهوی الأنفس ولقد جاءهم من ربّهم الهدی أم

۱- ۱ البیان والتبیین، الجاحظ: ۳/ ۶۵.

۲- ۲ کتاب الأصنام، الکلبی:ص ۶.

۳- ۳ المصدر نفسه.

۴- ۴ الأنفال: ۳۵.

۵- ۵ دائرة المعارف الإسلامیة، مصدر سابق، المعلق فی الحاشیة محمد حامد الفقی:ص ۳۰۵.

ص: ۱۷۵

للإنسان ما تمنّى (۱)

.

وكـان لكلّ قبيلـة من قبائل العرب فى الجاهليـة،صـنمها الخاص بها تهلل حوله حتى تصل مكّـة، وكان عبّاد كلّصـنم إذا أرادوا الحـج، انطلقوا إليه، وأهلّوا عنـده ورفعوا أصواتهم، ووقفت كلّ قبيلـة عندصـنمها وصـلّت عنده، وكانوا عند ترديد التلبية يصـفقون ويصـفرون (۲). وكانت التلبية هى: لبيك اللهم لبيك لا شريك لك! إلّا شريكٌ هو لك! تملكُهُ وما مَلَكْ! (۳).

وكان من شـعائرهم فى الطواف، أو لبعض منهم أن يطوفوا عرايا متجرّدين من كلّ ثيابهم، وهى شـعيرة وثنيـة واضـحة على الانحراف، وقد ذكر ذلك القرآن الكريم وكُتب الأحاديث والسير وكتب التاريخ.

والجـدير بالـذكر أنّ الحـج إلى «بيت اللَّه الحرام» فى زمن الجاهليـة لم يكن مقتصـراً على العرب فقط، فقـد ذكر لنا التاريخ أن الفرس وغيرهم حجّوا إليه وعظّموه وقـدّموا إليه الـذهب والفضّـة والقرابين والنـذورات وغيرها.. فقـد جاء فى مروج الذهب للمسـعودى: «وقد كانت أسلاف الفرس تقصد البيت الحرام، وتطوف به، تعظيماً له».

والمكاء: الصـفير، بصـيغة المبالغة طائر بالحجاز شديد الصفير، ومنه المثل السائر: (بنيك حمّرى ومكّئكينى) والتصدية التصفيق بضرب اليـد على اليد، والمعنى أنّ المشـركين فى الجاهلية كان حجّهم وأعمالهم عند البيت الحرام، ما هى إلّا ملعبة من المكاء والتصدية (۴). وهرجاً ومرجاً لا خشوع فيها ولا خضوع، لأنّها كانتصفيراً بالأفواه، وتصفيقاً بالأيدى (۵).

وقـد ورد عن الحـج فى الجاهليـة: «أنّه كان يقام فى الجاهلية كلّ عام سوقان فى شـهر ذى القعدة أحدهما فى عكاظ والآخر فى مجنة، وكان يتلوهما فى الأيام الاولى من ذى الحجـة سوق ذى الحجاز، ومنه يخرج الناس إلى عرفات مباشـرة.. وكان الحـج إلى عرفات يقع فى التاسع من ذى ا لحجة، وكانت شتّى قبائل العرب

۱- ۱ النجم: ۲۳.

۲- ۲ كتاب الأصنام:ص ۷.

۳- ۳ انظر أخبار مكة: ۱/ ۷۵. وتاريخ اليعقوبى: ۱/ ۲۹۶.

۴- ۴ الميزان: ۹/ ۷۴.

۵- ۵ الكاشف: مج ۳/ص ۴۷۵.

ص: ۱۷۶

تشترک فیه» (۱).

وللحج فی الجاهلیة مظاهر خاصّیة من أعمال وحرکات عابثة وأفعال لا معنى لها؛ لأنّها رموز وشعائر ومناسک مقتبسة وغیر مقتبسة وتلبیات، دون حضور قلب وهدى، بل حضور هوى وعصبیة قبلیة، ومحبّة وإخلاص للأصنام التی لا تنفع ولا تضرّ ولا تعی ولا تسمع ولا تغنی عنهم شیئاً.

«والواضح الذی لا شکّ فیه: أنّ الوثنیین قد اتخذوا بما أوحى إلیهم الشیطان، معابد وهیاکل یحجّون إلیها. لیس العرب وحدهم ولا فی القدیم فقط، بل الناس هذا شأنهم حین تغلب علیهم الجاهلیة، ویُشرعون من الدین ما لم یأذن به اللَّه. فقد أقاموا من قبور أولیائهم ومن تماثیل معظمیهم الذین غلوا فیهم، فأعطوهم الآلهیة، ما یحجّون إلیه کلّ عام ولجدّها إبراهیم علیه السلام، وتمسّکاً بهدیه، وحفظاً لأنسابها، وکان آخر من حجّ منهم ساسان بن بابک وهو جدّ أردشیر بن بابک، وهو أوّل ملوک ساسان وأبوهم الذی یرجعون إلیه... فکان ساسان إذا أتى البیت طاف به وزَمْزَمَ على بئر إسماعیل» (۲).

وقد افتخر بعض شعراء الفرس بعد ظهور الإسلام بذلک، فقال:

وما زلنا نحجُّ البیتَ قِدْما ونلقى بالأباطح آمنینا

وساسان بن بابک سار حتى أتى البیت العتیق یطوف دینا

فطاف به، وزمزم عند بئر لإسماعیل تروی الشاربینا (۳) وقال المسعودی أیضاً: «وکانت الفرس تهدی إلى الکعبة أموالًا فیصدر الزمان، وجواهر، وقد کان ساسان بن بابک هذا أهدى غزالین من ذهب و جواهر وسیوفاً وذهباً کثیراً فقذفه فی بئر زمزم» (۴).

ثم یضیف قائلًا: «وقد ذهب قوم من مصنّفی الکتب فی التواریخ وغیرها من

۱- ۱ دائرة المعارف الإسلامیة: مج ۷/ مادة الحج/ص ۳۰۴- ۳۰۵.

۲- ۲ مروج الذهب، المسعودی: ۱/ص ۲۵۴.

۳- ۳ المصدر السابق.

۴- ۴ المصدر نفسه:ص ۲۵۵.

ص: ۱۷۷

السير أن ذلك كان لجرهم حين كانت بمكّة، وجرهم لم تكن ذات مال فيضاف ذلك إليها، ويحتمل أن يكون لغيرها، واللّه أعلم» (۱).

البيت الحرام

وجهة حج الجاهلية أيضاً-

الهوامش:

۱- ۱ المصدر السابق.

ص: ۱۷۸

ص: ۱۷۹

ص: ۱۸۰

ص: ۱۸۱

مهمّات مشبوهة فی الدیار المقدّسة (۳)

ص: ١٨٢

مهمّات مشبوهة فی الديار المقدّسة (٣)

حسن السعيد

يهود ونصارى متنكّرون بثياب عربيّة.. وأسماء إسلامية!

مع تزايد قوّة أوروپا، فی القرون المتأخّرة، وضعف العالم الإسلامی..

انطلقت فی الغرب موجة من الاهتمام الظاهری بما هو عربی قادم من جزيرة العرب، وأخفی ذلك الاهتمام الحقيقی الناتج عن اعتبارات سياسية واستراتيجية.

وبدا للحظة من الزمن أنّ همّ الاوروپيين منصرف للتعرّف علی الأماكن المقدّسة بالذات، ومحاولة رصد تحصيناتها، ومعرفة طبائع السكّان وتقاليدهم، والتعرّف علی المراسيم الدينية كالحجّ، ودورها فی حياتهم (١).

وفی هذا الاتجاه، انتهينا فی الحلقتين السابقتين إلی ما خلاصته:

فی نهاية القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر، كانت قد توفّرت لدی الغربيين المعلومات الأساسية عن شبه جزيرة العرب: عن المدينتين المقدّستين، واليمن والبدو.

كما أنّ من الواضح أنّ «دی فارتيما» وحده كان، حتی هذا التاريخ، هو الرائد،

١- ١ يُراجع مقال؛ «رجال علی ظهر الرمال العربيّة» للاستاذ عبدالرحيم حسن، مجلّة العالم لندن- العدد ٢٧٦: ٢٧ آيار مايو ١٩٨٩ م- ٢٢ شوال ١٤٠٩ ه،ص ٥٠.

ص: ۱۸۳

أمّا الآخرون فلم يكونوا سوى روّاد مصادفة. ومنذ القرن الثامن عشر بدأ فى تاريخ الريادة إلى شبه جزيرة العرب ما يمكن أن يسمّى بالريادة الحقيقية، التى دشّنها شيخ الرحالة «نيبور» [۱۷۳۳– ۱۸۱۵ م] فى رحلته الاستكشافية المثيرة، التى بدأها وأربعة زملاء آخرين عام ۱۷۶۱ م، بناءً على تكليف خاص من فردريك الخامس ملك الدنمارك، وقد لقيت هذه الحملة مصادفات عجيبة انتهت بمعظم شخوصها إلى الهلاك. وكان من ثمار هذه الرحلة ترك مذكّرات مهمّة، عن عموم بلاد الجزيرة العربية والعراق، ورسم خريطة كاملة لليمن (۱).

وما يعنينا من رحلة «نيبور» هو؛ أنّه أبحر مع رجاله الأربعة ومعهم خادمهم السويدى جنوباً فى البحر الأحمر إلى جدّة، حيث استأجروا بيتاً، وانتظروا هبوب رياح مواتية؛ لاستئناف سفرهم إلى أماكن أبعد. وقد انتظروا حوالى ستّة أسابيع، قبل استئناف المسيرة فى سفينة مفتوحة.. وفى هذه المرّة لم يرافقوا جموع الحجّاج، الذين رافقوهم عند مغادرة السويس، والذين كانوا قد وصلوا مكّة وأدّوا فريضة الحج ثم عادوا.. (۲).

ولأسباب نجهلها، لم يتغلغل «نيبور» إلى الأماكن المقدّسة، فى الوقت الذى ذهب بعيداً فى مغامرته الجريئة، حينما جاب بقاعاً كانت عصيّة، حتّى ذلك الوقت وإلى وقت لاحق، على أمثاله. الأمر الذى أكسبه شهرة واسعة، وعدّه المؤرّخون علامة فارقة، فى تاريخ رحلات الاستكشافات الغربية إلى الجزيرة العربية.

على أنّ ثمّة جهوداً متواضعة سبقته للتعرّف على المناطق الساحلية، وخاصّة فى مطلع القرن السابع عشر. وقد كانت شركة الهند الشرقية معتنية بجمع المعلومات عن موانئ البحر الأحمر وأهميتها، فكلّفت عدداً من رجالها بذلك. وكان من جملتهم «القس جوزيف اوفينكتون» الذى كتب فى وصف جدّة وأهميتها، فنشر الوصف فى كتابه المسمى «رحلة إليصوراة»[A VoYage to Suratt].

وهو يقول: إنّ الميناء الرئيسى فى البحر الأحمر يعود للسلطان.. وهو ميناء

۱– ۲ المرجع نفسه: ۵۱.

۲– ۳ بيتر برينث؛ «بلاد العرب القاصية»، ترجمة خالد أسعد عيسى وأحمد غسّان سبانو، بيروت، ۱۴۱۱ ه– ۱۹۹۱ م،ص: ۸۵.

ص: ۱۸۴

مکّة. ولیست الأراضی المحیطة بهذین البلدین ذات فائدة مطلقاً، کما أنّها غیر قابلة للاصلاح والتحسین، بحیث إنّها قد اصیبت بلعنة من الطبیعة، فحُرمت من نِعَم اللَّه تعالی بندرة وجود الأشیاء کلّها فیها، ما لم تستورد لها من الخارج.. وتزدهر جدّة بمواصلاتها الدائمة مع الهند وایران والحبشة، وأجزاء الجزیرة العربیة الاخری، فیأتی العرب إلیها ببُنهم (قهوتهم) لیشتریه الأتراک ویحملوه إلی السویس، ویأتی إلیها علی الشاکلة نفسها الحجّاج فی کلّ سنة من أنحاء العالم الإسلامی جمیعه.

وفی عهد الشریف سعید (۱۷۰۰ م) وصل إلی جدّة رجل انگلیزی یُدعی «ویلیام دانیال»، وآخر فرنسی یُدعی «شارل جاک بوسیه». فخلّفا وصفاً واضحاً عمّا شاهداه. فقد کان الأوّل شاهد عیان للخصام، الذی حصل بین الشریف الأکبر سعید، والباشا الذی کان یمثّل السلطان فی الحجاز.

أمّا الفرنسی فقد وصل إلی جدّة، فی الیوم الخامس، من کانون الأوّل (دیسمبر) أی بعد الحادث المار ذکره بأیّام قلیلة (۱).

وأیّاً کانت قیمة المشاهدات والانطباعات، التی ترکها هؤلاء وغیرهم، فإنّ الرحالة الدانمارکی «ینبور» قد ترک بصماته الواضحة فی تاریخ الرحلات الغربیة، طیلة عقود طویلة. لقد تزامنت شهرة ینبور وذیوعصیته فی الدوائر المعنیّة بالشرق مع تنامی حرکة التنویر الفلسفیة فی القرن الثامن عشر.

وقبل أن یؤذن هذا القرن بالرحیل، کان هناک حدثان خطیران فی المشرق الإسلامی، أثارا الانتباه لدی البعض والمخاوف- إلی حدّ الذعر- عند البعض الآخر، وهما؛ غزو نابلیون لمصر عام ۱۷۹۸ م، والذی کان إیذاناً ببدء مرحلة الاختراق الحضاری للمشرق الإسلامی، من قبل دوائر الغرب وطلائعه الاستعماریة.

الحدث الثانی تمثّل بتصاعد قوّة الوهابیین فی قلب الجزیرة العربیّة، وتحرّک محمّد علی باشا لضرب القوّة الجدیدة. وهنا وجد الغرب فرصته الذهبیة لتکثیف

۱- ۴ جعفر الخلیلی؛ «موسوعة العتبات المقدّسة- قسم مکة»، ۲: ۲۵۸ ط ۲، بیروت، ۱۴۰۷ ه- ۱۹۸۷ م.

ص: ۱۸۵

جهوده فی المنطقة (۱).

وعلی حین کانت أوروپا تهتزّ وترتعد وتسقط فریسة الحروب النابلیونیة، ظهر وکأن بلاد العرب أیضاً قد أصبحت تحت قبضة حرکة استبدادیة مطلقة.. وفی أثناء سنوات الغلیان والفوضی هذه، مرّ رحّالتان جدیدان، فی هذه البلاد الصحراویة، وفی تلک المدن المقدّسة (۲)، وقد تظاهرا بالإسلام، منتحلین لهما اسمین مسلمین، فی نطاق إخفاء مهمّاتهما السریّة.

الیهودی.. الجاسوس

وبعد ست وأربعین سنة من رحلة نیبور، وبالتحدید عام ۱۸۰۷ یصل الحجاز رجل یهودی اسبانی الأصل یُدعی «دومنیکو بادیا أی لیبلیج» لینتحل اسماً ونسباً عربیّاً «علی بک العبّاسی»، ویدّعی لنفسه أن شریف مکة (الشریف غالب) قد لقّبه «خادم بیت اللّه الحرام»، وأنّه استقبله بحفاوة، وأشرکه معه فی غسل الکعبة المشرّفة.

وقد تضاربت الآراء فی حقیقة هذا الرجل، کما یقول «برینث» فقد یکون عمیلًا للفرنسیین أو البرتغالیین أو ربّما الانکلیز، وهناک من یذهب إلی أنّه کان جاسوساً لسلطان مصر «محمد علی باشا» الذی کان یجهّز لحملة ضد الوهابیین، فإن «علی بک العباسی» یکون قد وضع حدّاً للجهود، التی قامت علی الرغبة الغامضة والطمع فی المنال القریب المتوقّف علی اکتشاف الحدود الساحلیة. کما أنّه سیکون أوّل أوروپی احتک بالناس، من موقع لم یثر حساسیتهم، وکان لادعائه النسب العباسی، وتأکیده لشریف مکّة بأنّه کان واحداً من عائلتهم الوجه الذی دخل به قلوب الناس، فاستغل ذلک للتجسّس علیهم (۳).

فما هی، یا تری، حکایة «العبّاسی» هذا؟

وما هی حقیقة تظاهره بالإسلام؟

۱- ۵ مجلّة العالم؛ م. س.

۲- ۶ بلاد العرب القاصیة؛ م. س: ۹۸.

۳- ۷ مجلة العالم؛ م. س: ۵۱.

ص: ۱۸۶

وماذا تکمن وراء ذلک من دوافع.. وأهداف؟

وحتی نصل إلی جلیّة الموقف، لابدّ من تتبع تحرّکات هذا الیهودی، لنمسک برأس الخیط.

ففی عام ۱۸۰۶، وصل إلی الاسکندریة، وکان قد ترک موطنه متوجهاً إلی شمال أفریقیا قبل ثلاث سنوات (۱) أی أنّه بدأ رحلاته عام ۱۸۰۳ م، التی شملت المغرب وطرابلس وقبرص ومصر والجزیرة العربیة وفلسطین وسوریا وترکیا، وفی العام ۱۸۰۷ تمّت رحلاته، وقد دوّنها بعد عودته إلی أوروپا، واستقراره فی فرنسا باللغة الفرنسیة، فی کتاب من جزأین (۲).

لاـ نعرف الشیء الکثیر عن تفصیلات حیاته. إذ یکتنفها قدر غیر یسیر من الغموض. وما معروف عنه أنّه کان عالماً ذکیّاً أجری اتصالات مع کثیر من علماء أوروپا. ولکنّه اختفی فجأةً، ولم یسأل أحد عن سبب اختفائه، وذلک لأنّ السلطات المختصّة کانت تعرف إلی أین ذهب، کما یقول «برینث».

فقد أبحر إلی البحر الأحمر، ومن ثمّ إلی جدّة، وکان ینوی أن یشقّ طریقه إلی مکّة (۳).

وفی مقدّمته للطبعة الجدیدة لکتاب «رحلات علی بک» التیصدرت عام ۱۹۹۳ کتب الاختصاصی البریطانی «روبین بدویل» قائلًا: «لم یقدّم رحالة فی العالم العربیصورة غامضة کالتی قدّمها «علی بک»، کما أن تقریره یبدأ بطریقة مبتورة لا مثیل لها».

وبالفعل یستهل «علی بک» سرده بصلاة قصیرة بالعربیّة، یصرّح بعدها بأنّه قرّر القیام برحلة الحجّ إلی مکّة المکرّمة، من أجل مراقبة البلاد التی سیمرّ بها، لصالح البلد الذی سیستقرّ فیه فی نهایة المطاف.. وکان هذا البلد- کما نعلم لاحقاً- فرنسا.

۱- ۸ بلاد العرب القاصیة؛ م. س: ۹۸.

۲- ۹ یُراجع التحقیق الموسوم؛ «علی بیک العبّاسی الجاسوس للأسبان والفرنسیین: رحلاتهصورة دقیقة عن العالم العربی بین ۱۸۰۳ و ۱۸۰۷»، المنشور فیصحیفة الحیاة طبعة لندن- الأحد: ۲۶ أیلول سبتمبر ۱۹۹۳ م- ۱۰ ربیع الثانی ۱۴۱۴ ه،ص ۱۷.

۳- ۱۰ بلاد العرب القاصیة؛ م. س: ۹۸.

ص: ۱۸۷

مهمّة خاصة فی المغرب

بعد هذه المقدّمة المختصرة، یصف وصوله إلی طنجة فی حزیران (یونیو) ۱۸۰۳ م ویزعم أنّ اسمه «علی بک العباسی» وأنّه ینحدر من سلالـة هـارون الرشـید، ویقیم فی مدینـة حلب. لکن «بـدویل» یقـول: «إنّ قصّـة هویته الکاملـة مـا تزال مدفونـة فی محفوظـات مکتب استخبارات ما، أو أنّها فقدت إلی الأبد».

والواقع أنّ المعلومات عنه قلیلة، ویتردّد أنّه کان جاسوساً، عمل أوّلًا لحساب الأسـبان، ومن ثم لحساب نابلیون. وهو من أصل أسـبانی، ولـد فی برشـلونة عام ۱۷۶۶ م. درس اللغـة العربیـة والعلوم (الفیزیـاء وعلم النبـات والجیولوجیا) فی جامعـة فالنسـیا. وفی ۱۸۰۱ م قدّم خـدماته کمسـتکشف فی غرب أفریقیـا إلی شخصـیة بـارزة فی السـلطة الأسـبانیة، وفی العام ۱۸۰۲ زار لنـدن حیـث قـدّم إلی «جمعیة المساعـدة لاکتشاف المناطق الداخلیـة فی أفریقیا» مشـروعاً للوصول إلی تبکتو عن طریق الجنوب، عبر جبال الأطلس. وبعد سـنة فقط، وصل إلی المغرب بزی عربی کامل، وثراء واضح، وحاشیة بارزة.

ویعتقـد المؤرّخون الـذین اهتموا بسـیرة «علی بـک» أنّ نفقـات الرحلات کـانت باهظـة إلی حـدّ لم یکن بإمکان أسـبانیا وحـدها أن تتحمّلها، ولـذلک فمن المحتمل أنّه عمل أیضاً کجاسوس لحساب نابلیون، الـذی کان یطمح منذ حملته علی مصـر فی العام ۱۷۹۸ م، إلی اسـتغلال العالم الإسلامی لصالح فرنسا. وکان الامبراطور الفرنسی أمر باجراء أسبار سرّیة علی شواطئ شمال أفریقیا، وجهّز الخطط المختلفة، من أجل استعمار الأراضی الزراعیة الغنیة فی المنطقة ذاتها.

ویقول «علی بیک»: إنّه، خلال إقامته فی المغرب، أصـبحصدیقاً للسـلطان مولای سلیمان، وأهداه عشرین بندقیة، وبرمیل بارود، ومظلّة جمیلـة. وفی المقابـل، قـدّم له السـلطان رغیف خبز من فرنه الخـاص، کـدلیل علی الاـخوّة، والأـهم من ذلـک، حسب کلاـم الرحالـة: «أهدانی السلطان أراضی واسعة، سمحت

ص: ١٨٨

لى بأن أحافظ على المصاريف التى كان يتطلّبها مركزى، فضلًا عن أموالى الخاصّة».

قضـى «على بك» سـنتين فى المغرب، واسـتطاع أن يعطى تفاصـيل دقيقة عن البلد ومناطقه وسـكّانه. غير أن العلماء المختصّين بشؤون المغرب حـديثاً لم يجـدوا أيّـة إشارة إليه فى المراجع المعاصـرة له. ممّا يؤكّـد أنّ هذا اليهودى كان ضالعاً فى مهمّة سـرّية، وليس فى مهمّة علميّة؛ لذا فإنّ المعلومات التى سجّلها والانطباعات التى رصدها قد أخذت طريقها الى كواليس أجهزة الرصد الاستعمارية.

وما يعزّز هذا التحليل، هو أنّ «بدويل» يقول فى المقدّمة: «لم تكن هناك أيّة فائدة بالنسبة إلى أسبانيا فى متابعة تمويل رحلات "على بك "بعـد المغرب، إلّاأنّ انتقاله تزامن مع انـدلاع الحرب الفرنسـية- الروسـية، وبروز سـياسة جديـدة عند نابليون تهدف إلى اكتساب أصدقاء فى تركيا وايران ومصر.. وحتى فى مسقط».

أمضـى «على بـك» أشـهراً قليلـة فى طرابلس، انتقل بعـدها إلى قبرص، ثمّ توجه إلى مصـر، حيث التقى محمـد على باشا. وفى كانون الأوّل (ديسمبر) ١٨٠٦ م بـدأ رحلته إلى مكّة المكرّمة التى وصل إليها بعد شـهر، فى ٢٣ كـانون الثانى (يناير) ١٨٠٧ م. فاستقبله أمير المدينة بحفاوة وعيّن موظفاً كبيراً لمرافقته (١).

التظاهر بأنّه من أشراف المسلمين!

إذن، هذا اليهودى الذى تزيّا بزى المسـلمين، وسـمّى نفسه «على بك العباسى» كان مكلّفاً بمهام خاصّة من قبل الحكومة الفرنسية (٢) وعندما وصل إلى بلاد العرب لم يكن هذا الذى وصل إلى الشواطئ العربية رحالة أو عالماً أسـبانياً، بل كان رجلًا مسلماً، ومن أشراف المسلمين..!!، إذ اختار لنفسه اسماً مرموقاً وأجداداً ممتازين، كما يقول «يرينث».

ولكى يدلّل على مصداقيته وليبعد الشبهات عنه، اعتاد الخدم من حاشيته

١- ١١صحيفة الحياة؛ م. س.

٢- ١٢ موسوعة العتبات المقدّسة؛ م. س، ٢: ٢٥٩.

ص: ۱۸۹

وضع سجادته المخصصة لصلاته خلف سجادة الإمام مباشرة. وقد وصل علی بک إلی مکّة وهناک استقبله شریف مکة. وإذا کان هناک مجال للتساؤل حول عبقریته فقد زالت هذه الشکوک الآن. إذ إنّ «علی بک» کان یجید اللغة الفرنسیة والأسبانیة والایطالیة، ولکنّه کان حریصاً علی تکلّم اللغة العربیة بطلاقة وسهولة أزالت کلّ الشکوک حول أصله ومحتده. ولو کان هناک أدنی شک فی هذه القضیة، لکان المسوؤل عن بئر زمزم، والذی کان یقدّم ذلک الماء المقدّس للأشراف والنبلاء ویدس السم- علی حدّ زعم برینث- لمن تحوم حولهم الشکوک، لکان هذا قد نفّذ فعلته بالنسبة لعلی بک.

دخل «علی بک» مکّة متحدیّاً العادات والتقالید، فقد کان راکباً بعیره، وقد سُمح له بذلک لإصابته أثناء الرحلة. وعند دخوله مکّة اتّجه إلی الکعبة مع بقیّة الحجّاج مباشرة، وکان اثنان من خدمه یدعمانه ویساعدانه علی السیر والطواف.

ویقول «علی بک» فی مذکّراته: «إنّ الخدم الذین أحاطوا بی داخل الرواق المعمد الممتد علی مدی البصر، وساحة (المعبد) الهائلة، وبیت اللّه المغطّی من قمّته لأسفله بالقماش الأسود، والمحاط بحلقة من المصابیح، وتأخّر الوقت وسکون اللیل، ومرشدنا الذی کان یتفوّه بکلمات کما لو أنّه یتلو شیئاً قد اوحی إلیه، کلّ هذه الأشیاء قد شکّلتصورة مؤثّرة لا یمکن أن تنمحی من ذاکرتی أبداً».

وعلی الرغم من هذا التأثّر، إلّاأنّ «علی بک» کان یتوخّی الدقّة فی أوصافه طیلة مدّة إقامته. فهو یصف بالتفصیل الأروقة المعمدة والقباب والمآذن فی المسجد العظیم، ویخبرنا عن الأماکن المبلّطة والأماکن ذات الأرض الرملیة. ویمیّز الأمکنة التی تخصّ أتباع کلّ مذهب من المذاهب، فالمالکیة هنا، والحنفیة هناک، والشافعیة من جهة، والحنابلة وهم مؤسسو المذهب الوهابی من جهة اخری. وقد سُمح لعلی بک بصفته من الزوّار ذوی الأهمّیة بالاشتراک فی غسل الکعبة، وهکذا فإنّ علی بک هو أوّل زائر عُرف عنه أنّه قام بمثل هذا العمل (١).

١- ١٣ بلاد العرب القاصیة؛ م. س: ٩٩- ١٠٠.

ص: ١٩٠

وبذا، يكون على بك ثانى رحالة أجنبى يقدّم للغرب وصفاً عن مكّة المكرّمة، بعد «جوزيف بيتز» (الذى تحدّثنا عنه بشىء من التفصيل فى العدد الماضى) فى كتابه الذى وضعه فى أواخر القرن السابع عشر، تحت عنوان «وصف أمين لديانة وأخلاق المحمديين». إلّاأنّ سرد على بك أكثر دقةً وشمولًا، فهو يصف المدينة والحرم الشريف بصورة شاملة، ويقدّم التخطيطات والرسومات، ويتناول أوضاع الأهالى، والظروف السياسية والتجارية، والأسواق والبضائع، والمبانى، والفنون، والعلوم، والحيوانات والزراعة.. والأهم من كلّ ذلك أنّه كان أوّل من حدّد موقع المدينة الحقيقى (١).

شريف مكّة.. كما يراه على بك

اجتمع على بك بالشريف غالب. فقال: إنّه فى العقد الرابع من العمر، ووصفه بأنّه كان أنانياً غير متعلّم (٢) وأنّه على جهله ذو حصافة ودهاء. رآه لأول مرّة فى مجلسه وهو يدخن النارجيلة التى كانت محجوبة خوفاً من الوهابيين. فلم ير السائح الأوروبى غير النربيج الذى كان يتصل من خرق فى الحائط بالنارجيلة وراءه فى الغرفة المجاورة للمجلس (٣).

ويمضى «على بك» فى نقل انطباعاته عن شريف مكة، زاعماً أنّ الانكليز كانوا يعتبرونه أحسنصديق لهم، ولذلك كانوا يشجعون التجارة مع الهند بواسطته، كما يقول: إنّ الشريف كان يبعث بسفنه لتتاجر مع مخا ومسقط وصوراة، وأنّه كان يدّعى بعائدية مصوع وجزيرة سواكن له، مع أنّهما كانا يخضعان للسلطان بصورة اسمية (۴).

وعن بعض مهمّات الشريف غالب يذكر «على بك» قائلًا: «دخل شريف مكة وسلطانها محمولًا على أكتاف بعض أتباعه، ورؤوس البعض الآخر تحيط به شيوخ القبائل. وقد حاول بعض الزوّار اللحاق بهم، ولكن الحرّاس- وهم من

١- ١۴صحيفة الحياة؛ م. س.

٢- ١۵ موسوعة العتبات المقدّسة؛ م. س، ٢: ٢۶٠.

٣- ١۶ أمين الريحانى؛ «تاريخ نجد الحديث» المنشور ضمن الأعمال العاملة، ۵: ٧٨ بيروت، ١٩٨٠ م.

۴- ١٧ موسوعة العتبات المقدّسة؛ م. س، ٢: ٢۶٠.

ص: ۱۹۱

أصل أفريقى- منعوهم، وذلک بضرب کلّ من يقترب بعصيّهم. وقد بقيت بعيداً عن الباب، وذلک لتجنّب الاختلاط بالجمهور، وعندها رأيت السيّد المسؤول عن بئر زمزم يشير إلىّ بيده أن أتقدّم، وذلک بأمر من شريف مکّة، ولكن كيف أستطيع أن أشق طريقى، خلال الألوف من الناس أمامى؟»

بدأ الحرّاس بغسل الكعبة بالماء المقدّس من ماء زمزم، وقد تلقّف الجمهور تلک المياه، وكان البعيدون من الحضور ينادون طالبين حصّتهم من الماء، وقد قُدّمت آنية الشرب، ونال على بک وعاءً شرب بعض ما فيه، وصبّ الباقى على نفسه، وذلک لأنّ الماء يحمل بركة اللّه فيه، ومع ذلک فقد كان ممزوجاً بماء الورد ذى الرائحة الزكية. وبعد ذلک حاول على بک الوصول إلى باب الكعبة، وقد حمله عدّة أشخاص من فوق رؤوسهم، وأخيراً وصل إلى الباب حيث ساعده الحرس الافريقيون على الدخول. وفى داخل الكعبة سلّموه حزمات من (الفراشى) وبدأ يشطف أرض الكعبة، كما كان الشريف يشطف أيضاً وبحماس عظيم، مع أنّ أرض الكعبة كانت نظيفة ولامعة كلوح من الجليد. «وعندما انتهت هذه الاحتفالات أعلن الشريف أنّه قد أنعم علىّ بلقب خادم بيت اللّه الحرام، وعندها تلقيت تهانى ومباركات جميع المشتركين» (۱).

وصف مناسک الحجّ

ويأتى بعد ذلک على إيراد تفاصيل اخرى عن مناسک الحج؛ ليطلع عليها قرّاؤه فى أوروبا، فذكر كيفصعد إلى قمّة جبل عرفات، وهو المكان الذى يُقال: إنّ آدم قد قابل به حواء بعد انفصال طويل. ثم يذكر أنّه كان هنالک على قمّة جبل عرفات مكان مقدّس، عمل الوهابيون على هدمه. ثمّ يذكر لقرّائه عن رمى الجمرات أى الحجارة فى منى. وقال: إنّ هذه الحجارة ترمز إلى بيت الشيطان، وهو بناء غريب الشكل يرمى عليه جموع لا تُحصى ولا تُعد من الحجّاج الحصى

۱- ۱۸ بلاد العرب القاصية؛ م. س: ۱۰۰.

ص: ١٩٢

والحجارة، وهو يقول: ولمّا كان الشيطان ماكراً وحقوداً بحيث بنى بيته فى مكان ضيّق لا يزيد فى اتساعه عن أربع وثلاثين قدماً، وأنّه فضلًا عن ذلك مملوء بالحجارة الضخمة، التى يجب على الإنسان تسلّقها، إذا كان عليه أن يصيب الهدف. فالحجّاج مدعوون لإتمام هذا المنسك أو هذه العملية رأساً بعد وصولهم إلى (منى)، وهكذا تسود الفوضى النادرة المثال، ولكنّى أخيراً وبعد أن ساعدنى خدمى وأصدقائى تدبّرت أمر إتمام هذا الواجب المقدّس، ولكن أصبت بجرحين فى رجلى اليسرى.

كانت ملاحظاته عمّا رأى دقيقة، ولكنّها جافّة، ولم تكن تخلو من إشارات خفيّة وتلميحات تهكمية فيها. فهو يلاحظ مثلًا أنّ الأرض خارج الكعبة كانت على مستوى أرض الكعبة الداخلى، ولكن لا يمكن الوصول إليها الآن إلّاباستعمال بعض الدرجات، وهو يقول: «الحقيقة أنّ الإنسان يجب أن يفترض أنّ الحجر الأسود كان موضوعاً فى مكان آخر غير المكان الذى هو فيه الآن، وذلك لأنّه منخفض بمقدار قدمين عن مستوى البوابة. فالكفّار ربّما دار بخلدهم أنّ الحجر الأسود لم يكن موجوداً أو أنّه كان تحت الأرض..».

ثم يقول: «أمّا أنا فلا أعتقد بمثل هذه الأفكار حول ذلك العهد الإلهى الثمين المقدّس» (١) ثم يعطى مقاييس الحجر الأسود فيقول: «يعتقد ان الملاك جبريل قد جلب الحجر الأسود من الجنّة، وكان شفافاً وقد قدّمه لإبراهيم الخليل، ولمّا لمسته امرأة نجسة تحوّل إلى اللون الأسود» ثم يعود.. فيقول: «فى الحقيقة أنّ هذا الحجر هو من البازلت البركانى، وهو محاط ببعض البلورات الصغيرة المدببة اللامعة، ويحتوى بعض سلكات الألمنيوم على أرضية سوداء، وهو أسود غامق يشبه المخمل الأسود والفحم باستثناء نتوء واحد يميل إلى الاحمرار» (٢).

ولسنا بحاجة إلى التأكيد على أنّ على بك أو (دومنيكو باديا) لم يُظهر لنا تفاعله الروحى مع مناسك الحج، وأنّى له ذلك وهو اليهودى المكلّف بمهمّة

١- ١٩ علّق مترجما الكتاب على هذه النقطة بقولهما: «لا داعى لهذا الافتراض، فان الحجر الأسود، حتّى عندما سُحب من مكانه فانّه قد اعيد إلى مكانه نفسه الذى ما يزال عليه حتى اليوم» الكتابص ١٠١، هامش.

٢- ٢٠ بلاد العرب القاصية؛ م. س: ١٠١- ١٠٢.

ص: ۱۹۳

خاصّـة؟! لهـذا اقتصـر عمله على وصف المناسـک وکل ما تقع علیه عیناه وصـفاً دقیقاً.. لیس إلّا (۱). ولعل هـذا الأمر کان فی مقـدّمة مهمّته السرّیة التی نُدب إلیها!

مشاهدات عن الوهابیین

وإذاصـرفنا النظر عن مهمّـة علی بک السیاسـیة، فإنّه أوّل أوروپی شاهـد جموع الوهابیین فی مکّـة، وحـجّ معهم واعتمر، إذ کان الأمیر سعود وأبو نقطة یتقدّمان الحجّاج إلی عرفات، وهم خمسة وأربعون ألفاً، ومعهم علی بک (۲).

ومن طریف ما یـذکره «علی بک العبّاسـی» هـذا، الذی أصـبح کتابه مرجعاً مهمّاً للغربیین عن مکّة، وصـفه لجماعة من البدو الوهابیین الذین جاءوا إلی الحجّ فی مکّة سـنة ۱۸۰۷ م بصـفته شاهد عیان (۳)، وقـد سـنحت له الفرصة لرؤیة الجیش الوهابی، وهو یدخل مکة فیصـباح أحد أیام شباط (فبرایر) عام ۱۸۰۷ م، عنـدما رأی حشـداً من الرجال یکادون یکونون عراة، وهم متنکّبون البنادق، والسـیوف فی أحزمتهم (۴).

یقول علی بـک: «.. وسـرعان مـا دخـل البلـدة جمهور من الرجـال العراة، الـذین لم یکونوا یلبسون شـیئاً إلّاالأسـمال الـتی کـانت تستر عوراتهم. وکـان عـدد قلیل منهم یضـعون بالإضافة إلی ذلک شـیئاً فوق أکتافهم، کما کان قسم آخر منهم عراة بالکلیـة، لکن الجمیع کـانوا مسـلّحین إمّا بالبنادق أو بالخناجر. وحالما وقعت أعین المکّیین علی هـذا السـیل من العراة المسلّحین، هرعوا إلی البیوت کلّهم، واختفوا عن الأنظـار. وکان البعض من هؤلاء یرکبون الخیول، مع عریهم وتسـلّحهم بالرماح، ویرتلون أدعیتهم وجملهم الدینیـة بصوت مرتفع کلّ بالطریقة التی یختارها، ومن دون خشوع أو انتظام. وقد تولّی أطفال مکّة، وهم الأدلّاء علی الدوام، إرشادهم والطواف بهم؛ لأنّ الکبار قد تلاشوا عن الأنظار. ولذلک أخذوا یمرّون فی داخل البیت الحرام، ویقبّلون الحجر الأسود، وکأنّهم مجموعة محتشدة من الزنابیر (۵).

---

۱ – ۲۱ للأسف، نجـد بعض الباحثین یُحسن الظن بجهود أمثال «علی بک»، ویصـنّفها علی أنّها جهود علمیـة ..! مجرّدة، تتوخّی خـدمة العلم والحقیقة!، وهذا المنحی نلمسه فی موسوعة «المستشرقین» بأجزائها الثلاثة، من

۲– ۲۲ تاریخ نجد الحدیث؛ م. س: ۷۸.

۳– ۲۳ موسوعة العتبات المقدّسة؛ م. س، ۲: ۲۶۰.

۴– ۲۴ بلاد العرب القاصیة؛ م. س: ۱۰۲.

۵– ۲۵ موسوعة العتبات المقدسة؛ م. س.

ص: ۱۹۴

ویشیر علی بک إلی أنّ الناس عندما رأوا هذا السیل من الرجال المسلّحین العراة هربوا وأخلوا الشوارع لهم. وهکذا ملأ هؤلاء الشارع تماماً. أما أنا- یقول علی بک- فقد بقیت فی مکانی، ثم تسلّقت کومة من القمامة حتی أستطیع الرؤیة بشکل أفضل، راقبت مرور جیش مؤلف من خمسة أو ستّة آلاف رجل، وکان أمامهم ثلاثة أو أربعة فرسان یرکبون الخیول والجمال وفی أیدیهم حراب کالسابقین، ولکنّهم لم یحملوا أعلاماً أو طبولًا أو أیّة إشارة تشیر إلی النصر العسکری، وفی أثناء سیرهم أطلق بعضهم أصواتاً تدل علی الحماس الدینی، وآخرون کانوا یتلون بعض الصلوات بشکل مرتفع کلّ حسب طریقته» (۱).

أما الشریف غالب فقد کان، خلال ذلک، یشاهد الوهابیین من قصره القائم فوق السفح، بعد أن أوعز إلی جنده من العبید والأتراک بأن لا یغادروا مقرّاتهم، بینما کان هذا المد القادم من البادیة یکتسح مکة، وینحسر عنها دون وقوع حادث یُذکر (۲).

وقد أدرک «علی بک» فیما بعد أنّ ذلک الحماس المتوقّد، الذی ظهر لدی الوهابیین، کان بسبب شعورهم بقوّتهم الساحقة. فهو یقول: إنّه لدی نزوله من جبل عرفات استطاع رؤیة جیشهم جمیعه وهو یقدّر ب (۳) ألف مقاتل، جمیعهم تقریباً یرکبون الجمال، ومعهم حوالی ألف جمل لحمل الماء والخیام وخشب الوقود والتبن والعلف لجمال رُؤسائهم. وکان فی مؤخرتهم شرذمة من الجنود یحملون أعلاماً ذات ألوان مختلفة مرفوعة علی رماحهم. وهو یستنتج بحق أنّه بعد النظرة الاولی، ورؤیة هذا الحشد من الرجال المسلّحین العراة، الذین لیس لدیهم أیّة فکرة عن الحضارة أو المدنیة، ویتکلّمون لغة بربریة، هذه النظرة تسبّب الفزع والحذر، ومع ذلک فقد وجد فیهم بعضصفات الفضیلة، فهم لا یسرقون ولا ینهبون بالقوّة أو الحیلة إلّاإذا کانوا علی یقین من أنّ ما یستولون علیه یخصّ الأعداء أو الکفّار. وکانوا یدفعون ثمن کلّ ما یشترونه أو أجرة أیّة خدمة تُقدّم لهم

۱- ۲۶ بلاد العرب القاصیة؛ م. س.

۲- ۲۷ موسوعة العتبات المقدّسة؛ م. س.

۳- ۴۵ تُراجع الموسوعة،ص: ۲۲۶ ط ۲، بیروت، ۱۹۸۹ م.

ص: ١٩٥

من أموالهم الخاصّـة، وهم یتبعون قوادهم ویطیعونهم طاعـة عمیاء، ویتحمّلون جمیع أصـناف الشـقاء والمشـقّة، ویتّبعون شـیوخهم إلی أقصی المعمورة (١).

ورغم هـذا، فإنّ علی بک لا ینسـی إبـداء اندهاشه؛ لأنّ أهالی مکة وبقیّة الحجّاج لم یوافقوه علی بعض آرائه الایجابیة بالنسـبة لهؤلاء القادمین الجدد، ولکنّه یسـجّل أنّ الوهابیین قد دمّروا وهدّموا جمیع المساجد التی خُصـصت لذکری الرسولصلی الله علیه و آله و سلم وأهل بیته. وقـد هدّم سعود قبور الأولیاء والصالحین من الصـحابة وأبطال الإسـلام الذین کان الناس یحترمونهم، وهدّم قصـر السـلطان الشریف أیضاً، ولم یُبقِ من تلک الأبنیة إلّاالخرائب والأطلال (٢).

أمّا فی المدینـة المنوّرة فقـد علم علی بـک أنّ جمیع الزخـارف، التی أحـاطت بقبر النبیصـلی الله علیه و آله و سـلم قـد أتلفت، خلال نوبات من الحماس المتزمّت، حتی لم یبق شیء من ألوانها الزاهیة الفخمة (٣).

أمّا فی الشؤون الدینیـة فقد ألغیت وحُرّمت التقالید القدیمة، التی کان الحجّاج یتقیّدون بهاجیلًا بعدجیل بإخلاص‌وتفانٍ، ومُنعت زیارة القبور. وفی جـدّة ظهرت قوّة جدیـدة من الشـرطة، وهم مسؤولون عن تـذکیر الناس بالصـلوات الخمس وإجبارهم علی أدائها، وکانوا عراة الأجسام، وفی ید کلّ منهم عصاً غلیظة، وقد أمروا أن یصـرخوا ویوبخوا الناس، ویسـحبوهم قسـراً من أکتافهم، حتّی یشترکوا فی الصلوات العامة خمس مرّات فی الیوم، وقد تولّی رجال مسلّحون حراسة أماکن قبور الأولیاء والصالحین، ومنع الناس من الدخول إلیها (٤).

الجنرال بادیا.. فی خدمة نابلیون!

حرص هذا الیهودی الداهیة علی التظاهر بأنّه الأمیر المکرّم، والعالم المحترم، والحاج الورع الموقّر.. وکان فی ظاهره عربیّاً قحاً، ومسلماً حقّاً، لا تعیقه کلمة یقولها، ولا تخونه فعلة أو إشارة، فما شک أحد فی دینه أو فی نسبه!

١- ٢٨ بلاد العرب القاصیة؛ م. س: ١٠٣.

٢- ٢٩ المرجع نفسه.

٣- ٣٠ المرجع نفسه: ١٠۴.

۴- ٣١ المرجع نفسه.

ص: ١٩٦

والعبّاسى هذا كان عالماً يحمل فى حقائبه أدوات للرصد والمساحة، فاستخدمها فى مكة وجوارها، دون أن يعترضه أحد من الناس، بل كان يحترمه الجميع، وقد حاز- كما مرّ- فوق ذلك شرفاً لم يحرزه سواه من المستشرقين، ولا يحوزه إلّاالأفراد القلائل من المسلمين، ألا وهو شرف كناسة الكعبة. ولكنّه على ما يظهر لم يفلح حتّى النهاية فى تنكّره (١).

إذ غادر على بك مكّة المكرّمة فى الثانى من آذار (مارس) ١٨٠٧ م إلى جدّة، وعندما قصد إلى المدينة المنوّرة زائراًصدّه عنها الوهابيون (٢) وأُلقى عليه القبض عند محاولته الدخول إلى المدينة، وأوقف واتلفت بعض مقتنياته ومجموعاته، وبعدها أُجبر على الرجوع من حيث أتى. وهكذا عندما شعر على بك بهذا الخذلان بدأ فى الاستعداد للرحيل إلى أوروبا (٣).

فتوجّه إلى ينبع ثم عاد إلى القاهرة، لكنّه لم يبق هناك فترة طويلة، بل قرّر العودة إلى أوروبا مروراً بفلسطين وسوريا وتركيا. ولأنّه حمل لقب الحج، تمكّن على بك من زيارة المسجد الأقصى، الذى لم يكن دخله غربى واحد، منذ الحروب الصليبية. وهنا أيضاً أعطى وصفاً دقيقاً وخرائط تفصيلية. وبعد القدس زار دمشق ثم اسطنبول، ووصل إلى رومانيا، حيث ينهى سرده العام ١٨٠٧، بالطريقة المبتورة ذاتها التى بدأ بها.

عند عودته إلى فرنسا، استقبله «نابليون» مرّات عدّة، ثم دخل فى خدمة أخيه «جوزيف بونابرت» الذى كان وقتها ملك أسبانيا، وبعد فترة انتقل للعيش فى باريس، حيث عُرف باسم «الجنرال باديا» وفى تلك المرحلة وضع كتابه الذى أهداه إلى الملك لويس الثامن عشر.

فى العام ١٨١٨ م، قرّر الرجوع إلى الشرق الأوسط، على أمل الوصول إلى تمبكتو برفقة قوافل الحجاج الأفارقة العائدة من مكّة المكرّمة (٤) وعلى ما يبدو كان تحرّكه الأخير مرصوداً من قبل عيون بريطانيا المبثوثين فى المنطقة، على خلفيّة

١- ٣٢ تاريخ نجد الحديث؛ م. س.

٢- ٣٣ المرجع نفسه.

٣- ٣٤ بلاد العرب القاصية؛ م. س.

۴- ٣٥صحيفة الحياة؛ م. س.

ص: ۱۹۷

التنافس الشدید بین الدولتین الاستعماریتین، للاستحواذ علی مناطق النفوذ فی الشرق الإسلامی. وفی أثناء عودته إلی المنطقة، غادر علی بک دمشق عام ۱۸۱۸ م، متّجهاً لزیارة مکة للمرّة الثانیة. وفی هذه الرحلة عاش کعربی بین أهله العرب وکحاج بین الحجّاج. ولکنّه توفی، بعد قطعه حوالی مائة میل فی طریقه إلی مکّة (۱) وذلک فی آب (اغسطس) من تلک السنة. وتقول التقاریر البریطانیة: إنّ وفاته کانت بسبب مرض «الدیزنتاریا». لکن التقاریر الفرنسیة تؤکّد بأنّه قتل مسموماً من قبل البریطانیین (۲).

ولأن الغموض یکتنف موته، فقد دار جدل کبیر حول هذا الأمر بین الانگلیز والفرنسیین منذ القرن التاسع عشر (۳)، فهل کان سبب موته إصابته بمرض الزحار (الدیزنتاریا) حسب الروایة البریطانیة؟ أم هل حدث أن لاحظ أحد الحجّاج الذین یلمّحون بعدّة لغات أنّ هذا الرجل متنکّر یُخفی حقیقته؟ أم أنّ علی بک قد مات مسموماً علی ید أحد رجال المخابرات البریطانیة، وذلک حسب الإشاعة التی انتشرت بعد موته، وإذا کان الأمر کذلک فلماذا حدث هذا الاغتیال، بعد انتهاء الحرب بثلاث سنوات؟

الرجل الغامض

وعلی کلّ حال، فها قد سقط علی بک هناک، ولم ینفعه علمه ولا قوّة شخصیته التهکّمیة.

وقیل: انّهم وجدوا صلیباً بین ثیابه. أمّا کتابه الذی نُشر، قبل أربع سنوات من وفاته، والآراء المتناقضة التی تناقلها الناس حول شخصه وأخلاقه ونوایاه ومعتقداته، فقد ظلّت حیّة بعده تحکی لنا کلّ شیء عن تلک الشخصیة الغامضة (۴).

ومع ذلک، فإنّ علی بک یبقی سرّاً من الأسرار، علی حدّ تعبیر الباحث البریطانی «بیتر برینث» الذی راح یتساءل: ماذا کان یفعل فی بلاد العرب، عندما

۱- ۳۶ بلاد العرب القاصیة؛ م. س: ۱۰۶.

۲- ۳۷صحیفة الحیاة: م. س.

۳- ۳۸صحیفة الحیاة: ۱۳/ ۹/ ۱۹۹۳.

۴- ۳۹ بلاد العرب القاصیة؛ م. س.

ص: ١٩٨

كان الوهابيون يقلبون الجزيرة العربيـة رأساً على عقب، وعنـدما كان نابليون يعسـكر قرب الاهرامات؟ وهل كان قصده من البقاء جمع المعلومات بالنسـبة للحركة الإسـلامية الجديدة، حتّى يساعد نابليون فی تقرير خططه للمسـتقبل بالنسـبة للشـرق الأوسط؟ أم هل كانت مهمّته مراقبـة شواطئ البحر الأـحمر لمصـلحة السـفن الفرنسـية، التی كـانت پـاريس تأمـل فی إرسالهـا؛ لتخوض ميـاه ذلـك البحر فی المستقبل القريب؟ وهل يعلم أحد حق اليقين عمّا إذا كان هذا الرجل مسلماً حقيقياً أم مسيحياً حقيقيّاً؟ (١)

وعن التسـاؤل الأـخير، فـإنّ من المؤكّـد أنّ الرجـل ليس مسـلماً قـط، أمّـا مسـيحيته فهی موضع تسـاؤل، خلافاً لما هو ثابت عن ديانته اليهوديـة، ولعلّه كـان ماسونيـاً. ومـا يـدعونا إلی هـذا هو ما كان يبـديه من شـعور بالحماس العام بالنسـبة لجميع الأديان، وهـذه النقطة بالـذات إحـدى أبرز مرتكزات الادعاءات الماسونية، التی كانت مزدهرة جدّاً فی فرنسا، ومنذ انتصار الثورة الفرنسـية، وخاصّة فی عهد نابليون بونابرت، الذی كان أحدصنائع الماسونية وضحاياها فی آن معاً!

وعلی بك هـذا.. كان رسول بونابرت إلی البلاد العربيـة، كما يقول أمين الريحانی (٢)، وكان عمله التجسّـس لصالح فرنسا من الامور المحسومة، ولقد اعترف هو نفسه، فی مقدّمة كتابه، بأنّه يعمل لصالح البلد الذی يستقرّ فيه فی نهاية الأمر!

ومهما كانت الحقيقـة بالنسـبة لهذا الرجل الغامض، إلّاأنّه كان أوّل رجل غربی يلبس الثياب العربية ويتكلّم اللغة العربية، ويتّخذ لنفسـه مظهر وأخلاـق العرب بمحض إرادته. وهكـذا أصبح الرائـد والمعلِّم لكثير من الأوروپيين الـذين حاولوا، فی القرنين التاليين، سـلوك الخطة والطريقة نفسها. وهناك من يظن أنّ هذا العمل ما هو إلّامجرّد تمويه أو إجراء احتياطی، ولكنّ الآخرين يعتقدون أنّ هذا هو ردّ الفعل الطبيعی، نظراً للأساليب السائدة فی محيطهم الموقت. ولكن هنالك من

١- ٤٠ المرجع نفسه: ١٠٥.

٢- ٤١ تاريخ نجد الحديث؛ م. س: ٧٨.

ص: ۱۹۹

یظن أنّ هـذا الـدور قـد اسـتثمر بوضوح بکشف الحقیقـة، وأنّ هؤلاـء الرجال کانوا یبـدون وکأنّهم قـد رجعوا لطبیعتهم، عنـدما کانوا ینغمسون انغماساً عمیقاً فی شخصـیاتهم الکاذبة. وبالنسبة إلیهم، لقد کان مجرّد الاشتراک، فی خضم تلک الصرامة والقسوة فی الحیاة البدویة، ما هو إلّاعامل مکمِّل لشخصیاتهم بشکل لیس له مثیل (۱).

وقـد أفصـح، بعـد نصف قرن تقریباً، رحالة یهودی بریطانی هو «ولیم بلغریف» عمّا کتمه آخرون، حینما کتب فی مشاهداته الشخصـیة عن «رحلـة عام فی وسط وشـرق الجزیرة العربیة» عام ۱۸۷۳ م: «لقـد حان الوقت لأن نملأ هـذا الفراغ الموجود فی خارطة آسـیا، وهذا الـذی سـنحاوله رغم کلّ خطر، فإمّا أن تصـبح الأرض الممتـدة أمامنا قبراً لنا، أو أننا سـنعبر أوسع امتـداداتها عرضاً»، فإنّه کان یلخص حلم الرحالة الذین سبقوه واغراض أولئک الذین سیأتون بعده (۲). ولا یُنبئک مثل خبیر.

إعادة طبع الرحلات

بقی أن نشیر إلی أن رحلات علی بکالتی أثارتجدلًا، قد طبعت بالانگلیزیة عام ۱۸۱۶، تحت عنوان: «رحلات علی بک فی المغرب وطرابلس وقبرص ومصـر والجزیرة العربیـة وسوریـا وترکیـا ۱۸۰۳ – ۱۸۰۷ » (۳) ویحمـل غلاـف الرحلاتصورة «علیبکالعبّاسـی» بزیّهالإسلامی. و اعید طبعها فی لندن عام ۱۹۹۳.

ولندرة الکتاب وأهمّیته غدا سـعره مرتفعاً جدّاً، خاصّة فی مطلع القرن العشـرین، ویذکر أمین الریحانی معاناته للحصول علی نسخة من الرحلات، وکیف أنّ أحـد الکتبیین نشـر إعلانـاً فی الصـحف، لمن لـدیه نسـخة یریـد بیعهـا، وحینمـا وُجـد.. کان الثمن عشـرین لیرة إنکلیزیة فقط!!

۱– ۴۲ بلاد العرب القاصیة؛ م. س: ۱۰۵.

۲– ۴۳ مجلّة العالم؛ م. س.

۳– ۴۴TurkeY .Between the Years ۳۰۸۱ and ۷۰۸۱ ""Travels of AlY ,BeY in Morocco ,Tripoli ,CYprus EYprus ,EYgpt ,Arabla ,SYria ,and

ص: ۲۰۰

سیتزن.. أو الحاج موسی!

أمّا الرحّالة الثانی الذی قام بمهمّة مشابهة، فهو الألمانی «الریخ سیتزن»، غیر أنّ المعلومات عنه شحیحة جدّاً، ولا ترقی المصادر المتوفّرة (لدینا فی أقل التقادیر) إلی عدد أصابع الید الواحدة، وحتی هذه المصادر تذکره بإیجاز شدید.

یعرّفه الدکتور عبدالرحمن بدوی بأنّه «مستشرق ورحالة ألمانی»؛ ولهذاصنّفه ضمن موسوعته الشهیرة عن المستشرقین (۱). ولد عام ۱۷۶۷ م. ونجهل الکثیر عن نشأته وحیاته، وکلّ ما نعرفه؛ أنّه قضی عشرین سنة یدرّس ویتأهّب لرحلته إلی الشرق. فجاء سوریا سنة ۱۸۰۵ وأقام فیها بضع سنین، وکتب فی رحلته کتاباً قیّماً باللغة الألمانیة (۲).

جاء إلی مصر فی ۱۸۰۷ م، فأقام بها طوال عامین. وکان یلبس الزی الإسلامی (۳).

وکان قد تعرّف إلی المستشرق النمساوی «همّر پورجشتال» [۱۷۷۴- ۱۸۵۶ م] وفی اسطنبول عام ۱۸۰۲ م، وتبودلت بینهما الرسائل بعد ذلک، فکان سیتزن یصف لهمّر ما یشاهده فی رحلاته فی سوریا وفلسطین وشرقی الأردن وبلاد العرب ومصر السفلی والفیّوم. وفی مصر جمع مخطوطات عربیّة وآثاراً مصریة قدیمة، وقد اقتنی هذه المخطوطات لصالح المکتبة الدوقیّة فی جوتا (۴).

سافر إلی الحجاز، فی زیّ درویش اسمه «الحاج موسی» فدخل مکّة حاجّاً سنة ۱۸۱۰ م.. وهناک قابل الأمیر سعود، وکان قد ارتاب بقیافته وإسلامه، ولکن کبیر الوهابیین یومئذ لم یمانع العالِم الافرنجی فی تجواله (۵) ولا ندری ما هو السرّ وراء هذا التساهل الوهابی، مع المشکوک فی أمرهم إسلامیاً، قبال تشدّدهم المعهود مع بعض المسلمین، الذین لا ـ یتوانون عن إلصاق تهمة «الشرک» بهم، بمناسبة وفی غیر مناسبة؟!

وعلی أیّة حال، فإنّ سیتزن المسکین- کما یصفه برینث- تلک الشخصیة

۱- ۴۵ تُراجع الموسوعة،ص: ۲۲۶ ط ۲، بیروت، ۱۹۸۹ م.

۲- ۴۶ تاریخ نجد الحدیث؛ م. س: ۷۹.

۳- ۴۷ موسوعة «المستشرقین»؛ م. س: ۲۲۶.

۴- ۴۸ المرجع نفسه.

۵- ۴۹ تاریخ نجد الحدیث؛ م. س.

ص: ۲۰۱

الواعدة التی قتلتها الخرافات والطمع، قبل أن تستطیع تقدیم أیّ شیء ذی بال، فقد سافر فی هذه الفترة من الزمن عبر ذلک المسرح العریض لشبه الجزیرة العربیة؛ وتجوّل خلال المدن العربیة القدیمة التی أصبحت خرائب وأطلالًا مثل البتراء. وقد أعلن إسلامه وأدّی فریضة الحجّ فی مکة (۱).

وفیصیف عام ۱۸۱۰ قصد سیتزن الیمن، وطوّف فیها فعثر علی النقوش، التی أشار إلیها نیبور بالقرب من المدینة الحمیریة ذمار، فنسخ الکتابات العربیة الجنوبیة الاولی، وهی عبارة عن خمس قطعصغیرة (۲).

وفی رسائله إلی المستشرق همّر تحدّث له أیضاً عن جنوب الجزیرة العربیة، وعن البربر، وأرسل إلیه رسوماً لنقوش من جنوب الجزیرة العربیة، ومن سیناء، وتحدّث عمّن لقیهم من الرجال، فقد التقی بالشیخ عبدالرحمن الجبرتی [۱۷۵۴– ۱۸۲۲ م]، وبالترجمان الفرنسی «Asselin de Cherville» [۱۷۷۲– ۱۸۲۲ م] الذی قال له: إنّ قصص ألف لیلة ولیلة نشأت فی عصر متأخّر، وهذا هو ما هیّأ لهمّر الفرصة کی یکون أوّل من یحیل إلی الموضع المشهور فی «مروج الذهب» للمسعودی، حول هذا الموضوع (۳).

وکان فی نیّة «سیتزن» أن یجتاز الجزیرة العربیة إلی الخلیج الفارسی؛ لیسوح فی الشرق الأوسط، فعاد من عدن ووجهته الجبال (۴) وعندما بلغ مخا اعتقد القوم أنّه ساحر، فما ترک، وقافلته المحملة بمجموعاته، مخا حتی اختفی. فمن قائل: إنّ العرب قتلوه بالقرب من مدینة تعز (۵) بعد أن رابهم أمره، خاصّة أنّ هذا المستعرب الألمانی لم یکن– علی ما یظهر– مثل علی بک العباسی بارعاً فی التنکّر (۶) ومن قائل:

إنّ الإمام أمر بدسّ السمّ له فیصنعاء، وهناک لقی حتفه (۷) عام ۱۸۱۱ م، إذ لم یکن الإمام یقیم وزناً لذلک الأوروبی الوحید الذی لم یرافقه أحد، وعندما فتحت حقائبه وجدوا فیها بعض النباتات المجفّفة، وأکیاساً تحوی بعض البذور والحشرات المحفوظة، وبعض الأدوات الفلکیة، والدفاتر المملوءة بالکتابات غیر

۱– ۵۰ بلاد العرب القاصیة؛ م. س: ۱۰۷.

۲– ۵۱ نجیب العقیقی؛ «المستشرقون» ۱: ۱۰۹۷ ط ۱، القاهرة، ۱۹۶۵.

۳– ۵۲ موسوعة المستشرقین؛ م. س.

۴– ۵۳ تاریخ نجد الحدیث؛ م. س: ۷۹.

۵– ۵۴ المستشرقون؛ م. س، ۳: ۱۰۹۷.

۶– ۵۵ تاریخ نجد الحدیث: ۸۰.

۷– ۵۶ المستشرقون: م. س.

ص: ٢٠٢

المفهومة، وصوراً وخرائط أماكن بعيدة، ومبلغاً زهيداً من المال (١)، فيما ترك اختفاء سيتزن أثراً سيئاً في نفوس الرحالة فأحجموا عن جنوب بلاد العرب سنوات (٢).

يقول عنه «هوغارث»: «كان سيتزن نباتيّاً مشهوراً في أوروپا، وهو من العلماء الأفاضل، له نظرات ثاقبةصائبة في الأشياء وفي الناس» وإنّ من يقرأ كتبه عن بعض الحكّام في سوريا، وبعض النباتات والصناعات في لبنان، ليتأكّد من ذلك، ويأسف جدّاً، لأنّ كتبه ومذكّراته فقدت بعد موته في اليمن، فحرمنا رأيه في الوهابيين وأميرهم الأكبر سعود، كما يقول الريحاني (٣).

وتبقى مغامرات "سيتزن "ومخاطراته الواسعة المتنوّعة، بما في ذلك تظاهره بالإسلام، ولبس زي الدراويش، وحجّه إلى مكّة، وذهابه إلى اليمن، فضلًا عن مكوثه في الشام ومن ثم في مصر.. كلّ ذلك يبقى مثار علامات استفهام حول حقيقة المهمّة، التي كانت موكلة إلى هذا الشاب، الذي لقي حتفه، وهو في غمرة انهماكه بمهمّته السرّية.. والمشبوهة تلك..

اسكتلاندي.. أميراً للمدينة المنوّرة!

ثمّة مغامران آخران استطلعا الحجاز في العقد الثاني من القرن التاسع عشر، أي بعد سنوات قليلة جدّاً من أداء «علي بك العباسي» و «سيتزن» (أو الحاج موسى) الحج إلى مكّة المكرّمة. وهما السكوتلاندي «توماس كيث»، والايطالي «جيوفاني فيناتي».

وقد زار الحجاز عدد آخر من الاوروپيين الرحالة بعد ذلك، ولا سيما خلال القرن التاسع عشر، منذ بدايته حتى نهايته. وقد كانت حملة الخديوي محمد علي باشا على الحجاز، بأمر من الباب العالي في اسطنبول؛ لانقاذها من الوهابيين، سبباً في دخول عدد من الاوروپيين مع الجيوش المصرية إلى الأراضي المقدّسة،

١- ٥٧ بلاد العرب القاصية: ١٠٧.

٢- ٥٨ المستشرقون: م. س.

٣- ٥٩ تاريخ نجد الحديث: ٨٠.

ص: ٢٠٣

وزيارتهم مكة والمدينة، كما فعل الرحالة «بورخارت»، كما حصل للجندى السكوتلاندى المغامر «توماس كيث».

فقد كان «توماس كيث» اغا من أغوات المماليك العاملين فى جيوش محمّد على باشا، باسم «ابراهيم أغا» (١). وكان طوسون الشاب مثل أبيه وأخيه ابراهيم متساهلًا فى دينه، عاملًا بتساهله فى أمور شتّى سياسية وغير سياسية، وكان يميل خصوصاً إلى الاوروپيين، ويحب الانتفاع بعلومهم واختراعاتهم. وقد ضمّ الجيش المصرى أولئك المجازفين منهم والمسترزقين (٢) وقد كتب لإبراهيم أغا هذا (توماس كيث) أن يشارك فى حملة طوسون بن محمد على باشا، التى سيقت على المدينة المنوّرة سنة ١٨١٢ م، فكان أوّل الداخلين إليها، ثم وجد نفسه يشغل أغرب وظيفة فى حياته، لفترة قصيرة من الزمن، وهى وظيفة حاكم عسكرى للمدينة المنوّرة، على ما يقول هوغارث (٣) وهذا ممّا يدلّل على التساهل الذى كان يبديه محمد على باشا الكبير وأولاده.

ومن ايطاليا مغامر اسمه الحاج محمد!

أمّا المغامر الآخر، فهو رجل من أهالى فيرارا فى ايطاليا. وقد قُدّر له، بعد تطويحات ومغامرات عدّة، أن يحجّ إلى مكّة المكرّمة فى ١٨١۴ م، باعتباره رجلًا (مسلماً) اسمه «محمد!».

لا نعرف عن هذا الأوروبى- كزميله سيتزن- إلّاالنزر اليسير، وكلّ ما لدينا من معلومات عنه، أنّه سيق إلى الجنديّة فى بلدته سنة ١٨٠۵ م، ففرّ منها وقبض عليه، ثم سيق إليها مرّة ثانية. وهناك اتفق مع جنود آخرين، وفرّ إلى ألبانيا، فاشتغل عند أحد الباشوات الأتراك فيها، وتظاهر باعتناق الإسلام، فتوجّه إلى اسطنبول، وبعد مغامرات وتقلبات عدّة وصل إلى القاهرة فى ١٨٠٩ م، وانخرط فى سلك الحرس الألبانى، وأصبح عريفاً فى حرس الخديوى محمد على باشا الخاص.

١- ۶٠ موسوعة العتبات المقدّسة؛ م. س، ٣: ٢۴٠ ط ٢، بيروت، ١۴٠٧ ه- ١٩٨٧ م.

٢- ۶١ تاريخ نجد الحديث: ٧٧.

٣- ۶٢ موسوعة العتبات المقدّسة: م. س، ٣: ٢۴١.

ص: ۲۰۴

واشترک بعد ذلک فی حملة سیقت إلی مصر العلیا للقضاء علی الممالیک وثورتهم فیها، ثم رابطت قوّته فی المطریّة استعداداً لسوقها بقیادة طوسون باشا بن محمد علی باشا، لتأدیب الوهابیین الذین احتلوا الحجاز. فأبحرت القوّة فی ۱۸۱۱ م، واستطاعت الإنزال فی ینبع، واستولت علیها بعد معرکة اشترک فیها جیوفانی أو «محمد» اشتراکاً فعلیاً. وبعد أن بقی فیها مدّة من الزمن سمع بانتصارات محمد علی باشا علی الوهابیین فی الحجاز، فقرّر الالتحاق بالقوّة الألبانیة المنجدة التی توجّهت إلی هناک فی ۱۸۱۴ م.

وهناک اشترک فیناتی فی محاصرة القنفذة والاستیلاء علیها، وکان موجوداً فیها حینما استردّها الوهابیون بفظاظة، فجرح وتمرّض ولذلک قرّر الفرار من الجندیة والتوجّه إلی مکّة نفسها، فحجّ فیها وکتب عمّا شاهده، خلال ذلک، بتفصیل غیر یسیر. فهو یقول:

.. ولمّا کنت مسروراً لنجاحی فی الفرار، کنت فی وضع فکری یتقبّل شیئاً غیر یسیر من الانطباعات القویّة، ولذلک تحسّست کثیراً بجمیع ما رأیت، عندما دخلت البلدة (یقصد مکّة) لأنّها وإن لم تکن واسعة ولا جمیلة بحدّ ذاتها. فقد کان فیها شیء یبعث الرهبة والاندهاش فی النفس، وکان ذلک یلاحظ علی الأخصّ عند الظهیرة، حینما یهدأ کل شیء تمام الهدوء، إلّاالمؤذّن الذی یدعو الناس إلی الصلاة من فوق المأذنة.. وأبرز ما یلاحظ فی هذه البلدة البناء المقدّس المشهور الذی یقع فی وسطها (۱).

ویمضی «فیناتی» فی وصف البیت الحرام قائلًا: «هو فناء مبلّط واسع له أبواب کثیرة تؤدّی إلیه من جمیع الجهات، مع ممر واسع یحمل سقفه أعمدة تحیط بالبناء کلّه، بینما یقوم فی وسطه بناء یدعی الکعبة، وتغطّی جدران هذا البناء من الخارج بکسوة من المخمل الثمین الذی تطرّز فوقه کتابات عربیّة بالذهب» (۲).

ثمّ یعلّق علی ازدحام الناس فی مکة، وکثرة الحجّاج فیها فیقول: «.. ومع

۱- ۶۳ المرجع السابق ۲: ۲۶۱.

۲- ۶۴ المرجع نفسه، ۲: ۲۶۲.

ص: ۲۰۵

هـذا التجمّع الهائل الـذى كان ينقطع بين حين وآخر فى السـنوات الأخيرة، فقـد وصـلت إلى مكّـة، منذ أن أتت إليها قافلتان كبيرتان، إحداهما من آسـيا والاخرى من أفريقيا، يبلغ عدد القادمين فيهما حوالى أربعين ألف شـخص، كان يبدو عليهم كلّهم مقدار ما يكنّونه فى نفوسهم من الاحترام والتقديس للبيت الحرام..».

وهنا يعلّق الرحالة بورتون (۱۸۲۰– ۱۸۹۰ م) (۱)، الـذى نشـر ما كتبه فيناتى فى آخر رحلته، على هذا بقوله: إنّ «على بك» يقدّر عدد الحجّاج الذين وقفوا فى عرفات سنة ۱۸۰۷ بثمانين ألف رجل وألفى امرأة وألف طفل. وأنّ الرحالة بيركهارت قدّرهم فى ۱۸۱۴ أيضاً بسبعين ألفاً. ثم يقول بورتون: إنّهم لم يتجاوزا الخمسين ألف نسمة، حينما زار مكّة سنة ۱۸۳۵ م (۲).

ويقول فيناتى بالنسـبة لمناسك الحج فى عرفات: إنّ الحجّاج حينما يذهبون إليها، لابدّ من أن يضحّوا ولو بذبح خروف فيها، وإنّ هذا يفعله الغنى والفقير، على سواء، ويساعد فيه الغنى الفقيرَ عند الحاجة. وكان مثل هذا العدد الهائل من الضـحايا يملأ الأماكن المكشوفة كلّها، فيتقاطر الفقراء من جميع أنحاء البلاد ليأخذوا حصّيتهم منها.. وبعد أن تتمّ مناسك الحج كلّها كانت تسـجّل الأسـماء عند كاتب خاص يُعيّن لهذه المهمّة، وعند ذاك ينفضّ الحجّاج ويعودون إلى أماكنهم.

ويعلّق بورتون على هـذا القول أيضـاً بقوله: إنّهـذه العـادة لم يعـد يُعمـل بها. وإنّ شـهادة كان يعطيها الشـريف من قبل إلى جميع من يستطيع دفع المال المطلوب عنها، و من يحتاج إلىالبرهنة على ذهابه إلى حج البيت الحرام، لكن هذا لم يعد لها وجود (۳).

وفى الوقت الـذى كان فيه «جيوفانى فيناتى» يقوم برحلـة الحـج إلى مكّـة، كان هناك ثمّـة رحالـة خطير، يُعدّ من أشـهر رحالى القرن التاسع عشر، وأبعدهمصيتاً وشهرة، يشارك فى موسم الحج ذاك، متخفّياً تحت اسم مستعار «الشيخ إبراهيم»..

ذلك هو الرحالة السويسرى بيركهارت الذى سنأتى على ذكره، فى الحلقة القادمة، بإذنه تعالى.

۱– ۶۵ سنتحدّث عنه فى حلقات قادمة، بإذنه تعالى.

۲– ۶۶ يُراجع كتابه: «الحج إلى المدينة ومكّة». ..[۱۸۵۶ -۱۸۵۵]Pilgrimage to Al- Medinah and Meccah

۳– ۶۷ موسوعة العتبات المقدّسة؛ م. س، ۲: ۲۶۲.

ص: ٢٠۶

الهوامش:

ص: ۲۰۷

تأليف نجيب العقيقى!

ص: ٢٠٨

شخصيات من الحرمين الشريفين (٨) عمار بن ياسر

ص: ٢٠٩

شخصيات من الحرمين الشريفين (٨) عمار بن ياسر

راية الحقِّ المبين

محسن الاسدى

مع ما تعرضت له من ظلم وتعسف وتجاوز- كان أخطرها وأقساها تبرئة المعتدى وتبرير أفعاله وكيل المدح له، وإتهام البرىء وإدانته وذمّه وسبه...

بوسائل خبيثة، وبأحاديث موضوعة على رسول اللَّهصلى الله عليه و آله- بقيتصحبةُ رسول اللَّهصلى الله عليه و آله مدرسةً رساليةً عظيمةً مقدسةً.

كما لا يقدح عظمتها تلك، ولا يضرّ قدسيتها أبداً أنه كما كان فيها المتفوقون كان فيها دون ذلك بكثير، وكما كان فيها المجاهدون المخلصون كان فيها المتخاذلون، وكما كان فيها المؤمنون الصادقون حقّاً كان فيها غير ذلك..

لقد كان فيها الذين زادتهم إيماناً وثباتاً، وكانت شفاءً لما فى قلوبهم.. وكان فيها الذين ما ازدادوا إلّا نفوراً وإلّا أذًى وتخريباً لها...

وخلاصة القول: كان فيها محسنٌ وظالم لنفسه مبين، وهم بالآخرة بين شقىّ وسعيد فأما الذين شَقُوا ففى النار... خالدين فيها... وأمّا الذين سُعِدُوا ففى الجنة خالدين فيها... (1).

١- ١ هود: ١٠٦- ١٠٨.

ص: ۲۱۰

لقد تعرضت هذه المدرسة المباركة لحالتى الإغواء والابتلاء، فارتفعت أعلام وسقطت أخرى، وتألقت نفوسٌ وهوت غيرها، وفاز جمع وخاب آخر... ومع هذا كلّه وغيره الكثير، بقيت هذه المدرسة المحمدية أعظمَ مدرسة عرفتها الدنيا! ونموذجاً فذاً لم يعهد مثله التاريخ وكيف لا تكون كـذلك، وقـد راحت السـماء تغـذيها وتمدّها وتنمّيها وتجذرها فى قلوب مؤمنةصادقة، راحت غير عابئة بما يحيط بها من أذًى ومن تعسفٍ ومن ظلم وقسر واضطهاد تبشر بآيات اللَّه وسنّة نبيه لتحملها مفاهيمَ ومبادئ وأحكاماً إلى الناس كافة؟!

لقـد خلقت قلوبـاً أبيّـة، ونفوساً كبيرة يحتضـنها رجالٌ أفـذاذ،صـحابةٌ أجلّاء، تركوا آثارهم على تأريخنا بل على تأريـخ الإنسانيـة عطاءً وعلماً، وتضحيةً وجهاداً، وأخلاقاً وآداباً...

لقد آمن هؤلاء والإسـلام يعيش أحرج ظروفه وأقساها من حيث القلة والضعف والهوان فى ساحة يحيطها الأعداء من كلّ مكان. آمنوا وقدموا كلّ ذاك العطاء وكلّ تلك التضحيات...

بسـبب ولائهم الصادق لرسول اللَّهصـلى الله عليه و آله وحبهم العظيم له ولما حمله من قيم السـماء. وهو ما شهد به أبو سفيان يوم كان زعيماً لأعداء اللَّه ورسوله: ما رأيتُ من الناس أحداً يحبّ أحداً كما يحب أصحابُ محمد محمداً.

وعمار وأبوه ياسـر وأمّه سـمية من هذه الفئة المؤمنة حقّاً، ومن هذه النخبة الطاهرة، ومن هؤلاء الأصـحاب، الذين سجلوا لنا أمثلة رائعة وكبيرة للإيمـان وللتضـحية والفـداء والصبر والحلم تشـهد بـذلك سـجونُ قريش وسـياطُها وحديـدتُها المحماة ورماحُها القـذرة، التى حملتها نفوسٌ سـيئة وقلوبٌ قاسـية وأيادٍ ملطخة بدماء البراءة والطهارة، كما تشهد لهم بذلك الصبر رمضاءُ مكة وشمسُها المحرقة، وما ذلك إلّالأنهم دعوا الى اللَّه ومَن أحسن قولًا ممّن دعا الى اللَّه وعملصالحاً وقال إننى من المسلمين.

إن الكتابةَ عن «أبو اليقظان»- هذا الرسالى، الذى وفّقه اللَّه تعالى ليعيش أجواء الرسالة وأفياء مدرستها تلك

ص: ۲۱۱

بکلّصدق ووعی وثبات- کتابةٌ عن أبیه یاسر، الذی منَّ اللَّه علیه لیکون أول شهید عرفته المرحلة الأولی من مراحل الإسلام ودعوته، وهی ما زالت فی أول خطوة لها، کما أنّ الکتابةَ عنه کتابةٌ عن امّه التی حظیت هی الأخری بأول وسام للشهادة فی الصدر الأول للإسلام، بل هی کتابة عن کلّ المعذبین أمثال بلال وصهیب وخباب... والدین الجدید یخطو خطواته الأولی إلی قلوب الناس؛ لهدیهم وإرشادهم، وانقاذهم من الظلم والضلالة والضیاع الی حیث برّ الأمان فی الدنیا، والی حیث النجاة فی الآخرة.

قبل الهجرة النبویة الشریفة بسبع وخمسین سنة، فی مکّة، فی حی بنی مخزوم، ولد عمّار بن یاسر، من أبٍ عربی یمنیٍّ وهو یاسر بن عامر بن مالک الکنانی المذحجی العنسی القحطانی.

قدم یاسر من بلاد الیمن مع أخویه الحارث ومالک باحثین عن أخٍ رابع لهم فی رحلة طویلة شاقة، انتهت بهم الی مکّة، فرجع الحارث ومالک الی الیمن، فیما ألقی یاسر عصاه بها، وحالف أبا حذیفة بن المغیرة بن عبداللَّه بن عمر بن مخزوم، فاقترن بسمیة بنت خیاط من جواری أبی حذیفة، ثم أعتقه هذا الأخیر بعد أن ولد لهما عمار، ومن هناصار عمّار وهو العربی القحطانی مولیً لبنی مخزوم. ولکنهما (یاسر وسمیة) بقیا مع أبی حذیفة الی أن مات.

کان عمّار یقول: کنتُ ترباً لرسول اللَّهصلی الله علیه و آله لسنّه، لم یکن أقرب به سنّاً منی. کما کان أخاً لأمّ سلمة زوج الرسولصلی الله علیه و آله من الرضاعة (۱).

صفاته:

کان عمّار أدم اللون، طُوالًا، جعد الشعر، حیث توجد شعرات فی مقدم رأسه، وفی مؤخره أیضاً وما بینهماصلع، فیه حبشیة، مجدَّع الأنف، أشهل العینین، لا یغیر شیبه. بعید ما بین المنکبین، وکان شجاعاً قویّاً ذا فصاحة وبیان ورأی سدید..

ومنصفاته أیضاً أنه کان طویل الصمت، طویل الحزن والکآبة، وکان عامة کلامه عائذاً باللَّه من فتنته (۲).

إسلامه:

وفی قصة إسلامه التی وقعت وکان

۱- ۱ سیرة ابن هشام ۱/ ۱۶۲.

۲- ۲ حلیة الأولیاء:ص ۱۴۲.

ص: ٢١٢

له من العمر أربع وأربعون سنة فى دار الأرقم، التى كانت تدعى بدار الإسلام؛ لأنّها الدار التى كان يتم فيها إسلام الراغبين باعتناق الدين الجديد يقول عمّار: لقيتصهيب بن سنان على باب دار الأرقم، ورسول اللّهصلى الله عليه و آله فيها، فقلتُ له: ما تريد؟ قال لى: ما تريد أنت؟

فقلتُ: أردتُ أن أدخل على محمد فأسمع كلامه، قال: وأنا أريد ذلك، فدخلنا عليه، فعرض علينا الإسلام، فأسلمنا، ثم مكثنا يومنا على ذلك حتى أمسينا، ثم خرجنا ونحن مستخفون.

وكان عمار وأبواه وكذلك أخوه عبداللّه من المبادرين لاعتناق الدين الإسلامى، ومن الأوائل الذين أظهروا إسلامهم وجهروا به، فنالوا بذلك وسام السابقين وفضلهم بعد أن حرم منهما كثيرون. ولم ينجو كلّ منهم- بسبب ذلك- من سخط وغضب مشركى قريش وزعمائهم أبى جهل وشركائه، ونقمة بنى مخزوم الذين تولوا تعذيبهم، وأنزلوا بهم ألوان العذاب وصنوفه. باءت كلّها بالفشل، ولم تنل منصمودهم، ولم يحصل الطغاة إلّاشيئاً أباحه عمار.

وكان ذلك الصمود كلّه والثبات كلّه بسبب عمق العقيدة فى نفوسهم ومكانتها فى قلوبهم. وكانت لزيارة رسول اللّهصلى الله عليه و آله لهم فى الأبطح ودعائه وأقواله لهم دور كبير فى ذلك الثبات «صبراً أبا اليقظان،صبراً آل ياسر...

فإن موعدكم الجنة»..

لقد كانتصدورهم وصدور مَن معهم كصهيب وبلال وخباب... أقوى من الحجارة الرمضاء الملتهبة بحرارتها، وكانت أجسادهم أقوى من مكاوى النار التى ينزلونها عليهم، ومن دروع الحديد التى ألبسوها لهم وصهروهم بالشمس، وأصبر من كلّ شىء حتى بلغ الجهد منهم كلّ مبلغ، ففارقت روح سميّة الدنيا ونالت بذلك وسام أول شهيدة فى الإسلام لم يسبقها أحدٌ الى هذا الوسام من الرجال أو النساء (١).

بعد أن ربطت بين بعيرين وطعنها أبو جهل رأس الشرك والنفاق بحربة فى قُبُلِها فقتلها. وقتل بعدها زوجها، فكان هو الآخر أول شهيد من الرجال عرفته الساحة الإسلامية يومذاك.

لقد كان عمار وأبوه وأمّه قوماً من

١- ١ الطبقات ٣/ ٢٤٧.

ص: ٢١٣

المستضعفين في مكّة وهم الذين لا عشائر لهم تدفع عنهم، وليست لهم منعة ولا قوة، فكانت قريش لا تخشى أحداً فيهم، فتذيقهم أشدَّ العذاب في رمضاء مكّة وفي نهارها؛ لعلّهم يرجعون عن دينهم، ويتخلون عن محمد ودعوته. وما كيد هؤلاء المشركين إلّا في تباب.

لقد ترك ذلك التعذيب آثاره على هذه الأجسام المتشربة بحلاوة الإيمان لسنين طويلة مرّت عليها، فهي على ظهر عمار حتى آخر حياته. تقول الرواية التي يقول فيها محمد بن كعب القرظي: أخبرني مَن رأى عمار بن ياسر متجرداً من سراويل، قال:

فنظرت الى ظهره فيه خيط كبير، فقلت: ما هذا؟ قال: هذا مما كانت تعذبني به قريش في رمضاء مكّة (١).

أقوال النبيّصلى الله عليه و آله في آل ياسر:

كانت لآل ياسر مكانة مرموقة عند رسول اللّهصلى الله عليه و آله وحظي عمار بالذات بمنزلة رفيعة عندهصلى الله عليه و آله لا ينالها إلّاذو حظ عظيم. فقد كانصلى الله عليه و آله كثير الترحيب به وكان يدفع عنه، ويضفي عليه من الكنى والألقاب والصفات الحسنة ما جعله موضع احترام عند المسلمين عامة والصحابة خاصة.

فقد سمّاهصلى الله عليه و آله الطيّب المطيَّب، وكان يناديه أبا اليقظان. ومن دعائه وأقوالهصلى الله عليه و آله فيهم: اصبروا آل ياسر، فإن موعدكم الجنة، اللهم اغفر لآل ياسر، وقد فعلتَ. كان ذلك منهصلى الله عليه و آله حينما يمرّ بهم في الأبطح وهم يعذبون...

وفي رواية عمرو بن ميمون:

عذّب المشركون عماراً بالنار، فكان النبيصلى الله عليه و آله يمرّ به، فيُمرّ يده على رأسه ويقول: يا نار كوني برداً وسلاماً على عمّار، كما كنت على إبراهيم. ثم يقول:

تقتلك الفئة الباغية (٢).

وفي رواية... وقاتله وسالبه في النار.

وعن هانئ بن هانئ قال: استأذن عمار على علي عليه السلام فقال: ائذنوا له، مرحباً بالطيب المطيَّب، سمعت رسول اللّهصلى الله عليه و آله يقول: عمّار مُلئ إيماناً الى مشاشه (ما تحت عظامه).

وضربصلى الله عليه و آله مرّة خاصرته وقال:

هذه خاصرة مؤمنة.

١- ١ مختصر تاريخ دمشق ١٨/ ٢٠٨.

٢- ٢ مختصر تاريخ دمشق ١٨/ ٢١٢.

ص: ۲۱۴

وفى الدفاع عنه، ومنع من يريد أذية عمار، قالصلى الله عليه و آله: مَن حقّر عماراً حقّره اللّه... ومَن عادى عماراً عاداه اللّه. ومن أبغض عماراً أبغضه اللّه. عمار جلدة بين عينى.

ودخل عمّار على رسول اللّهصلى الله عليه و آله يشكو خالد بن الوليد فقال: يا رسول اللّه، لقد حَمش قوماً (ساقهم بغضب) قدصلوا وأسلموا، ثم وقع بخالد عند النبيّصلى الله عليه و آله، وخالد جالس لا يتكلم، فلما قام عمار وقع به خالد، فقال النبيّصلى الله عليه و آله: مه يا خالد! لا تقع بأبى اليقظان، فإنه من يُعاده يُعاده اللّه، ومن يُبغضه يُبغضه اللّه، ومَن يُسفهه يُسفهه اللّه (١).

وعن رسول اللّهصلى الله عليه و آله... ما خير عمار بين أمرين إلّااختار أرشدهما.

.. دم عمار ولحمه حرام على النار أن تأكله أو تمسّه.

وقال أنس قالصلى الله عليه و آله: ثلاثة تُساق إليهم الجنة: على وعمار وسلمان.

وفى رواية أربعة: على وعمار وسلمان والمقداد.

وليس هذا قد ورد فى فضله فحسب بل كانصلى الله عليه و آله يقول للمسلمين: «اهتدوا بهدى عمّار» (٢).

عمار وآيات قرآنية:

ذكرت بعض الروايات والأخبار أن هناك آيات قرآنية نزلت فى عمار أو فى جمع كان عمار أحدهم، وأن هناك غيرها فسّرت فيه، ومن هذه الآيات:

* مَن كفرَ باللّهِ من بعد إيمانه إلّا مَن أُكره وقلبه مطمئِنٌ بالإيمان... (٣)

.

والذى ورد فى ذلك أنّه لما جهر عمار وأبواه بإسلامهم، وعرفت بهم قريش وبنو مخزوم، عذبوهم أشد العذاب، وألبسوهم أدراع الحديد، ثمصهروهم تحت الشمس على أن يتركوا الإسلام وهم يأبون من ذلك. حتى ورد أن عمار ابن ياسر كان يعذب حتى لا يدرى ما يقول وكانصهيب يعذب حتى لا يدرى ما يقول... فقتلوا أمّه وقتلوا أباه، وأما عمار فقد أعطى معذّبيه ما أرادوا منه (۴).

ذكر المفسرون أنّ هذه الآية نزلت فى عمار بن ياسر، وقيل فى جماعة أكرهوا وكان عمار أحدهم، وهم عمار وياسر أبوه وأمّه سمية وصهيب وبلال

١- ١ كتاب المغازى للواقدى ٣/ ٨٨٣.

٢- ٢ مختصر تاريخ دمشق ١٨/ ٢١٢.

٣- ٣ النحل: ١٠۶.

۴- ۴ مختصر تاريخ دمشق ١٨/ ٢٠٨.

ص: ٢١٥

وخباب عـذبوا وقتل أبو عمار وأمّه، وأعطاهم عمار بلسانه ما أرادوا منه، ثم أخبر سبحانه بـذلك رسول اللَّهصـلى الله عليه و آله، فقال قوم: إن عماراً قد كفر. فقال رسول اللَّهصلى الله عليه و آله: كلا، إن عماراً ملئ إيماناً من قرنه (فرقه) إلى قدمه، واختلط الإيمان بلحمه ودمه. فجاء عمار رسول اللَّهصلى الله عليه و آله وهو يبكى. فقالصلى الله عليه و آله: ما وراءَك؟ فقال: شرٌّ يا رسول اللَّه ما تُركتُ حتى نلتُ منك، وذكرتُ آلهتهم بخير.

فجعل رسول اللَّهصـلى الله عليه و آله يمسـح عينيه، ويقول: إن عادوا لك فعـد لهم بما قلت، وفى رواية أن رسول اللَّهصـلى الله عليه و آله قال له بعد أن سمع مقالته: كيف تجد قلبك؟ قال:

مطمئناً بالإيمان، قال: إن عادوا فعد (١). وهذا ما اجتمع أهل التفسير عليه (٢).

* والذين هاجروا فى‌اللَّه من بعد ما ظُلِموا لنبوئَنهم فى الدنيا حسنةً ولأجرُ الآخرة أكبرُ لو كانوا يعلمون (٣)

.

لم تزل قريش تـذيق فريقـاً ممّن آمن بـاللَّه ورسوله سوءَ العـذاب، فلعلّها تحقق مرادها منهم، أن يكفروا بمحمـدٍ ورسالته، ويعودوا الى ملتهم الأولى عبادة اللّات والعزى... لكنّ محاولاتها هـذه لم تنفعها شـيئاً، إنما الذى حصل هو أن تعذيبها لهم كلّ ما ازداد شدّة وقسوة ازداد معهصـمود المعـذَّبين، فقرر هؤلاء الهجرة عن هـذه البلاد فى أول فرصـة لهم، وهذا ما تمّ بالفعل فهاجروا جميعاً الى حيث هاجر رسول اللَّهصلى الله عليه و آله الى المدينة المنورة، فأنزل اللَّه تعالى فيهم هذه الآية.

تقول الروايـة: كان عمار بن ياسـر يعـذب حتى لا يـدرى ما يقول، وكانصـهيب يعـذب حتى لا يـدرى ما يقول، وبلال وعامر بن فهيرة وقوم من المسـلمين، وفيهم نزلت هـذه الآية... (۴) يقول الشـيخ الطبرسـى: نزلت فى المعذَّبين بمكّة مثل:صـهيب وعمار وبلال وخباب وغيرهم مكّنهم اللَّه بالمدينـة، وذكر أنصـهيباً قال لأهل مكّـة: أنا رجل كبير إن كنت معكم لم ينفعكم، وإن كنتُ عليكم لم يضـركم، فخذوا مالى ودعونى، فأعطاهم ماله، وهاجر الى رسول اللَّهصلى الله عليه و آله فقال له أبو بكر: ربح

١- ١ انظر تفسير مجمع البيان والتفسير الكبير للرازى وغيرهما.

٢- ٢ ابن عبد البر فى الاستيعاب.

٣- ٣ النحل: ۴١.

۴- ۴ مختصر تاريخ دمشق ١٨/ ٢٠٨.

ص: ۲۱۶

البیع یاصـهیب. ویروی أن عمر بن الخطاب کان إذا أعطی أحـداً من المهاجرین عطاءً، قال له: خـذ هـذا ما وعـدک اللّه فی الدنیا، وما أخّره لک أفضل، ثم تلا هذه الآیة (۱).

وقال الواحدی فی أسبابه: نزلت فی أصـحاب النبیّصـلی الله علیه و آله بمکة: بلال، وصـهیب، وخبّاب، وأبی جندل بن سهیل، أخذهم المشرکون بمکّة فعذبوهم وآذوهم، فبوأهم اللّه تعالی المدینة بعد ذلک (۲).

لقـد بـوّأهم اللّه تعـالی مکانـاً محموداً بین اخوانهم المسـلمین المهـاجرین والأنصـار، وجعـل لهم ذکری طیبـة تتناقلهـا ألسـنة المؤمنین المجاهـدین، وصاروا قـدوة حسـنة لکل المجاهـدین ضد الطغیان والتعسف، ولهم بالآخرة جنة الخلد حیث النعیم المقیم. ولا غرابة فی ذلک فقـد أعطی عمار واخوانه کلّ شـیء، وقـدموا أنفسـهم رخیصة، وتحملوا عذاباً ما أقساه وأعظمه! فأعطاهم اللّه تعالی حسن الدنیا وأجر الآخرة ونعیمها.

* وأنذر به الذین یخافون أن یحشروا الی ربّهم ولا تطرد الذین یدعون ربهم بالغداة والعشی یریدون وجهه... (۳)

.

لم ینفـکّ طغیـان قریش وکبریاؤها یلاحق هـذه الفئـة المؤمنـة، بعـد أن عجزت کلّ محاولاتها وأسالیبها القـذرة فی إطفاء نور الرسالة وإخمادهـا. فبـدأوا بأسـلوب آخر: أن اطرد یـا محمـد هؤلاـء «عمـار وصـهیب وبلاـل وخباب...» فنجلس معک وقـد نتبعک. کم لهـذا الموقف من شبه بموقف قوم نوح حیث قال زعماؤهم وکبراؤهم: ما نراک اتبعک إلّاالذین هم أراذلنا بادی الرأی (۴)

.

فلعـلّ هـدف مشـرکی قریش أو بعض المؤلفـة قلوبهم لم یکن إلّازرع بـذرة الشـقاق بین محمـد وأصـحابه، إذا ما طردهم من مجلسـه لیجلس زعماء قریش بـدلًا منهم، وکم لهذا الموقف من أثر علی نفوسـهم وهم یرون معذِّبیهم مقدمین فی مجلس رسول اللّهصـلی الله علیه و آله وهم مبعدون عنه، وکم ستکون ذلتهم کبیرة وقاسیة علیهم؟! وهل هذه مکافأتهم، وهل هذا جزاءصمودهم وثباتهم؟!

۱- ۱ تفسیر مجمع البیان للطبرسی ۶/ ۵۵۷، وفی تفسیر الآیة من سورة النحل.

۲- ۲ أسباب نزول القرآن للإمام أبی الحسن الواحدیص ۲۸۵.

۳- ۳ الأنعام: ۵۱.

۴- ۴ هود: ۲۷.

ص: ۲۱۷

وهنا تدخلت السماء لما لهذا الأمر من خطورة، لتمنع مثل هذه المحاولات ولتقف بحزم إزاءَها، ولتزید تکریمها لهذهِ الفئة الرسالیة.

روی الثعلبی بإسناده عن عبداللَّه بن مسعود، قال: مرّ الملأ من قریش علی رسول اللّهصلی الله علیه و آله وعندهصهیب وخباب وبلال وعمار وغیرهم من ضعفاء المسلمین، فقالوا: یا محمد أرضیت بهؤلاء من قومک؟ أفنحن نکون تبعاً لهم؟ أهؤلاء الذین منّ اللَّه علیهم؟ اطردهم عنک فلعلک إن طردتهم اتبعناک، فأنزل اللَّه تعالی: ولا تطرد....

وقال سلمان وخبّاب: فینا نزلت هذه الآیة، جاء الأقرع بن حابس التمیمی وعیینة بن حصین الفزاری وذووهم من المؤلفة قلوبهم، فوجدوا النبیّصلی الله علیه و آله قاعداً مع بلال وصهیب وعمار وخباب فی ناس من ضعفاء المؤمنین فحقروهم، وقالوا: یا رسول اللَّه لو نحیتَ هؤلاء عنک حتی نخلو بک. فإن وفود العرب تأتیک فنستحی أن یرونا مع هؤلاء الأعبد، ثم إذا انصرفنا، فإن شئت فأعدهم الی مجلسک، فأجابهم النبیصلی الله علیه و آله إلی ذلک، فقالا له: اکتب لنا بهذا علی نفسک کتاباً، فدعا بصحیفة وأحضر علیاً لیکتب.

قال: ونحن قعود فی ناحیة إذ نزل جبریل علیه السلام بقول: ولا تطرد الذین یدعون... إلی قوله: ألیس اللَّه بأعلم بالشاکرین.

فنحّی رسول اللّهصلی الله علیه و آله الصحیفة وأقبل علینا ودنونا منه، وهو یقول: کتب ربّکم علی نفسه الرحمة. فکنا نقعد معه... (۱)

وعن عکرمة، قال: جاء آل شیبة وعتبة ابنا ربیعة ونفرٌ معهما سمّاهم أبو طالب، فقالوا: لو أن ابن أخیک محمداً یطرد موالینا وحلفاءَنا، فإنما هم عبیدنا وعُسَفاؤنا (۲) کان أعظم فیصدورنا، وأطوعَ له عندنا. فأتی أبو طالب النبیصلی الله علیه و آله فحدثه بالذی کلموه، فأنزل اللَّه عزّوجلّ: الآیة. قال وکانوا بلالًا وعمار ابن یاسر مولی أبی حذیفة بن المغیرة، وسالماً مولی أبی حذیفة بن عتبة، وصُبیحاً مولی أسید، ومن الحلفاء ابن مسعود، والمقداد بن عمرو

۱- ۱ تفسیر مجمع البیان للطبرسی فی تفسیر الآیة.

۲- ۲ العسیف: الأجیر المستهان به. انظر اللسان: عسف.

ص: ٢١٨

وغيرهم (١).

* واصبر نفسک مع الذين يدعون ربَّهم بالغداة والعشی يريدون وجهه... (٢)

.

... فكنـا «سـلمان وخبـاب وعمـار...» نقعـد معه، فـإذا أراد أن يقوم، قـام وتركنـا، فـأنزل اللَّه عزّوجلّ واصبر نفسک... قال: فكان رسول اللَّهصـلی الله عليه و آله يقعـد معنا ويـدنو حتی كادت ركبتنا تمسّ ركبته، فإذا بلغ الساعة التی يقوم فيها قمنا وتركناه حتی يقوم، وقال لنا:

الحمـد للَّهالـذی لم يمتنی حتی أمرنی أن اصبر نفسـی مع قوم من أمتی، معكم المحيـا ومعكم الممـات... (٣) ويذكر الطبرسـی رواية أخری فی تفسيره للآية من سورة الكهف: نزلت فی سلمان وأبی ذر وصهيب وعمار وخباب وغيرهم من فقراء أصحاب النبیّصلی الله عليه و آله وذلـک أن المؤلفـة قلوبهم جـاؤوا الی رسول اللَّهصـلی الله عليه و آله وهم عيينـة بن الحصـين والأقـرع بن حابس وذووهم، فقـالوا: يـا رسول اللَّه إن جلست فيصـدر المجلس ونحيت عنـا هؤلاء روائحصـنانهم، وكانت عليهم جبات الصوف، جلسـنا نحن إليک وأخذنا عنک، فلا يمنعنا من الدخول عليک إلّاهؤلاء، فلما نزلت الآية قام النبیّصلی الله عليه و آله يلتمسهم فأصابهم فی مؤخر المسجد يذكرون اللَّه عزّوجلّ، فقال: الحمد للَّهالذی لم يمتنی... (۴)وهناک آيات أخر قال بعضهم: إنها فی عمار نزولًا أو تفسيراً، منها:

* أمَّن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربّه (۵)

.

وهو قول ابن عباس ومقاتل عن (۶) أبی بكر بن عياش (٧).

* هل يستوی الذين يعلمون والذين لا يعلمون قال ابن عياش أيضاً: عمار والذين لا يعلمون مواليه بنو المغيرة (٨).

* ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلّاقليل منهم (٩)

.

القليل هم عبـداللَّه بن مسـعود وعمار ابن ياسـر، وهو قول عكرمة. وفی مجمع البيان: إلا قليل منهم قيل: إن القليل الذی اسـتثنی اللَّه هو ثابت بن قيس بن

١- ١ مختصر تاريخ دمشق ١٨/ ٢١٠.

٢- ٢ الكهف: ٢٨.

٣- ٣ مجمع البيان للطبرسی ٣/ ۴٧٣.

۴- ۴ مجمع البيان للطبرسی ۶/ ٧١٨ فی تفسير الآية من سورة الكهف. أسباب النزول للواحدی.

۵- ۵ الزمر: ٩.

۶- ۶ اسباب النزول للواحدی، ومختصر تاريخ دمشق ١٨/ ٢١٠.

٧- ٧ رجال الحديث للسيد الخوئی ٣/ ٢٨٨.

٨- ٨ ١٣/ ٢٨٨.

٩- ٩ النساء: ۶۶.

ص: ۲۱۹

شماس، وقیل هو جماعهٔ من أصحاب رسول اللَّه، قالوا: واللَّه لو أمرنا لفعلنا، فالحمد للَّهالذی عافانا، ومنهم عبداللَّه ابن مسعود وعمار بن یاسر، فقال النبیصلی الله علیه و آله: إن من أمتی رجالًا الإیمان فی قلوبهم أثبت من الجبال الرواسی (۱).

* ما لنا لا نری رجالًا کنا نعدّهم من الأشرار (۲)

.

قال مجاهد: یقول أبو جهل فی النار:

أین عمّار، أین بلال؟

وقیل: نزلت فی أبی جهل والولید ابن المغیرهٔ وذویهما یقولون: ما لنا لا نری عمّاراً وخباباً وصهیباً وبلالًا، الذین کنا نعدهم فی الدنیا من جملهٔ الذین یفعلون الشرّ والقبیح ولا یفعلون الخیر؟! (۳)* أفمن یُلقی فی النار خیرٌ أم من یأتی آمناً یوم القیامهٔ (۴)

.

عن عکرمهٔ: أنها نزلت فی عمار بن یاسر، (وهو الذی یأتی آمناً یوم القیامهٔ) وفی أبی جهل (الذی یُلقی فی النار).

* أومَن کان میتاً فأحییناه وجعلنا له نوراً یمشی به فی الناس کمن مثله فی الظلمات لیس بخارج منها (۵)

.

عن عکرمهٔ: فی أبی جهل وعمار (صاحب النور).

* فإن تنازعتم فی شیء فردوه إلی اللَّه والرسول إن کنتم تؤمنون باللَّه والیوم الآخر (۶)

.

فعن ابن عباس: بعث رسول اللَّهصلی الله علیه و آله خالد بن الولید بن المغیرهٔ فی سریهٔ- قال: ومعه فی السریهٔ عمّار بن یاسر- الی حیّ من قریش، أو من قیس، حتی إذا دنَوا من القوم جاءهم النذیر فهربوا، وثبت رجل منهم، کان قد أسلم هو وأهل بیته، فقال لأهله: کونوا علی رجل حتی آتیکم. قال:

فانطلق حتی دخل فی العسکر، فدخل علی عمار بن یاسر، فقال: یا أبا الیقظان، إنی قد أسلمت وأهل بیتی، فهل ذلک نافعی أم أذهب کما ذهب قومی؟ قال: فقال له عمار: أقم، فأنت آمن. قال: فرجع الرجل فأقام، وصبحهم خالد بن الولید، فوجد القوم قد أنذروا، وذهبوا، فأخذ الرجل،

۱- ۱ مجمع البیان فی تفسیر الآیهٔ.

۲- ۲ سورهٔص: ۶۲.

۳- ۳ مجمع البیان. والتفسیر المنیر للدکتور الزحیلی فی تفسیر الآیهٔ.

۴- ۴ فصلت: ۴۰.

۵- ۵ الأنعام: ۱۲۲.

۶- ۶ النساء: ۵۹.

ص: ۲۲۰

فقال له عمار: إنّه لیس لک علی الرجل سبیل، إنّی قد أمّنته، وقد أسلم، قال:

وما أنت وذاک؟ أتجیر علیَّ وأنا الأمیر؟! قال: نعم، أُجیر علیک، وأنت الأمیر، إنّ الرجل قد أسلم، ولو شاء لذهب کما ذهب قومه، قال: فتنازعا فی ذلک حتی قدما المدینة، فاجتمعا عند رسول اللَّهصلی الله علیه و آله فذکر عمار للنبیِّصلی الله علیه و آله الذی کان من أمر الرجل، فأجاز أمان عمار، ونهی یومئذ أن یُجیر رجلٌ علی أمیر، فتنازع عمار وخالد عند رسول اللَّهصلی الله علیه و آله حتی تشاتما.

فقال خالد: أیشتمنی هذا العبد عندک؟

أما واللَّه لولاک ما شتمنی.

قال: فقال نبیّ اللَّهصلی الله علیه و آله: کُفَّ یا خالد عن عمّار، فإنّه مَن یبغض عماراً یبغضه اللَّه عزّوجلّ، ومن یلعن عماراً یلعنه اللَّه، قال: وقام عمار فانطلق، فاتبعه خالد وأخذ بثوبه، فلم یزل یترضاه حتی رضی عنه، قال: وفیه نزلت:

... فإن تنازعتم فی شیء فردوه الی اللَّه والرسول... الآیة (۱).

صفحاتٌ اخر من حیاته المبارکة:

أبو الیقظان واحد من الذین حظوا بوسام الهجرتین وأوسمة أخر، هاجر الهجرة الأولی مع من هاجر من المسلمین وکانت یومذاک إلی الحبشة (وإن تردّد بعضهم فی هجرته الی الحبشة واختلفوا فی وقوعها) (۲) من بعد ما ظلموا وعذبوا واضطهدوا أیما اضطهاد من قبل مشرکی مکة وطغاتها، وبعد أن سمعوا قول رسول اللَّهصلی الله علیه و آله: لو خرجتم الی أرض الحبشة! فإن فیها ملکاً لا یُظلَم أحدٌ عنده، وهی أرضصدق حتی یجعل اللَّه فرجاً مما أنتم فیه... (۳)وأما الهجرة الثانیة فکانت الی المدینة، وما إن وطأت قدماه تراب هذه الأرض، وکان اللقاء برسول اللَّهصلی الله علیه و آله حتی آخیصلی الله علیه و آله بینه وبین حذیفة بن الیمان، ثم راح عمار یجمع أحجاراً لیبنی بها مسجداً لرسول اللَّهصلی الله علیه و آله، فکان مسجد قباء، وکان عمار أول مَن بنی مسجداً فی الإسلام.

ولم یکتف عمار بذلک فقد اشترک مع الصحابة الآخرین فی بناء مسجد النبیِّصلی الله علیه و آله. فلما قدم النبیصلی الله علیه و آله المدینة قال:

ابنوالنامسجداً، قالوا: کیف یا رسولاللَّه؟

قال: عرش کعرش موسی، ابنوه

۱- ۱ مختصر تاریخ دمشق ۱۸/ ۲۱۴، أسباب النزول للواحدی، سورة النساء، الآیة.

۲- ۲ البدایة والنهایة، ومختصر تاریخ دمشق، ترجمة عمار ۳/ ۶۹.

۳- ۳ الطبری ۱/ ۵۴۷.

ص: ۲۲۱

لنا بلَبن، فجعلوا يبنون ورسول اللّهصلى الله عليه و آله يعاطيهم اللّبن عليصدره، ما دونه ثوب، وهو يقول:

اللهم، إنّ العيشَ عيشُ الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة فمرّ عمار بن ياسر، فجعل رسول اللّهصلى الله عليه و آله ينفض التراب عن رأسه ويقول: ويحك يا بن سمية، تقتلك الفئة الباغية.

لقدكان عمار الى جوار رسول اللّهصلى الله عليه و آله الذى كان هو الآخر يحمل الحجارة معهم، ويومها كان عمار يرتجز ويقول:

نحن المسلمون نبتنى المساجدا

ورسولُ اللّهصلى الله عليه و آله يردّد مع المسلمين:

المساجدا.

و راح عمار ينشد ما كان ير تجزبه علىّ عليه السلام:

لا يستوى من يعمر المساجدا يظلّ فيها راكعاً وساجداً أو: يدأب فيها قائماً وقاعدا

ومن تراه عانداً معانداً عن الغبار لا يزال حائداً أو: من يُرى عن الغبار حائدا

يقول ابن هشام فى سيرته:...

فدخل عمار وقد أثقلوه باللبن. فقال يا رسول اللّه: قتلونى، يحملون علىَّ ما لا يحملون.

وعن مجاهد: رآهم رسول اللّهصلى الله عليه و آله وهم يحملون الحجارة على عمار، وهو يبنى المسجد، فقال: ما لهم ولعمار، يدعوهم الى الجنة ويدعونه الى النار، وذلك فعل الاشقياء الأشرار.

كما كان ممّن شهدوا بيعة الحديبية التى تمّت تحت الشجرة المعروفة وهى شجرة السمرة، وسميت هذه البيعة ببيعة الرضوان، وجاءت هذه التسمية من الرضا الوارد فى الآية النازلة فيها: لقد رضى اللّهُ عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً ومغانم كثيرة يأخذونها وكان اللّهُ عزيزاً حكيماً... (۱)

.

وكما كان عمار من السابقين الى اعتناق الإسلام، كان من المبادرين إلى الاشتراك فى معارك الإسلام الكبرى، فشهد بدراً فنال بذلك وسام البدريين وأحداً والخندق ومعركة حنين كما لم

۱- ۱ الفتح: ۱۸- ۱۹.

ص: ٢٢٢

يتخلف عن مشاهد ومعارك الإسلام الأخرى حتى بعد وفاة رسول اللَّهصلى الله عليه و آله فقد شارك فى معارك الردّة، اليمامة، وفى الفتوحات الإسلامية زمن الخلفاء، وكان له دور كبير فى معركتى الجمل وصفين التى استشهد فيها.

وفى حفر الخندق: كان لعمار- مع كونهصائماً- السبق فى ذلك، يقول جابر بن عبداللَّه: إن رسول اللَّهصلى الله عليه و آله والمسلمين لما أخذوا فى حفر الخندق جعل عمار بن ياسر يحمل التراب والحجارة فى الخندق، فيطرحه على شفيره، وكان ناقهاً من مرض،صائماً، فأدركه الغشى، فأتاه أبو بكر، فقال:

أربع على نفسك (كفَّ وارفق) يا عمار، فقد قتلت نفسك، وأنت ناقه من مرض، فسمع رسول اللَّهصلى الله عليه و آله قول أبى بكر، فقام، فجعل يمسح التراب عن رأس عمار ومنكبه وهو يقول: يزعمون أنك متّ، وأنك قد قتلت نفسك، كلا واللَّه حتى تقتلك الفئة الباغية.

وفى معركة اليمامة سنة ١١ ه ضد المرتدين مسيلمة الكذاب وجنده وقع قتال وصفه الطبرى بقوله: ثم التقى الناس ولم يلقهم حربٌ قطّ مثلَها من حرب العرب، فاقتتل الناس قتالًا شديداً... (١) وكان لعمار بن ياسر أيضاً دور كبير فيها، وفى تثبيت المسلمين وتحقيق النصر. وقد اصيبت أذنه يومها، فعن ابن عمر أنه قال: رأيت عمار بن ياسر يوم اليمامة عليصخرة وقد أشرف يصيح: يا معشر المسلمين، أمن الجنة تفرّون، أنا عمار بن ياسر، هلمّ إليَّ، وأنا أنظر الى أذنه قد قطعت، فهى تَذبذَب، وهو يقاتل أشدَّ القتال (٢).

وكان جدع أذنه موضع فخر له فيما راح آخرون يعيرونه به، فإذا ما اختلفوا معه وتنازعوا، قالوا له: أيها العبد المجدَّع. فكان يجيبهم: عيرتمونى بأحبّ أذنىّ إلىّ- أو خير أذنىّ.

وفى عهد الخليفة الثانى تولى عمار ولاية الكوفة لأكثر من سنة، وقد جاء فيما كتبه عمر إلى أهل الكوفة: أما بعد، فإنى قد بعثت إليكم عماراً أميراً، وعبداللَّه بن مسعود معلماً (قاضياً) ووزيراً، وإنهما من نجباء أصحاب محمدصلى الله عليه و آله ممن شهدا بدراً، فاسمعوا لهما

١- ١ تاريخ الطبرى ٢/ ٢٧٩.

٢- ٢ مختصر تاريخ دمشق ١٨/ ٢١٩.

ص: ۲۲۳

وأطیعوا (واقتدوا بهما)، وقد آثرتکم بهما علی نفسی (۱).

إلی غیر ذلک من الأوسمة الکبیرة التی حاز علیها هذا الصحابی الجلیل...

مروياته:

ذُکر فی عدّة الرجال أن یعقوب بن شیبةصنف مسند عمار بن یاسر، وهناک فی جامع المسانید والسنن مسندٌ لعمار ذُکر فیه مَن روی عنه کما ذُکرت فیه مرویاته عن رسول اللَّه (۲) کما ذکرصاحب الأعلام أن عماراً روی اثنتین وستین روایة عن رسول اللَّهصلی الله علیه و آله وممّا رواه:

... قال: سمعتُ رسول اللَّهصلی الله علیه و آله یقول:

إن طولصلاة الرجل وقصر خطبته مِئنَّة، فأطیلوا الصلاة، وأقصروا الخطبة، فإن من البیان سحراً (۳).

... قال عمار: قال رسول اللَّهصلی الله علیه و آله:

کفی بالموت واعظاً وکفی بالیقین عزّاً.

وعن ابن عباس، عن عمار بن یاسر قال: کنا مع رسول اللَّهصلی الله علیه و آله حین احتبس عن قلادة عائشة بذات الجیش، فلما طلع الفجر أو کاد نزل آیة التیمم.

فمسحنا الأرض بالأیدی، ثم مسحنا الأیدی الی المناکب ظهراً وبطناً، وکان یجمع بین الصلاتین فی سفره (۴).

وفی روایة أخری لعمار کما فی أسباب النزول للواقدی: عرّس رسول اللَّهصلی الله علیه و آله بذات الجیش، ومعه عائشة زوجته، فانقطع عقد لها من جذع ظفار فحبس الناس ابتغاء عقدها ذلک حتی أضاء الفجر، ولیس مع الناس ماء... فأنزل اللَّه تعالی علی رسولهصلی الله علیه و آله قصة التطهر بالصعید الطیب، فقام المسلمون فضربوا بأیدیهم الأرض ثم رفعوا أیدیهم، فلم یقبضوا من التراب شیئاً، فمسحوا بها وجوههم وأیدیهم الی المناکب، وبطون أیدیهم الی الآباط (۵).

من دعائه وأقواله الأخری:

نسبت لعمار أقوال کثیرة وأدعیة تدلنا علی عمق إیمانه وحکمته، وکان منها:

کان عمار بن یاسر مع جماعة فی المسجد وعنده أعرابی، فذکروا المرض، فقال الأعرابی: ما مرضتُ قط، فقال عمار: ما أنت؟! أو لست منا؟! إن المسلم یُبتلی بالبلاء، فیکون کفارة

۱- ۱ مختصر تاریخ دمشق ۱۸/ ۲۱۹ والاستیعاب.

۲- ۲ جامع المسانید والسنن لعماد الدین الدمشقی ۹/ ۳۲۹- ۳۸۸.

۳- ۳ مختصر تاریخ دمشق ۱۸/ ۲۲۰، ومعنی الحدیث أن ذلک مما یعرف به فقه الرجل، انظر اللسان: مأن.

۴- ۴ کتاب المغازی للواقدی ۲/ ۴۳۵.

۵- ۵ أسباب النزول للواقدی فی سبب نزول آیة التیمم، الآیة ۴۳ من سورة النساء.

ص: ٢٢٤

خطاياه فتتحات كما يتحاتّ ورق الشجر، وإن الكافر يُبتلى، فيكون مثله كمثل البعير عُقل، فلا يدرى لم عُقل، وأُطلق فلا يدرى لم اطلق (١).

ومرّ عمار بن ياسر على ابن مسعود يَرْسُسُ داره، فقال: كيف ترى يا أبا اليقظان؟ قال: أراك بنيت شديداً، وأمّلت بعيداً، وتموت قريباً (٢).

ومن أقواله كفى بالموت موعظة، وكفى باليقين غنى، وكفى بالعبادة شغلًا (٣).

ومن دعائه رضوان اللَّه عليه:

اللهم، اجعلنى من عبادك الصالحين، وأعطنى منصالح ما تعطى عبادك الصالحين، من الأمانة، والإيمان، والأجر، والعافية، والمال، والولد النافع غير الضار ولا المضر، ولا الضالّ ولا المضلّ (۴).

وعن عبدالرحمن بن أبزى عن عمار أنه قال- وهو يسير على شط الفرات-:

اللهم لو أعلم أن أرضى لك عنى أن أتردى فأسقط، فعلتُ. ولو علمتُ أن أرضى لك عنى أن ألقى نفسى فى هذا الماء فأغرق فيه، فعلتُ (۵).

قال عمار: كنتُ أنا وعلىّ رفيقين مع رسول اللَّهصلى الله عليه و آله فى غزوة العشيرة، فنزلنا منزلًا، فرأينا رجالًا من بنى مُدْلج يعملون فى نخل لهم، فقلت: لو انطلقنا! فنظرنا إليهم كيف يعملون، فانطلقنا فنظرنا إليهم ساعة، ثم غَشِيَنا النعاسُ، فعدنا اليصور من النخل؛ فنمنا تحته فى دقعاء من التراب، فما أيقظناإلّا رسولُ اللَّهصلى الله عليه و آله، أتانا وقد تترّبنا فى ذلك التراب، فحرّك علياً برجله، فقال: قم يا أبا تراب، ألا أُخبرك بأشقى الناس؟

أحمر ثمود عاقر الناقة، والذى يضربك يا علىّ على هذا- يعنى قرنه- فيخضب هذه منها، وأخذ بلحيته (۶).

البشارة والشهادة:

فى الوقت الذى ما زالت سياط الجلادين تلاحق جسد عمار، كانت كلمات البشير النذير محمد بن عبداللَّهصلى الله عليه و آله هى الأخرى تلاحقه لتكون شفاء له ورحمة:صبراً يا آل ياسر، فإن موعدكم الجنة. ويح ابن سمية! تقتله الفئة الباغية. أبشر عمارُ تقتلك الفئة الباغية. آخر زادك من الدنيا ضياح لبن. قال رسول اللَّهصلى الله عليه و آله لعلى عندما ذكر

١- ١ مختصر تاريخ دمشق ١٨/ ٢٢٢.

٢- ٢ مختصر تاريخ دمشق ١٨/ ٢٢٢، يرسس يصلح. انظر اللسان: رسس.

٣- ٣ مختصر تاريخ دمشق ١٨/ ٢٢٢.

۴- ۴ مختصر تاريخ دمشق ١٨/ ٢٢۴.

۵- ۵ حلية الأولياء ١/ ١۴٢- ١۴٣.

۶- ۶ تاريخ الطبرى ٢/ ١۴.

ص: ۲۲۵

عماراً: أما أنه سیشهد معک مشاهد أجرها عظیم، وذکرها کثیر، وثناؤها حسن (۱).

«أی أبشر یا عمار فإنک ستموت شهیداً بید فئة ظالمة وهی جماعة معاویة، التی کانت ضد علیّ وجیشه رضی اللَّه عنهم، وکان عمار فی جیش علی بصفین، فلما استشهدصلی علیه علیّ ودفن هناک رضی اللَّه عنهم...

وفیه أن علیاً رضی الله عنه کان علی الحقّ، وأنه کان أحقّ بالخلافة، لا شک فی هذا، وفیه معجزة للنبیّصلی الله علیه و آله لإنه إخبار بغیب وقع» هذا ما قاله الشیخ منصور علی ناصف من علماء الأزهر الشریف فی تاجه الجامع للأصول (۲).

الشهادة التی جاءت تسعی إلی عمار وراح یسعی إلیها بعد أن طال انتظاره لها قرابة خمسین سنة حتی وافته وهو یربو علی التسعین من عمره المبارک؛ لینال بها أرفع درجات العاملین، وأعلی درجات المجاهدین، فوقع شهیداً، وقد أثخنته الجراح، وضرجته الدماء، وصار جسده موضعاً التقت به ضربات البغاة مع آثار سیاط المشرکین من قبل حین أظهر إیمانه بدعوة رسول اللَّهصلی الله علیه و آله.

وهذا هو الخیار الذی ارتآه عمار لنفسه، أن یقف بجانب علی علیه السلام وأن لا یحید عنه أبداً، وکیف یحید وقد عهد إلیه رسول اللَّهصلی الله علیه و آله: یا عمار إن رأیت علیاً قد سلک وادیاً، وسلک الناس وادیاً غیره، فاسلک مع علی ودع الناس، إنه لن یدلک علی ردی، ولن یخرجک من الهدی.

لقد کان عمار رایةً للحقّ والهدی فقد ذکر عبداللَّه بن سلمة: رأیتُ عماراً یومصفین شیخاً کبیراً، آدم، طُوالًا، أخذ الحربة بیده، ویده ترعد، فقال: والذی نفسی بیده، لقد قاتلتُ بهذه الرایة مع رسول اللَّه ثلاث مرّات وهذه الرابعة، والذی نفسی بیده، لو ضربونا حتی یبلغوا بنا سعفات هجر، لعرفتُ أن مصلحتنا علی الحقّ وأنهم علی الضلالة (علی الباطل) (۳).

وفیما قاله عمرو بن العاص:...

ولکنا کنا نراهصلی الله علیه و آله یحب رجلًا، قالوا:

فمَن ذلک الرجل؟ قال: عمار بن یاسر، قالوا: قتیلکم یومصفین، قال: قد واللَّه قتلناه (۴).

۱- ۱ کنز العمال ۱۱/ ۷۲۳، حلیة الأولیاء، أبو نعیم ۱/ ۱۴۲.

۲- ۲ التاج الجامع للأصول ۳/ ۳۷۱ الهامش.

۳- ۳ مختصر تاریخ دمشق ۱۸/ ۲۰۶.

۴- ۴ مختصر تاریخ دمشق ۱۸/ ۲۱۴.

ص: ٢٢۶

لقد كان عمار- بحق- الراية التى مَن انضوى تحتها فالجنة مأواه، ومن زاغ عنها فالنار مثواه.

تقول الرواية: جاء رجل الى عبداللّه ابن مسعود، فقال له: يا أبا عبدالرحمن، إنّ اللّه عزّوجلّ، قد أمننا من أن يظلمنا، ولم يؤمنا من أن يفتنّا، أرأيت إن أدركتُ فتنة؟ قال: عليك بكتاب اللّه، قال: أرأيت إن كان كلهم يدعو الى كتاب اللّه؟ قال: سمعتُ رسول اللَّهصلى الله عليه و آله يقول: إذا اختلف الناس كان ابن سمية مع الحق.

وفى حديث آخر عن ابن مسعود أيضاً، جاء رجل إليه فقال: إن اللّه أجار أهل الإسلام من الظلم ولم يُجرهم من الفتن، فإن وقع فما تأمرنى؟ قال:

انظر عمار بن ياسر أين يكون فكن معه، فإني سمعت رسول اللَّهصلى الله عليه و آله يقول:

عمار يزول مع الحق حيث يزول (١).

وهذا هو بعينه ما وقع يوم التقى الجمعان فيصفين ورفعت المصاحف، واضطرب الناس، فكان ابن سمية الراية الخفاقة التى تصدع بالحق، وتجهر به وتدعوهم أن هلموا اليّ.

لقد أسمعتَ لو ناديتَ حيّاً ولكن لا حياة لمن تنادى فأبوا إلّاراية الضلالة راية لهم يقاتلون تحتها ومن أجلها.

لقد كان عمّار مع الحق فى حلّه وترحاله، فى حركته وسكونه، فى قوله وفى فعله. كما كان متيقناً أن ما قاله رسول اللَّهصلى الله عليه و آله واقع لاـ محالة ولا يقع غيره. فقد اشتكى عمار شكوى ثقُل منها، فغشى عليه، فأفاق، تقول مولاة له: ونحن نبكى حوله، فقال: ما يبكيكم؟ أتحسبون أني أموت على فراشي؟ أخبرنى حبيبى رسول اللَّهصلى الله عليه و آله أنه تقتلنى الفئة الباغية، وأن آخر زادى من الدنيا مذقة لبن.

وفى حديث آخر: إنى لستُ ميتاً من وجعى هذا، إن رسول اللَّهصلى الله عليه و آله عهد إلى أني مقتول بين فئتين من المؤمنين عظيمتين، تقتلنى الباغية منهما (٢).

وكان هذا الحديث الذى عرفت به الفئة الباغية حديثاً متواتراً ومن أصح الحديث، وحين لم يقدر معاوية على إنكار هذا الحديث قال: إنما قتله من أخرجه، وقد أجاب على عليه السلام عن قول

١- ١ مختصر تاريخ دمشق ١٨/ ٢١۵.

٢- ٢ مختصر تاريخ دمشق ١٨/ ٢١٨. المذقة: الطائفة من اللبن الممزوج بالماء، انظر اللسان: مذق.

ص: ۲۲۷

معاویة هذا بأن قال: فرسول اللَّهصلی الله علیه و آله إذاً قتل حمزة حین أخرجه (۱).

وهـذا مـا حـدث بالفعـل، فقـد بغی معاویـة بن أبی سـفیان وجنـده علی أمیر المؤمنین علی بن أبی طـالب، فکانت وقعـة عظیمـة بینهما فیصـفین وقف فیهـا عمـار وکان معه ثمانون بـدریاً ومائـة وخمسون ممّن بایع تحت الشـجرة، وجمع کبیر من القراء، وکان مجموع من شهد معه من الصحابة ألفین وثمانمائة (۲) وراح ضحیتها الآلاف، وکان بینهم الکثیر من الصحابة والتابعین، الذین استشهدوا دفاعاً عن الحقّ ورایته التی یحملها عمار.

وهنا لابـدّ لنا من وقفـة قصـیرة، فنقول: لقد کانت معرکةصـفین أمراً لابدّ من وقوعه، فهو النتیجة الطبیعة للصـراع بین الإسـلام الحقیقی ووارثیه والإسلام الآخر المحرّف ووارثیه أیضاً؛ وهی بالتالی لا تختلف ولا تقل أهمیة وخطورة عن معارک الإسلام الکبری بدر وأحد والخنـدق وحنین... ضـد الشـرک والمشـرکین، وهـذا ما طواه عمار بکلمته المشـهورة: أیها الناس هل من رائـح الی اللَّه تحت العوالی (الرماح)؟

والذی نفسی بیده، لنقاتلهم علی تأویله کما قاتلناهم علی تنزیله. وأکّد هذا وهو یشقّ طریقه مقاتلًا بین الصفوف فیصفین وهو یقول:

نحن ضربناکم علی تنزیله فالیوم نضربکم علی تأویله

ضرباً یزیل الهام عن مقیله ویذهل الخلیل عن خلیله أو یرجع الحقّ الی سبیله (۳).

وهذا ما یبین لنا تأکید النبیصلی الله علیه و آله أن عماراً تقتله الفئة الباغیة، واعادته لهذه العبارة فی کثیر من المناسبات: إذا رأی عماراً قالهـا له، وإذا مرض عمـار وظن زائروه أنه میت قالهـا رسول اللَّه، إذا اشـتکی عمـار من ألم أو من شـیء آخر أعادها رسول اللَّه علیه.. وکانصلی الله علیه و آله یحرص أن یُسمع قولَه هـذا الآخرین، ولم یکتفصلی الله علیه و آله بهـذا بل کان یصـرح ویبین هدف القتال الذی سیقع قطعاً، وهذا الهدف متمثل بقوله عن عمار:...

یدعوهم الی الجنة ویدعونه الی النار.

وأنّه ستقتلک الفئة الباغیة وأنت مع

۱- ۱ الروض المعطار فی خبر الأقطار للحمیریص ۳۶۳- ۳۶۴.

۲- ۲ البدایة والنهایة ۷/ ۲۵۵، والمستدرک للحاکم ۳/ ۱۰۴.

۳- ۳ شرح نهج البلاغة لابن أبی الحدید ۲/ ۸۱۰، ومروج الذهب ۲/ ۴۲۲.

ص: ۲۲۸

الحق، فمن لم ینصرک یومئذ فلیس منی (۱). وأن آخر شراب له ضَیاح لبن...

کلّ هـذا وغیره لیدلهمصـلی الله علیه و آله علی الحق المبین فی وقت قد تلتبس الأمور فیحلّ الغموض بدل الوضوح، وتقع الفتنة ویتیه بعض ویضـطرب آخرون فأشار الی الرمز والی الدلیل، إنه عمار بن یاسـر وإنه بالتالی علیّ بن أبی طالب «یا عمار إن رأیت علیاً سلک وادیـاً وسـلک النـاس وادیـاً غیره فاسـلک مع علی ودع النـاس، إنه لن یـدلک علی ردی ولن یخرجـک من الهـدی». لقـد کـان عمار المیزان، وکان الحجة الأخیرة علی المخالفین والمناوئین «الناکثین والمارقین والقاسـطین» الـذین أعماهم حقـدهم وبغضـهم لعلی علیه السلام عن أن یروا الحقّ الناصع والهدی المبین فیه ومن خلاله.

وأخیراً وقعت معرکهٔصـفین، ووقف عمار خطیباً: اللهم إنک تعلم أنی لو أعلم أن رضاک فی أن أقـذف بنفسـی فی هذا البحر لفعلت، اللهم إنـک تعلم أنی لو أعلم رضـاک فی أن أضع ظُبـهٔ سـیفی فیصـدری، ثم أنحنی علیه حتی تخرج من ظهری لفعلت، وإنی لا أعلم الیوم عملًا هو أرضی لک من جهاد هؤلاء الفاسقین، ولو أعلم أن عملًا من الأعمال هو أرضی لک منه لفعلته (۲).

وبدأ القتال وتحدثت الأخبار:

أن عماراً کانصائماً، وقد غربت الشـمس فأُتی بلبن فشربه، ثم قال: إنّ النبیّصلی الله علیه و آله قال: هذه آخر شربهٔ أشربها من الدنیا، أو آخر زادک من الدنیا ضیاح لبن، فقام فقاتل حتی قتل رضوان اللّه علیه.

وعن أبی سـنان الدؤلیصاحب رسول اللّهصـلی الله علیه و آله: قال: رأیتُ عمار بن یاسر دعا بشراب، فأتی بقدح من لبن فشرب منه، ثم قال:صـدق رسولاللّهصـلی الله علیه و آله، والیوم ألقی الأحبـهٔ محمداً وصـحبه. إنّ رسول اللّهصـلی الله علیه و آله قال: «إنّ آخر شـیء تزوده من الدنیا ضیحهٔ لبن» ثم قال مبیناً یقینه بأنه- قطعاً- علی الحق المبین، وأن خصمه علی الباطل، انظره یقول: واللّه لو هزمونا حتی یبلغونا سعفات هجر، لعلمنا أنا علی حق وهم علی باطل. ولأنه رایهٔ الحق والهدی تری أصحاب رسول اللّهصلی الله علیه و آله فی

۱- ۱ کنز العمال ۱۱/ ۳۵۱.

۲- ۲ الکامل ۳/ ۱۵۷ والبدایهٔ والنهایهٔ ۷/ ۲۶۷، ۲۹۲، الطبری ۶/ ۲۱.

ص: ٢٢٩

معركةصفين يتبعونه فى كلّ مكان يتواجد فيه من ساحة القتال، وهو ينادى: أين مَن يبغى رضوان ربّه، ولا يؤوب إلى مال ولا ولد؟ وفى رواية اخرى: فى يوم من أيامصفين- التى وقعت- على قول- من أول ذى الحجة سنة ٣۶ وانتهت فى ١٣صفر سنة ٣٧ وعلى قول الطبرى كان وصول الإمام على وجنده اليصفين فى أواسط ذى القعدة سنة ٣۶ أو فى العشرين منه، وعلى رواية المسعودى أن مقامهم بصفين كان مائة يوم وعشرة أيام، كان فيها نحو تسعين أو سبعين وقعة- رجع عمار الى موضعه من المعركة فاستسقى، فأتته امرأة من بنى شيبان من مصاخهم بعس فيه لبن.

فدفعته إليه، وروى أن الذى سقاه أبو المخاريق (١)، فقال: اللّه أكبر، اللّه أكبر، اليوم ألقى الأحبة تحت الأسنة،صدق الصادق. وبذلك أخبرنى الناطق. وهو اليوم الذى وعدتُ فيه، ثم قال: أيها الناس هل من رائح إلى اللّه تحت العوالى (الرماح)، والذى نفسى بيده لنقاتلنهم على تأويله كما قاتلناهم على تنزيله، وفى قول أنه نادى انى لقيتُ الخيار وتزوجت الحور العين. اليوم نلقى محمداً وحزبه. وانطلق يجول فى ساحة المعركة وهو يقول:

نحن ضربناكم على تنزيله فاليوم نضربكم على تأويله

ضرباً يزيل الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله أو يرجع الحقّ الى سبيله

على مقربة من عمّار، وقف أبو الغادية وهو من جيش معاوية يستحضر موقف عمار من الخلافة الثالثة- فقد كان له موقف يتسم بالقوة والصلابة من هذه الخلافة، التى لم تقضِ بالحقّ، ولم يكنصاحبها ولا ذوو قرباه من الذين يعدلون، وكانت خيمةً انضوى تحتها أعداء الدين، ورتع فيها المنافقون. كلّ هذا دفع عماراً لهذا الموقف الذى يقول عنه ابن كثير: «كان عمار يحرض الناس على عثمان ولم يقلع ولم يرجع ولم ينزع...» (٢)-، وراح أبو الغادية يراقب عماراً، فلعلّ فرصة تحدث ليتمكن منه ويداهمه فيقتله.

١- ١ الطبرى، الزوائد ٧/ ٢۴٣.

٢- ٢ البداية والنهاية ٧/ ١٧١.

ص: ۲۳۰

وكـان عمار يناديصاحبه هاشم بن عتبـة: يا هاشم الجنـة تحت ظلال السـيوف، والموت فى أطراف الأسل، وقـد فتحت أبواب السـماء، وتزينت الحور العين. اليوم ألقى الأحبة محمداً وحزبه (۱).

يقول أبو الغادية: فلما كان يومصفين. جعل عمار يحمل على الناس.

فقيـل: هـذا عمـار، فرأيـتُ فرجـة بيـن الرئـتين وبيـن السـاقين. فحملتُ عليه فطعنته فى ركبته، فوقع فقتلته (۲). وفى روايـة اخرى (۳): فاختلفت أنا وهو ضربتين، فبدرته فضربته، فكبا لوجهه ثم قتلته.

ولما قتل رضوان اللَّه عليه اختصم فى قتله اثنان، فقال عمرو بن العاص:

واللَّه، إن يختصمان إلّافى النار، واللَّه، لوددتُ أنى متّ قبل هذا اليوم بعشرين سنة (۴).

وقدصلى عليه الإمام على عليه السلام ودفن فيصفين. وقد نسب الى الإمام على عليه السلام بعد استشهاد عمار رضوان اللَّه عليه، قوله:

أَلا أيّها الموتُ الذى ليس تاركى أرحنى فقد أفنيتَ كلَّ خليل

أراك مضرّاً بالذين أحبُّهم كأنَّك تنحو نحوهم بدليل (۵) كان ذلك فى سنة ۳۷ ه عن عمرناهز الثلاث والتسعين سنة. فسلام عليك يا أبا اليقظان فى العالمين.

۱- ۱ الطبرى ۶/ ۲۳.

۲- ۲ الطبقت لابن سعد ۳/ ۲۶۱.

۳- ۳ الزوائد ۹/ ۲۹۸.

۴- ۴ أحاديث أم المؤمنين عائشةص ۱۱۷.

۵- ۵ ديوان الإمام على عليه السلامص ۱۲۵، تحقيق الدكتور محمد عبدالمنعم خفاجى.

ص: ۲۳۱

ص: ۲۳۲

ص: ٢٣٣

المعلّقات

ص: ۲۳۴

المعلّقات

نعمان النصری

کـان فیمـا اثر من أشـعار العرب، ونقـل إلینا من تراثهم الأدبی الحافل بضع قصائـد من مطوّلات الشـعر العربی، وکانت من أدقّه معنی، وأبعـده خیالًا، وأبرعه وزناً، وأصـدقه تصویراً للحیاهٔ، التی کان یعیشـها العرب فی عصـرهم قبل الإسـلام، ولهذا کلّه ولغیره عدّها النقّاد والرواهٔ قدیماً قمّهٔ الشـعر العربی وقد سـمّیت بالمطوّلات، وأمّا تسمیتها المشهورهٔ فهی المعلّقات. نتناول نبذهً عنها وعن أصحابها وبعض الأوجه الفنّیهٔ فیها:

فالمعلّقات لغـهً من العِلْق: وهو المال الذی یکرم علیک، تضنّ به، تقول: هذا عِلْقُ مضـنَّهٍ. وما علیه علقهٌ إذا لم یکن علیه ثیاب فیها خیر (۱)، والعِلْقُ هو النفیس من کلّ شـیء، وفی حـدیث حذیفـهٔ: «فما بال هؤلاء الّـذین یسـرقون أعلاقنا» أی نفائس أموالنا (۲). والعَلَق هو کلّ ما عُلِّق (۳).

وأمّـا المعنی الاصـطلاحی فالمعلّقـات: قصائـد جاهلیّـهٔ بلغ عـددها السـبع أو العشـر- علی قول- برزت فیهـا خصـائص الشـعر الجـاهلی بوضوح، حتّی عدّت

۱- ۱ العین للفراهیدی ۱/ ۱۶۲ تحقیق د. مهدی المخزومی و د. ابراهیم السامرائی، ط لبنان ۱۹۸۸.

۲- ۲ لسان العرب لابن منظور ۹/ ۳۶۲. دار إحیاء التراث العربی- ط ۱ بیروت ۱۹۸۸.

۳- ۳ المصدر السابقص ۳۵۹.

ص: ۲۳۵

أفضل ما بلغنا عن الجاهليّين من آثار أدبية (۱).

والناظر إلى المعنيين اللغوى والاصطلاحى يجد العلاقة واضحة بينهما، فهى قصائد نفيسة ذات قيمة كبيرة، بلغت الذّروة فى اللغة، وفى الخيال والفكر، وفى الموسيقى وفى نضج التجربة، وأصالة التعبير، ولم يصل الشعر العربى الى ما وصل إليه فى عصر المعلّقات من غزل امرئ القيس، وحماس المهلهل، وفخر ابن كلثوم، إلّا بعد أن مرّ بأدوار ومراحل إعداد وتكوين طويلة.

وفى سبب تسميتها بالمعلّقات هناك أقوال منها:

لأنّهم استحسنوها وكتبوها بماء الذهب وعلّقوها على الكعبة، وهذا ما ذهب إليه ابن عبد ربّه فى العقد الفريد، وابن رشيق وابن خلدون وغيرهم، يقولصاحب العقد الفريد: «وقد بلغ من كلف العرب به (أى الشعر) وتفضيلها له أن عمدت إلى سبع قصائد تخيّرتها من الشعر القديم، فكتبتها بماء الذهب فى القباطى المدرجة، وعلّقتها بين أستار الكعبة، فمنه يقال: مذهّبة امرئ القيس، ومذهّبة زهير، والمذهّبات سبع، وقد يقال: المعلّقات، قال بعض المحدّثين قصيدة له ويشبّهها ببعض هذه القصائد التى ذكرت:

برزةٌ تذكَرُ فى الحس – نِ من الشعر المعلّقْ

كلّ حرفٍ نادرٍ من – ها له وجهٌ معشّق (۲) أو لأنّ المراد منها المسمّطات والمقلّدات، فإنّ من جاء بعدهم من الشعراء قلّدهم فى طريقتهم، وهو رأى الدكتور شوقى ضيف وبعض آخر (۳). أو أن الملك إذا ما استحسنها أمر بتعليقها فى خزانته.

هل علّقت على الكعبة؟

سؤال طالما دار حوله الجدل والبحث، فبعض يثبت التعليق لهذه القصائد على ستار الكعبة، ويدافع عنه، بل ويسخّف أقوال معارضيه، وبعض آخر ينكر

۱- ۱ المعجم الأدبى د. جبّور عبدالنورص ۲۵۷ ط دار العلم للملايين.

۲- ۲ العقد الفريد لابن عبد ربّه ۶/ ۱۱۸ ط دار الكتب العلمية بيروت- تح: د. عبدالمجيد الترحينى- ط ۱- ۱۴۰۴ ه. وانظر خزانة الأدب للحموى ۱/ ۶۱ ومقدّمة ابن خلدون: ۵۱۱ وتاريخ آداب العربية لمصطفيصادق الرافعى ۱۸۳۳.

۳- ۳ تاريخ الأدب العربى- العصر الجاهلى للدكتور شوقى ضيف:ص ۱۴۰.

ص: ۲۳۶

الإثبات، ويفنّد أدلّته، فيما توقف آخرون فلم تقنعهم أدلّة الإثبات ولا أدلّة النفى، ولم يعطوا رأياً فى ذلك.

المثبتون للتعليق وأدلّتهم:

لقد وقف المثبتون موقفاً قويّاً ودافعوا بشكل أو بآخر عن موقفهم فيصحّة التعليق، فكتبُ التاريخ حفلت بنصوص عديدة تؤيّدصحّة التعليق، ففى العقد الفريد (۱) ذهب ابن عبد ربّه ومثله ابن رشيق والسيوطى (۲) وياقوت الحموى (۳) وابن الكلبى (۴) وابن خلدون (۵)، وغيرهم إلى أنّ المعلّقات سمّيت بذلك؛ لأنّها كتبت فى القباطى بماء الذهب وعلّقت على أستار الكعبة، وذكر ابن الكلبى: أنّ أوّل ما علّق هو شعر امرئ القيس على ركن من أركان الكعبة أيّام الموسم حتّى نظر إليه ثمّ احدر، فعلّقت الشعراء ذلك بعده.

وأمّا الادباء المحدّثون فكان لهم دور فى إثبات التعليق، وعلى سبيل المثال نذكر منهم جرجى زيدان حيث يقول:

«وإنّما استأنف إنكار ذلك بعض المستشرقين من الإفرنج، ووافقهم بعض كتّابنا رغبة فى الجديد من كلّ شىء، وأىّ غرابة فى تعليقها وتعظيمها بعدما علمنا من تأثير الشعر فى نفوس العرب؟! وأمّا الحجّة التى أراد النحّاس أن يضعّف بها القول فغير وجيهة؛ لأنّه قال: إنّ حمّاداً لمّا رأى زهد الناس فى الشعر جمع هذه السبع وحضّهم عليها وقال لهم: هذه هى المشهورات» (۶)، وبعد ذلك أيّد كلامه ومذهبه فيصحّة التعليق بما ذكره ابن الأنبارى إذ يقول: «وهو- أى حمّاد- الذى جمع السبع الطوال، هكذا ذكره أبو جعفر النحاس، ولم يثبت ما ذكره الناس من أنّها كانت معلّقة على الكعبة» (۷).

وقد استفاد جرجى زيدان من عبارة ابن الأنبارى: «ما ذكره الناس»، فهو أى ابن الأنبارى يتعجّب من مخالفة النحاس لما ذكره الناس، وهم الأكثرية من أنّها علقت فى الكعبة.

۱- ۱ العقد الفريد ۶: ۱۱۹.

۲- ۲ المزهر ۲/ ۴۸۰ وعبارته هى عين عبارة العمدة.

۳- ۳ خزانة الأدب ۱/ ۶۱.

۴- ۴ كما ذكره الرافعى فى تأريخ آداب العربية ۳/ ۱۸۳ وغيره.

۵- ۵ المقدّمة: ۵۱۱.

۶- ۶ تأريخ آداب اللغة العربية ۱/ ۹۵. ط دار مكتبة الحياة- بيروت.

۷- ۷ المصدر السابق.

ص: ۲۳۷

النافون للتعليق:

ولعلّ أوّلهم والذی یعدُّ المؤسّـِس لهذا المذهب- کما ذکرنا- هو أبو جعفر النحّاس، حیث ذکر أنّ حمّاداً الراویهٔ هو الذی جمع السبع الطوال، ولم یثبت من أنّها کانت معلّقهٔ علی الکعبهٔ، نقل ذلک عنه ابن الأنباری (۱). فکانت هذه الفکرهٔ أساساً لنفی التعلیق:

کارل بروکلمان حیث ذکر أنّها من جمع حمّاد، وقد سمّاها بالسموط والمعلّقات للدلالهٔ علی نفاسهٔ ما اختاره، ورفض القول: إنّها سمّیت بالمعلّقات لتعلیقها علی الکعبهٔ، لأن هذا التعلیل إنّما نشأ من التفسیر الظاهر للتسمیهٔ ولیس سبباً لها، وهو ما یذهب إلیه نولدکه (۲).

وعلی هذا سار الدکتور شوقی ضیف مضیفاً إلیه أنّه لا- یوجد لدینا دلیل مادّی علی أنّ الجاهلیین اتّخذوا الکتابهٔ وسیلهٔ لحفظ أشعارهم، فالعربیهٔ کانت لغهٔ مسموعهٔ لا مکتوبهٔ. ألا تری شاعرهم حیث یقول:

فلأهدینّ مع الریاح قصیدهٔ منّی مغلغلهٔ إلی القعقاعِ

ترد المیاه فما تزال غریبهً فی القوم بین تمثّلٍ وسماعِ؟ (۳) ودلیله الآخر علی نفی التعلیق هو أنّ القرآن الکریم- علی قداسته- لم یجمع فی مصحف واحد إلّابعد وفاهٔ الرسولصلی الله علیه و آله (طبعاً هذا علی مذهبه)، وکذلک الحدیث الشریف. لم یدوّن إلّابعد مرور فترهٔ طویلهٔ من الزمان (لأسباب لا تخفی علی من سبر کتب التأریخ وأهمّها نهی الخلیفهٔ الثانی عن تدوینه) ومن باب أولی ألّا تکتب القصائد السبع ولا تعلّق (۴).

وممّن ردّ الفکرهٔ- فکرهٔ التعلیق- الشیخ مصطفیصادق الرافعی، وذهب إلی أنّها من الأخبار الموضوعهٔ التی خفی أصلها حتّی وثق بها المتأخّرون (۵).

ومنهم الدکتور جواد علی، فقد رفض فکرهٔ التعلیق لُامور منها:

۱- ۱ تاریخ آداب اللغهٔ العربیهٔ، جرجی زیدان ۱/ ۹۵ ط دار مکتبهٔ الحیاهٔ- بیروت.

۲- ۲ تاریخ الأدب العربی لکارل بروکلمان ۱/ ۶۷ ترجمهٔ د. عبدالحکیم النجّار.

۳- ۳ تاریخ الأدب العربی- العصر الجاهلیص ۱۴۰.

۴- ۴ المصدر السابقص ۱۴۲.

۵- ۵ تاریخ آداب العرب ۳/ ۱۸۳.

ص: ۲۳۸

۱- أنّه حينما أمر النبى بتحطيم الأصنام والأوثان التى فى الكعبة وطمس الصور، لم يذكر وجود معلقة أو جزء معلّقة أو بيت شعر فيها.

۲- عدم وجود خبر يشير إلى تعليقها على الكعبة حينما أعادوا بناءَها من جديد.

۳- لم يشر أحد من أهل الأخبار الّذين ذكروا الحريق الذى أصاب مكّة، والّذى أدّى إلى إعادة بنائها لم يشيروا إلى احتراق المعلّقات فى هذا الحريق.

۴- عدم وجود من ذكر المعلّقات من حملة الشعر من الصحابة والتابعين ولا غيرهم.

ولهذا كلّه لم يستبعد الدكتور جواد على أن تكون المعلّقات منصنع حمّاد (۱)، هذا عمدة ما ذكره المانعون للتعليق.

بعد استعراضنا لأدلة الفريقين، اتّضح أنّ عمدة دليل النافين هو ما ذكره ابن النحاس حيث ادعى انّ حماداً هو الذى جمع السبع الطوال. وجواب ذلك أن جمع حماد لها ليس دليلًا على عدم وجودها سابقاً، وإلّا انسحب الكلام على الدواوين التى جمعها أبو عمرو بن العلاء والمفضّل وغيرهما، ولا أحد يقول فى دواوينهم ما قيل فى المعلقات. ثم إنّ حماداً لم يكن السبّاق الى جمعها فقد عاش فى العصر العباسى، والتاريخ ينقل لنا عن عبد الملك أنَّه عُنى بجمع هذه القصائد (المعلقات) وطرح شعراء أربعة منهم وأثبت مكانهم أربعة (۲).

وأيضاً قول الفرزدق يدلنا على وجودصحف مكتوبة فى الجاهلية:

أوصى عشية حين فارق رهطه عند الشهادة فى الصحيفة دعفلُ أنّ ابن ضبّة كان خيرٌ والداً وأتمّ فى حسب الكرام وأفضلُ كما عدّد الفرزدق فى هذه القصيدة اسماء شعراء الجاهلية، ويفهم من بعض الأبيات أنّه كانت بين يديه مجموعات شعرية لشعراء جاهليين أو نسخ من

۱- ۱ المفصّل فى تاريخ العرب قبل الإسلام ۹/ ۵۱۶ وما بعدها.

۲- ۲ خزانة الأدب ۱/ ۱۲۴.

ص: ۲۳۹

دواوینهم بدلیل قوله:

والجعفری وکان بشرٌ قبله لی من قصائده الکتاب المجملُ وبعد ابیات یقول:

دفعوا إلیَّ کتابهنّ وصیّةً فورثتهنّ کأنّهنّ الجندلُ (۱) کما روی أن النابغة وغیره من الشعراء کانوا یکتبون قصائدهم ویرسلونها الی بلاد المناذرة معتذرین عاتبین، وقد دفن النعمان تلک الأشعار فی قصره الأبیض، حتّی کان من أمر المختار بن أبی عبید واخراجه لها بعد أن قیل له: إنّ تحت القصر کنزاً (۲).

کما أن هناک شواهد أخری تؤیّد أن التعلیق علی الکعبة وغیرها- کالخزائن والسقوف والجدران لأجل محدود أو غیر محدود- کان أمراً مألوفاً عند العرب، فالتاریخ ینقل لنا أنّ کتاباً کتبه أبو قیس بن عبدمناف بن زهرة فی حلف خزاعة لعبد المطّلب، وعلّق هذا الکتاب علی الکعبة (۳). کما أنّ ابن هشام یذکر أنّ قریشاً کتبتصحیفة عندما اجتمعت علی بنی هاشم وبنی المطّلب وعلّقوها فی جوف الکعبة توکیداً علی أنفسهم (۴).

ویؤیّد ذلک أیضاً ما رواه البغدادی فی خزائنه (۵) من قول معاویة: قصیدة عمرو بن کلثوم وقصیدة الحارث بن حِلزه من مفاخر العرب کانتا معلّقتین بالکعبة دهراً (۶).

هذا من جملة النقل، کما أنّه لیس هناک مانع عقلی أو فنّی من أن العرب قد علّقوا أشعاراً هی أنفس ما لدیهم، وأسمی ما وصلت إلیه لغتهم؛ وهی لغة الفصاحة والبلاغة والشعر والأدب، ولم تصل العربیة فی زمان إلی مستوی کما وصلت إلیه فی عصرهم. ومن جهة اخری کان للشاعر المقام السامی عند العرب الجاهلیین فهو

۱- ۱ النقائض لأبی عبیدة ۱/ ۱۸۹.

۲- ۲ الخصاص لابن جنی ۱/ ۳۹۲- ۳۹۳، ولمزید من التفصیل علیک بکتاب مصادر الشعر الجاهلی وقیمتها التأریخیة للدکتور ناصر الدین الأسدص ۱۳۴ وما بعدها. ط. دار الجیل بیروت، وانظر أیضاً فصل الکتابة عند العرب قبل الإسلام من مکاتیب الرسول ج ۱ للشیخ الأحمدی المیانجی.

۳- ۳ دیوان حسّان بن ثابت- مخطوط بمکتبة أحمد الثالث ورقة ۱۵- ۱۶ عند مصادر الشعر الجاهلی لناصر الدین‌الاسد.

۴- ۴ سیرة ابن هشام ۱/ ۳۷۵- ۳۷۶.

۵- ۵ خزانة الأدب ۳/ ۱۶۲.

۶- ۶ خزانة الأدب ۳/ ۱۶۲.

ص: ۲۴۰

النـاطق الرسـمى باسم القبيلـة وهو لسانها والمقـدّم فيها، وبهم وبشـعرهم تفتخر القبائل، ووجود شاعر مفلّق فی قبيلـة يعـدُّ مـدعاة لعزّها وتميّزهـا بين القبائـل، ولا تعجب من حمّاد حينما يضمّ قصـيدة الحارث بن حلزّة إلى مجموعته، إذ إنّ حمّاداً كان مولى لقبيلـة بكر بن وائل، وقصـيدة الحارث تشـيد بمجد بكر سادة حمّاد (۱)، وذلک لأنّ حمّاداً يعرف قيمـة القصـيدة وما يلازمها لرفعـة من قيلت فيه بين القبائل.

فإذا كان للشـعر تلک القيمـة العالية، وإذا كان للشاعر تلک المنزلة السامية فی نفوس العرب، فما المانع من أن تعلّق قصائد هی عصارة ما قيل فی تلک الفترة الذهبية للشعر؟

ثمّ إنّه ذكرنا فيما تقدّم أنّ عدداً لا يستهان به من المؤرّخين والمحقّقين قد اتفقوا على التعليق.

فقبول فكرة التعليق قـد يكون مقبولًا، وأنّ المعلّقات لنفاسـتها قد علّقت على الكعبة بعدما قرئت على لجنة التحكيم السـنوية، التی تتّخذ من عكاظ محلًا لها، فهناک يأتی الشـعراء بما جادت به قريحتهم خلال سنة، ويقرأونها أمام الملإ ولجنة التحكيم التی عدُّوا منها النابغة الـذبيانی ليعطوا رأيهم فی القصـيدة، فـإذا لاـقت قبولهم واسـتحسانهم طـارت فی الآفاق، وتناقلتها الألسن، وعلّقت على جـدران الكعبة أقدس مكان عند العرب، وإن لم يستجيدوها خمل ذكرها، وخفی بريقها، حتّى ينساها الناس وكأنّها لم تكن شيئاً مذكوراً.

موضوع شعر المعلّقات

لو رجعنا إلى القصائـد الجاهليـة الطوال والمعلّقات منها على الأخصّ رأينا أنّ الشـعراء يسـيرون فيها على نهج مخصوص؛ يبدأون عادة بـذكر الأطلال، وقد بدأ عمرو بن كلثوم مثلًا بوصف الخمر، ثمّ بدأ بذكر الحبيبة، ثمّ ينتقل أحدهم إلى وصف الراحلة، ثمّ إلى الطريق التی يسلكها، بعدئذ يخلص إلى المديح أو الفخر (إذا كان الفخر مقصوداً كما عند عنترة) وقد يعود الشاعر إلى الحبيبة ثمّ إلى الخمر،

۱- ۱ انظر تاريخ الأدب العربی لكارل بروكلمان ۱/ ۶۷.

ص: ۲۴۱

وبعدئذ ينتهى بالحماسة (أو الفخر) أو بذكر شىء من الحِكَم (كما عند زهير) أو من الوصف كما عند امرئ القيس.

ويجدر بالملاحظة أنّ فى القصيدة الجاهلية أغراضاً متعدّدة؛ واحد منها مقصود لذاته (كالغزل عند امرئ القيس، الحماسة عند عنترة، والمديح عند زهير..)،

عدد القصائد المعلّقات

لقد اختلف فى عدد القصائد التى تعدّ من المعلّقات، فبعد أن اتّفقوا على خمس منها؛ هى معلّقات: امرئ القيس، وزهير، ولبيد، وطرفة، وعمرو بن كلثوم.

اختلفوا فى البقيّة، فمنهم من يعدّ بينها معلّقة عنترة والحارث بن حلزة، ومنهم من يدخل فيها قصيدتى النابغة والأعشى، ومنهم من جعل فيها قصيدة عبيد بن الأبرص، فتكون المعلّقات عندئذ عشراً.

نماذج مختارة من القصائد المعلّقة مع شرح حال شعرائها

أربع من هذه القصائد اخترناها من بين القصائد السبع أو العشر مع اشارة لما كتبه بعض الكتاب والأدباء عن جوانبها الفنية .. لتكون محور مقالتنا هذه:

امرؤ القيس

اسمه: امرؤ القيس، خندج، عدى، مليكة، لكنّه عرف واشتهر بالاسم الأوّل، وهو آخر امراء اسرة كندة اليمنيّة.

أبوه: حجر بن الحارث، آخر ملوك تلك الاسرة، التى كانت تبسط نفوذها وسيطرتها على منطقة نجد من منتصف القرن الخامس الميلادى حتى منتصف السادس.

امّه: فاطمة بنت ربيعة اخت كليب زعيم قبيلة ربيعة من تغلب، واخت المهلهل بطل حرب البسوس، وصاحب أوّل قصيدة عربية تبلغ الثلاثين بيتاً.

ص: ۲۴۲

نبذة من حياته:

قال ابن قتيبة: هو من أهل نجد من الطبقة الاولى (۱). كان يعدّ من عشّاق العرب، وكان يشبّب بنساء منهنّ فاطمة بنت العبيد العنزية التى يقول لها فى معلّقته:

أفاطمُ مهلًا بعض هذا التدلّل

وقد طرده أبو ه على أثر ذلك. وظل امرؤ القيس سادراً فى لهوه إلى أن بلغه مقتل أبيه وهو بدمّون فقال: ضيّعنيصغيراً، وحمّلنى دمه كبيراً، لاصحو اليوم ولا سكرَ غداً، اليوم خمرٌ وغداً أمرٌ، ثمّ آلى أن لا يأكل لحماً ولا يشرب خمراً حتّى يثار لأبيه (۲).

إلى هنا تنتهى الفترة الاولى من حياة امرئ القيس وحياة المجون والفسوق والانحراف، لتبدأ مرحلة جديدة من حياته، وهى فترة طلب الثأر من قَتَلة أبيه، ويتجلّى ذلك من شعره، الّذى قاله فى تلك الفترة، الّتى يعتبرها الناقدون مرحلة الجدّ من حياة الشاعر، حيكت حولها كثير من الأساطير، التى اضيفت فيما بعد إلى حياته. وسببها يعود إلى النحل والانتحال الذى حصل فى زمان حمّاد الراوية، وخلف الأحمر ومن حذا حذوهم. حيث أضافوا إلى حياتهم ما لم يدلّ عليه دليل عقلى وجعلوها أشبه بالأسطورة. ولكن لا يعنى ذلك أنّ كلّ ما قيل حول مرحلة امرئ القيس الثانية هو اسطورة.

والمهم أنّه قد خرج إلى طلب الثأر من بنى أسد قتلة أبيه، وذلك بجمع السلاح وإعداد الناس وتهيئتهم للمسير معه، وبلغ به ذلك المسير إلى ملك الروم حيث أكرمه لما كان يسمع من أخبار شعره وصار نديمه، واستمدّه للثأر من القتلة فوعده ذلك، ثمّ بعث معه جيشاً فيهم أبناء ملوك الروم، فلمّا فصل قيل لقيصر: إنّك أمددت بأبناء ملوك أرضك رجلًا من العرب وهم أهل غدر، فإذا استمكن ممّا

۱- ۱ الشعر والشعراءص ۲۷ ط ليدن ۱۹۰۲.

۲- ۲ المصدر السابق:ص ۳۹.

ص: ۲۴۳

أراد وقهر بهم عدوّه غزاك. فبعث إليه قيصر مع رجل من العرب كان معه يقال له الطمّاح، بحلّة منسوجة بالذهب مسمومة، وكتب إليه: إنّى قد بعثت إليك بحلّتى الّتى كنت ألبسها يوم الزينة ليُعرف فضلك عندى، فإذا وصلت إليك فالبسها على الُيمن والبركة، واكتب إلىّ من كلّ منزل بخبرك، فلمّا وصلت إليه الحلّة اشتدّ سروره بها ولبسها، فأسرع فيه السمّ وتنفّط جلده، والعرب تدعوه: ذا القروح لذلك، ولقوله:

وبُدِّلْتُ قرحاً دامياً بعدصحّةٍ فيالك نُعمى قد تحوّلُ أبؤسا ولمّاصار إلى مدينة بالروم تُدعى: أنقرة ثقل فأقام بها حتّى مات، وقبره هناك.

وآخر شعره:

ربّ خطبةٍ مسحنفَرهْ وطعنةٍ مثعنجرهْ

وجعبةٍ متحيّرهْ تدفنُ غداً بأنقرهْ ورأى قبراً لامرأة من بنات ملوك العرب هلكت بأنقره فسأل عنها فاخبر، فقال:

أجارتنا إنّ المزار قريبُ وإنّى مقيم ما أقام عسيبُ

أجارتَنا إنّا غريبانِ هاهنا وكلّ غريب للغريب نسيبُ (۱) وقد عدَّ الدكتور جواد على والدكتور شوقى ضيف وبروكلمان وآخرون بعض ما ورد فى قصّة امرئ القيس وطرده، والحكايات التى حيكت بعد وصوله إلى قيصر ودفنه بأنقرة إلى جانب قبر ابنة بعض ملوك الروم، وسبب موته بالحلة المسمومة، وتسميته ذا القروح من الأساطير.

۱- ۱ الشعر والشعراءص ۴۵- ۴۷، وعسيب: جبل هناك.

ص: ۲۴۴

قالوا فیه:

۱- النبیّصلی الله علیه و آله: ذاک رجل مذکور فی الدنیا، شریف فیها منسیّ فی الآخرهٔ خامل فیها، یجیء یوم القیامهٔ معه لواء الشعراء إلی النار (۱).

۲- الإمام علی علیه السلام: سُئل من أشعر الشعراء؟ فقال:

إنّ القوم لم یَجروا فی حَلبهٍ تُعرفُ الغایهُ عند قصبتها، فإنْ کان ولابُدّ فالملکُ الضِّلِّیلُ (۲). یرید امرأ القیس.

۳- الفرزدق سئل من أشعر الناس؟ قال: ذو القروح.

۴- یونس بن حبیب: إنّ علماء البصرهٔ کانوا یقدّمون امرأ القیس.

۵- لبید بن ربیعهٔ: أشعر الناس ذو القروح.

۶- أبو عبیدهٔ معمّر بن المثنّی: هو أوّل من فتح الشعر ووقف واستوقف وبکی فی الدمن ووصف ما فیها... (۳) معلّقهٔ امرئ القیس

البحر: الطویل. عدد أبیاتها: ۷۸ بیتاً منها: ۹: فی ذکری الحبیبهٔ. ۲۱: فی بعض مواقف له. ۱۳: فی وصف المرأهٔ. ۵: فی وصف اللیل. ۱۸: فی السحاب والبرق والمطر وآثاره. والبقیهٔ فی امور مختلفهٔ.

استهلّ امرؤ القیس معلّقته بقوله:

قفا نبکِ من ذکری حبیبٍ ومنزلِ بِسِقْط اللِّوَی بین الدَّخُوْلِ فَحَوْمَلِ

فتوضِحَ فالمقراهٔ لم یعفُ رسمُها لما نسجتها من جنوبٍ وَشَمْأَلِ وقد عدّ القدماء هذا المطلع من مبتکراته، إذ وقف واستوقف وبکی وأبکی وذکر الحبیب والمنزل، ثمّ انتقل إلی روایهٔ بعض ذکریاته السعیدهٔ بقوله:

ألا ربّ یوم لَکَ منهُنَّصالحٌ ولاسیّما یومٌ بدراهٔ جُلجُلِ

ویومَ عقرتُ للعِذاری مطیّتی فیا عجباً من رحلِها المتحمّلِ

۱- ۱ الشعر والشعراء.

۲- ۲ نهج البلاغهٔص ۵۵۶ حکمهٔ ۴۵۶ للدکتورصبحی الصالح.

۳- ۳ الشعر والشعراءص ۵۲.

ص: ۲۴۵

فضلّ العـذارى يرتمينَ بلحمها وشـحم كهدّاب الدِّمَقْسِ المُفَتَّلِ وحيث إنّ تذكّر الماضـى السـعيد قد أرّق ليالى الشاعر، وحرمه الراحة والهدوء؛ لذا فقد شعر بوطأة الليل؛ ذلك أنّ الهموم تصل إلى أوجها فى الليل، فما أقسى الليل على المهموم! إنّه يقضّ مضجعهُ، ويُطير النوم من عينيه، ويلفّه فى ظلام حالك، ويأخذه فى دوامة تقلّبه هنـا وهناك لا يعرف أين هو، ولا كيف يسير ولا ماذا يفعل، ويلقى عليه بأحماله، ويقف كأنّه لا يتحرّك.. يقول:

وليلٍ كموج البحرِ أرخى سدوله علىّ بأنواع الهموم ليبتلى

فقُلْتُ لَهُ لمّا تمطّى بصلبِهِ وأردف أعجازاً وناءَ بِكَلْكَلِ

ألا أيّها الليلُ الطويل ألا انجلى بصبحٍ وما الأصْبَاحُ منكَ بِأمْثَلِ وتعدّ هذه الأبيات من أروع ما قاله فى الوصف، ومبعث روعتها تصويره وحشيّة الليل بأمواج البحر وهى تطوى ما يصادفها؛ لتختبر ما عند الشاعر من الصبر والجزع.

فـأنت أمام وصف وجـدانى فيه من الرقّة والعاطفـة النابضـة، وقـد اسـتحالت سـدول الليل فيه إلى سـدول همّ، وامتزج ليل النفس بليل الطبيعة، وانتقل الليل من الطبيعة إلى النفس، وانتقلت النفس إلى ظلمة الطبيعة.

فالصورة فى شعره تجسيد للشعور فى مادّة حسّية مستقاة من البيئة الجاهلية.

ثمّ يخرج منه إلى وصف فرسه وصـيده ولـذّاته فيه، وكأنّه يريد أن يضع بين يديصاحبته فروسـيته وشـجاعته ومهارته فى ركوب الخيل واصطياد الوحش يقول:

وقد أَغتدى والطير فى وُكُناتِها بِمُنْجردٍ قيدِ الأوابدِ هيكلِ

مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ معاً كجُلْمُودِصَـخْرٍ حَطَّهُ السَّيْلُ مِنْ عَلِ وهو وصف رائع لفرسه الأشـقر، فقدصوّر سرعته تصويراً بديعاً، وبدأ فجعله قيداً لأوابد الوحش إذا انطلقت فى الصحراء فإنّها لا تستطيع إفلاتاً منه كأنّه قيد يأخذ بأرجلها.

وهو لشـدّة حركته وسـرعته يخيّل إليك كأنّه يفرّ ويكرّ فى الوقت نفسه، وكأنّه يقبل ويدبر فى آن واحد، وكأنّه جلمودصـخر يهوى به السيل من ذورة جبل عال.

ثمّ يستطرد فى ذكرصيده وطهى الطهاة له وسط الصحراء قائلًا:

فظلّ طهاةُ اللحمِ ما بين منضجٍ صفيف شواء أو قدير معجّلِ وينتقل بعد ذلك إلى وصف الأمطار والسيول، التى ألمّت بمنازل قومه بنى أسد بالقرب من تيماء فى شمالى الحجاز، يقول:

أحارِ ترى برقاً كأنّ وميضَهُ كلمعِ اليدين فى حبيٍّ مكَلّلِ يضىءُ سناهُ أو مصابيحُ راهبٍ أهانَ السَّليطَ فى الذُّبالِ المفتّلِ

قعدتُ له وصحبتى بين حامرٍ وبين إكام بُعْدَ ما متأمّلِ

وأضحى يسحُّ الماء عن كلِّ فيقةٍ يكبُّ على الأذهان دوحَ الكَنهْبَلِ

وتيماءَ لم يترك بها جذعَ نخلةٍ ولا اطماً إلّامشيداً بِجَنْدَلِ استهلّ هذه القطعة بوصف وميض البرق وتألّقه فى سحاب متراكم، وشبّه هذا التألّق واللمعان بحركة اليدين إذا اشير بهما، أو كأنّه مصابيح راهب يتوهّج ضوؤها بما يمدّها من زيت كثير.

ويصف كيف جلس هو وأصـحابه يتـأمّلونه بين جامر وإكام، والسـحاب يسـحّ سـحّاً، حتّى لتقتلع سـيوله كلّ ما فى طريقها من أشـجار العِضاه العظيمة، وتلك تيماء لم تترك بها نخلًا ولا بيتاً، إلّاما شيّد بالصخر، فقد اجتثّت كلّ ما مرّت به، وأتت عليه من قواعده واصوله.

ص:۲۴۶

ص: ۲۴۷

لبید بن ربیعة

هو لبید بن ربیعة بن عامر بن مالک بن جعفر بن کلاب بن ربیعة.. الکلابی

قال المرزبانی: کان فارساً شجاعاً سخیّاً، قال الشعر فی الجاهلیة دهراً (۱).

قال أکثر أهل الأخبار: إنّه کان شریفاً فی الجاهلیة والإسلام، وکان قد نذر أن لا تهبّ الصبا إلّانحر وأطعم، ثمّ نزل الکوفة، وکان المغیرة بن شعبة إذا هبّت الصبا یقول: أعینوا أبا عقیل علی مروءته (۲).

وحکی الریاشی: لمّا اشتدّ الجدب علی مضر بدعوة النبیّصلی الله علیه و آله وفد علیه وفد قیس وفیهم لبید فأنشد:

أتیناک یا خیر البریّة کلّها لترحمنا ممّا لقینا من الأزلِ

أتیناک والعذراء تدمی لبانها وقد ذهلت أمّ الصبیّ عن الطفلِ

فإن تدعُ بالسقیا وبالعفو ترسل ال - سّماءَ لنا والأمر یبقی علی الأَصْلِ وهو من الشعراء، الّذین ترفعوا عن مدح الناس لنیل جوائزهم وصِلاتهم، کما أنّه کان من الشعراء المتقدّمین فی الشعر.

وأمّا أبوه فقد عرف بربیعة المقترین لسخائه، وقد قُتل والده وهوصغیر السّنّ، فتکفّل أعمامهُ تربیتَه.

ویری بروکلمان احتمال مجیء لبید إلی هذه الدنیا فی حوالی سنة ۵۶۰ م. أمّا وفاته فکانت سنة ۴۰ ه. وقیل: ۴۱ ه. لمّا دخل معاویة الکوفة بعد أنصالح الإمام الحسن بن علی ونزل النخیلة، وقیل: إنّه مات بالکوفة أیّام الولید بن عقبة فی خلافة عثمان، کما ورد أنّه توفّی سنة نیف وستین (۳).

قالوا فیه:

۱- النبیصلی الله علیه و آله: أصدق کلمة قالها الشاعر کلمة لبید:

ألا کلّ شیء ما خلا اللَّه باطلُ (۴)

۱- ۱ الاصابة فی تمییز الصحابة ۶: ۴. ط دار الکتب العلمیة- بیروت.

۲- ۲ اسد الغابة ۴: ۲۶۱ والإصابة ۶: ۵.

۳- ۳ المفصل ۹: ۵۴۶- ۵۴۷.

۴- ۴ الإصابة ۶: ۵.

ص: ۲۴۸

وروى أنّ لبيداً أنشد النبيصلى الله عليه و آله قوله:

ألا كلّ شىء ما خلا اللّه باطلُ

فقال له:صدقت.

فقال:

وكلّ نعيم لا محالة زائلُ

فقال له: كذبت، نعيم الآخرة لا يزول (۱).

۲-المرزبانى: إنّ الفرزدق سمع رجلًا ينشد قول لبيد:

وجلا-السيوف من الطلولِ كأنّها زبر تجدّ متونَها أقلامُها فنزل عن بغلته وسجد، فقيل له: ما هـذا؟ فقال: أنا أعرف سجدة الشعر كما يعرفون سجدة القرآن (۲).

القول فى إسلامه

وأمّا إسلامه فقد أجمعت الرواة على إقبال لبيد على الإسلام من كلّ قلبه، وعلى تمسّكه بدينه تمسّكاً شديداً، ولا سيما حينما يشعر بتأثير وطأة الشيخوخة عليه، وبقرب دنوّ أجله؛ ويظهر أنّ شيخوخته قد أبعدته عن المساهمة فى الأحداث السياسية التى وقعت فى أيّامه، فابتعد عن السياسة، وابتعد عن الخوض فى الأحداث، ولهذا لا نجد فى شعره شيئاً، ولا فيما روى عنه من أخبار أنّه تحزّب لأحد أو خاصم أحداً.

وروى أنّ لبيداً ترك الشعر وانصرف عنه، فلمّا كتب عمر إلى عامله المغيرة ابن شعبة على الكوفة يقول له: استنشد من قبلك من شعراء مصرك ما قالوا فى الإسلام. أرسل إلى لبيد، فقال: أرجزاً تُريد أم قصيداً؟ فقال:

أنشدنى ما قلته فى الإسلام، فكتب سورة البقرة فيصحيفة ثمّ أتى بها، وقال:

أَبدلنى اللّه هذا فى الإسلام مكان الشعر. فكتب المغيرة بذلك إلى عمر فنقص من

۱- ۱ خزانة الأدب ۲: ۲۵۲، تحقيق عبدالسلام هارون.

۲- ۲ الاصابة ۶: ۵.

ص: ۲۴۹

عطاء الأغلب خمسمائة وجعلها فی عطاء لبید (۱).

وجعله فی اسد الغابة من المؤلّفة قلوبهم وممّن حسن إسلامه (۲)، وکان عمره مائة وخمساً وخمسین سنة، منها خمس وأربعون فی الإسلام وتسعون فی الجاهلیة (۳).

مختارات من شعره

له قصیدة فی رثاء النعمان بن المنذر، تعرّض فیها للموت ولزوال النعیم ولعدم دوام الدنیا لأحد، مطلعها:

ألا تسألان المرء ماذا یحاولُ أنحب فیقضی أم ضلالٌ وباطلٌ؟ وقد ذکر فیها اللَّه جلّ جلاله بقوله:

أری الناس لا یدرون ما قدرُ أمرِهمُ بلی: کلّ ذی لبّ إلی اللَّه واسلُ

ألا کلُّ شیءٍ ما خلا اللَّه باطلُ وکلّ نعیم لا محالة زائلُ

وکلُّ اناسٍ سوف تدخلُ بینهم دویهیّةٌ تصفرّ منها الأناملُ

وکلّ امرئ یوماً سیعلمُ سعیه إذا کشّفت عند الإله المحاصلُ (۴) معلّقة لبید بن ربیعة

البحر: الکامل. عدد الأبیات: ۸۹ موزّعة فیما یلی: ۱۱ فی دیار الحبیبة. ۱۰ فی رحلة الحبیبة وبعدها وأثره. ۳۳ فی الناقة. ۲۱ فی الفخر الشخصی. ۱۴ فی الفخر القبلی.

۱- ۱ المفصل ۹: ۵۵۳.

۲- ۲ اسد الغابة ۶: ۲۶۲.

۳- ۳ الإصابة ۶: ۴.

۴- ۴ المفصّل ۹: ۵۵۰- ۵۵۱.

ص: ۲۵۰

يبدأ الشاعر معلقته ببكاء الأطلال ووصفها، وكيف أنّ الديار قد درست معالمها حتّى عادت لا ترى فقد هجرت، وأصبحت لا يدخلها أحدٌ لخرابها:

عفت الديار محلّها فمقامها بمنىً تأبّد غولها فرجامها

رزقت مرابيع النجوم وصابها ودقَ الرواعد جودها فرهامها ثمّ عاد بمخيلته شريط الذكريات، ذكريات فراق الأحبّة فيتحدّث عن الظعائن الجميلات الرشيقات، وعن هوادجهنّ المكسوّة بالقماش والستائر:

مشاقتك ظعن الحيّ يوم تحمّلوا فتكنّسوا قطناً تصرّ خيامها

من كلِّ محفوف يظلّ عصيّه روح عليه كلّةٌ وقرامها ويرى أن يقطع أمله منها ويترك رجاءه فيها ما دامت نوار قد تغيّر وصلها:

ما قطع لبانه من تعرّض وصله ولشرّ واصل خلّةصرّامها ثمّ يأخذ فى وصف ناقته بألفاظ غريبة وتعابير بدوية متينة، فهو يشبهها بالغمامة الحمراء تدفعها رياح الجنوب فيقول:

فلها هبابٌ فى الزمامِ كأنّها صهباء خفّ مع الجنوب حمامُها واخرى يشبّهها بالبقرة الوحشيّة قائلًا:

خنساءُ ضيّعتِ الغريرَ فلم ترِمْ عُرْضَ الشّقائقِ طوفها وبُغامُها لمعفّرٍ قَهْدٍ تنازعَ شلوهُ غبسٌ كواسبُ، لا يُمَنّ طعامُها وعلى الرغم من تعرّضه لوصف الناقة فلم تفته الحكمة:

صادفْنَ منها غرّة فأصبنها إنّ المنايا لا تطيش سهامها ويقول:

لتذودهنّ وأيقنت إن لم تَذُدْ أن قد أحمّ من الحتوفِ حمامها فهو مؤمن بقضاء اللّه، قانع بما قسم له وكتب عليه، راضٍ بذلك، ويدعو النّاس إلى الرضا:

فاقنع بما كتب المليكُ فإنّما قسم الخلائق بيننا علّامها ثمّ ينتقل لبيد للفخر بفروسيّته، وكونه يحمى قومه فى موضع المحنة والخوف، يرقب لهم عند ثغور الأعداء وهو بكامل عدّته متأهّباً للنزال، حتّى إذا أجنّه الظلام نزل من مرقبه إلى السهل، وامتطى جواده القوى السريع:

ولقد حميت الحيّ تحمل مثكتى فرطٌ وشاحى إذ غدوت لجامها

فعلوت مرتقباً على ذى هبوةٍ حرجٍ إلى أعلامهنّ قَتَامُها

حتّى إذا ألقت يداً فى كافرٍ وأجنّ عورات الثغور ظلامها

أسهلت وانتصبتْ كجذعِ منيفةٍ جرداءَ يَحْصَرُ دونَها جرّامُها ولبيد خير شاعر برّ قومه، فهو يحبّهم ويؤثرهم ويشيد بمآثرهم ويسجّل مكرماتهم، ويفخر بأيّامهم وأحسابهم، فسجّل فى معلّقته فضائل قومه، وافتخر بأهله وخصّهم بأجود الثناء:

إنّا إذا التقت المجامعُ لم يزل منّا لزازُ عظيمةٍ جشّامُها

من معشرٍ سنّت لهم آباؤهم ولكلّ قومٍ سنّةٌ وإمُامها

لا يطبعون ولا يبور فعالُهم إذ لا يميل مع الهوى أحلامُها

وهم السعاةُ إذا العشيرة افظِعَتْ وهُمُ فوارسها وهم حكّامُها

ص:۲۵۱

ص: ۲۵۲

وهُمُ ربيعٌ للمجاور فيهمُ والمرملاتِ إذا تطاولَ عامُها

وهُمُ العشيرةُ أن يُبَطِّئ حاسدٌ أو أن يميلَ مع العدى لوّامُها زهير بن أبی سلمی

هو زهير بن أبی سلمی- واسم أبی سلمی: ربيعة بن رباح المزنی من مزينة ابن أد بن طابخة.

كانت محلّتهم فی بلاد غطفان، فظنّ الناس أنّه من غطفان، وهو ما ذهب إليه ابن قتيبة أيضاً.

وهو أحد الشعراء الثلاثة الفحول المقدّمين على سائر الشعراء بالاتّفاق، وإنّما الخلاف فی تقديم أحدهم على الآخر، وهم: امرؤ القيس وزهير والنابغة. ويقال:

إنّه لم يتصل الشعر فی ولد أحد من الفحول فی الجاهلية ما اتصل فی ولد زهير، وكان والد زهير شاعراً، واخته سلمی شاعرة، واخته الخنساء شاعرة، وابناه كعب ومجبر شاعرين، وكان خال زهير أسعد بن الغدير شاعراً، والغدير امّه وبها عرف، وكان أخوه بشامة بن الغدير شاعراً كثير الشعر.

ويظهر من شعر ينسب إليه أنّه عاش طويلًا إذ يقول متأفّفاً من هذه الحياة ومشقّاتها حتّى سئم منها:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولًا لا أبا لك يسأم قالوا فيه:

۱- الحطيئة استاذ زهير: سئل عنه فقال: ما رأيت مثله فی تكفِّيه على أكتاف القوافی، وأخذه بأعنّتها حيث شاء، من اختلاف معانيها امتداحاً وذمّاً (۱).

۲- ابن الاعرابی: كان لزهير فی الشعر ما لم يكن لغيره (۲).

۳- قدامة بن موسی- وكان عالماً بالشعر-: كان يقدّم زهيراً.

۱- ۱ المفصّل ۹: ۵۴۴.

۲- ۲ شرح الشواهد للسيوطی ۱: ۱۳۳.

ص: ۲۵۳

۴- عکرمۀ بن جریر: قلت لأبی: مَن أشعر الناس؟ قال: أجاهلیۀٌ أم إسلامیۀ؟ فقلت: جاهلیۀ، قال: زهیر (۱).

ممیّزات شعره:

امتـاز زهیر بمـدحیّاته، وحکمیّـاته، وبلاغته، وکان لشـعره تأثیر کبیر فی نفوس العرب. وکان أبوه مقرّباً من امراء ذبیان، وخصوصاً هرم بن سنان والحارث ابن عوف، وأوّل قصیدۀ نظمها فی مدحهما علی أثر مکرمۀ أتیاها. معلّقته المشهورۀ.

ویؤخذ من بعض أقواله أنّه کان مؤمناً بالبعث کقوله:

یؤخَّر فیودَع فی کتـابٍ فیـدَّخَرْ لیومِ الحسـابِ أو یعجّلْ فینتقمِ وممّا یـدلّ علی تعقّله وحنکته وسعۀصدره حِکمه فی معلّقته، وقـد جمع خلاصۀ التقاضی فی بیت واحد:

وإنّ الحقّ مقطعه ثلاث: یمینٌ أو نفارٌ أو جلاءُ معلّقۀ زهیر بن أبی سلمی

البحر: الطویل. عـدد الأبیات: ۵۹ موزّعـۀ فیما یلی: ۶ فی الأطلال. ۹ فی الأظعان. ۱۰ فی مدح الساعین بالسـلام. ۲۱ فی الحدیث إلی المتحاربین. ۱۳ فی الحکم.

یبـدأ الشـاعر معلّقته بالحـدیث عمّاصارت إلیه دیار الحبیبـۀ، فقـد هجرها عشـرین عاماً، فأصـبحت دمناً بالیـۀ، وآثارها خافتـۀ، ومعالمها متغیّرۀ، فلمّا تأکّد منها هتف محیّیاً ودعا لها بالنعیم:

أمن امّ أوفی دِمنۀٌ لم تَکَلَّمِ بحَوْمانَۀِ الدّرّاجِ فالمتَثَلَّمِ

وقفتُ بها من بعدِ عشرینَ حجّۀً فَلَأْیاً عرفتُ الدار بعد توهُّمِ

۱- ۱ الشعر والشعراء: ۵۷.

ص: ۲۵۴

فلمّا عرفتُ الـدار قلت لربعها ألا أنعمصـباحاً أيّها الربع وأسـلمِ ثمّ عاد بالـذاكرة إلى الوراء يسترجع ساعة الفراق، ويصف النساء اللاتى ارتحلن عنها، فيتبعهنّ ببصره كئيباً حزيناً، ويصف الطريق الّتى سلكنها، والهوادج التى كنّ فيهاو...:

بكرن بكوراً واستحرنَ بسحره فهنّ ووادى الرسّ كاليدِ للفمِ

جعلن القنان عن يمين وحزنه وكم بالقنان من محلّ ومحرمِ

فلمّا وردنَ الماء زرقاً جمامه وضعْنَ عِصِيَّ الحاضرِ المتخيَّمِ

وفيهنّ ملهى للّطيف ومنظرٍ أنيق لعين الناظر المتوسّم وكأنّه حينما وصل إلى هذا المنظر الجميل الفتّان سـبح به خاطره إلى جمال الخلق وروعة السـلوك، وحبّ الخير والتضـحية فى سبيل الأمن والاسـتقرار، فشـرع يتحدّث عن الساعين فى الخير، المحبّين للسـلام، الداعين إلى الإخـاء والصـفاء، فأشـاد بشخصـين عظيمين همـا هرم والحـارث، وذلـك لموقفهمـا النبيل فى إطفاء نار الحرب بين عبس وذبيان، وتحمّلهما ديات القتلى من مالهما وقد بلغت ثلاثة آلاف بعير، قال:

سعى ساعياً غيظ من مرّة بعدما تبزّل ما بين العشيرة بالدمِ

فأقسمت بالبيت الّذى طاف حوله رجال بنوه من قريشٍ وجرهمِ

يميناً لنعم السّيّدان وُجدتما على كلّ حالٍ من سحيل ومبرمِ

تداركتما عبساً وذبيان بعدما تفانوا ودقّوا بينهم عطر منشمِ

ص: ٢٥٥

وقد قلتما: إن ندرك السلم واسعاً بمالٍ ومعروفٍ من القول نسلم

فأصبحتما منها على خير موطنٍ بعيدين فيها من عقوقٍ ومأثم ثمّ وجّه الكلام إلى الأحلاف المتحاربين قائلًا:

هل أقسمتم أن تفعلوا ما لاينبغى؟ لا تظهروا الصلح، وفى نيّتكم الغدر؛ لأنّ اللّه سيدخره لكم ويحاسبكم عليه، إن عاجلًا أو آجلًا، يقول:

ألا أبلغ الأحلاف عنّى رسالة وذبيان هل أقسمتم كلّ مقسم

فلا تكتمنّ اللّه ما فيصدوركم ليخفى ومهما يكتم اللّهُ يعلم

يؤخّر فيوضع فى كتابٍ فيدّخر ليوم الحساب أو يعجّل فينقم ثمّ انتقل من هذا المجال مجال النصح والتوجيه وتأكيد السلام إلى مجال الحكمة الإنسانية العامة، حكمة الرجل المجرّب للحياة، الذى ذاقها وخبرها وعاش فى خضمّها، ثمّ امتدّ به العمر فزهدها وانصرف عنها، قال:

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله على قومِهِ يُسْتَغْن عنهُ ويذمَم

ومن لا يذد عن حوضه بسلاحه يُهَدَّمْ، ومن لا يظلم الناسَ يُظْلَم

ومن لا يصانع فى امورٍ كثيرةٍ يضرّس بأنيابٍ ويوطأ بمنسم

ومن يجعل المعروف من دون عرضه يَفِرْهُ ومن لا يتّقِ الشّتم يُشتَم

ص: ٢٥٦

ومهما تكن عند امرئٍ من خليقةٍ وإن خالها تخفى على الناسِ تُعلَمِ

سئمتَ تكاليفَ الحياةِ ومن يعش ثمانين حولًا لا أبا لك يسأمِ

وأعلمُ ما فى اليومِ والأمسِ قبلهُ ولكنّنى من علم ما فى غدٍ عمِ رأيتُ المنايا خبط عشواءَ من تُصب تمتْهُ ومن تُخطئ يعمّر فيهرمِ

ويختمها بتأكيد معروف الممدوحين عليه فيقول:

سألنا فأعطيتم وعدنا فعدتمُ ومن يكثر التسآلَ يوماً سيحرمِ عنترة بن شدّاد العبسى

هو عنترة بن عمرو بن شدّاد بن عمرو ... بن عبسى بن بغيض (١)، وأمّا شدّاد فجدّه لأبيه فى رواية لابن الكلبى، غلب على اسم أبيه فنسب إليه، وقال غيره:

شدّاد عمّه، وكان عنترة نشأ فى حجره فنسب إليه دون أبيه، وكان يلقّب ب (عنترة الفلحاء) لتشقّق شفتيه. وانّما ادّعاه أبوه بعد الكبر، وذلك لأنّه كان لأمة سوداء يقال لها زبيبة، وكانت العرب فى الجاهلية إذا كان للرجل منهم ولد من امّه استعبده.

وكان سبب ادّعاء أبى عنترة إيّاه أنّ بعض أحياء العرب أغاروا على قوم من بنى عبس، فتبعهم العبسيّون فلحقوهم فقاتلوهم عمّا معهم، وعنترة فيهم، فقال له أبوه أو عمّه فى رواية اخرى: كرّ يا عنترة، فقال عنترة: العبد لا يحسِن الكرّ، إنّما يحسن الحلاب والصرّ، فقال: كرّ وأنت حرّ، فكرّ وقاتل يومئذٍ حتّى استنقذ ما بأيدى عدوّهم من الغنيمة، فادّعاه أبوه بعد ذلك، وألحق به نسبه (٢).

١- ١ الشعر والشعراءص ١٣٠.

٢- ٢ المفصل ٩: ٥٥٨.

ص: ۲۵۷

كان شاعرنا من أشـدّ أهل زمانه وأجودهم بما ملكت يده، وكان لا يقول من الشعـر إلّاالبيتين والثلاثة حتّى سابّه رجل بنى عبس فذكر سواده وسواد امّه وسواد اخوته، وعيّره بـذلك، فقـال عنترة قصـيدته المعلّقـة التى تسـمّى بالمذهّبـة وكـانت من أجود شـعره: هل غادر الشعراء من متردّمِ (۱).

وكان قدشهد حرب داحس والغبراء فحسن فيها بلاؤه وحمد مشاهده.

أحبّ ابنـة عمّه عبلة حبّاً شديداً، ولكنّ عمّه منعه من التزويج بها. وقد ذكرها فى شـعره مراراً وذكر بطولاتها أمامها، وفى معلّقته نماذج من ذلك.

وقد ذكر الأعلم الشنتمرى فى اختياراته من أشعار الشعراء الستة الجاهليينص ۴۶۱ أنّ النبيصلى الله عليه و آله حينما أنشد هذا البيت:

ولقد ابيتُ على الطوى وأظله حتى أنال به كريم المأكلِ قالصلى الله عليه و آله: ما وصف لى أعرابى قط، فأحببتُ أن أراه إلّاعنترة.

نماذج من شعره:

بكرت تخوّفنى الحتوف كأنّنى أصبحتُ عن عرضِ الحتوفِ بمعزلِ

فأجبتها إنّ المنيّة منهلٌ لابدّ أن اسقى بذاك المنهلِ

فاقنى حياءك لا أبا لك واعلمى أنّى امرؤٌ سأموتُ إن لم اقتلِ ومن إفراطه:

وأنا المنيّة فى المواطن كلّها والطعنُ منّى سابقُ الآجالِ وله شعر يفخر فيه بأخواله من السودان:

إنّى لتعرف فى الحروب مواطنى فى آل عبسٍ مشهدى وفعالى

منهـم أبى حقّاً فهم لى والـدٌ والامّ من حـامٍ فهم أخـوالى (۲) قال الـدكتور جواد على: انصـحّ هـذا الشـعر هو لعنـترة دلّ على وقوف الجـاهليين على اسم «حـام» الوارد فى التوراة على أنّه جـدّ السودان، ولابـدّ أن تكون التسـمية قـد وردت إلى الجاهليين عن طريق أهل الكتاب (۳).

۱- ۱ الشعر والشعراءص ۱۳۱- ۱۳۲.

۲- ۲ الشعر والشعراءص ۱۳۳- ۱۳۴.

۳- ۳ المفصّل ۹/ ۵۶۰.

ص: ۲۵۸

وقد اختلف فی موته، فذکر ابن حزم (۱) انّه قتله الأسد الرهیص حیّان بن عمرو بن عَمیرة بن ثعلبة بن غیاث بن ملقط. وقیل: إنّه کان قد أغار علی بنی نبهان فرماه وزر بن جابر بن سدوس بن أصمع النبهانی فقطع مطاه، فتحامل بالرمیّة حتّی أتی أهله فمات (۲).

معلّقة عنترة العبسی

البحر: الکامل. عدد الأبیات: ۸۰ بیتاً. ۵ فی الأطلال. ۴ فی بعد الحبیبة وأثره.

۳ فی موکب الرحلة. ۹ فی وصف الحبیبة. ۱۳ فی الناقة. ۴۶ فی الفخر الشخصی...

یبدأ عنترة معلّقته بالسؤال عن المعنی الذی یمکن أن یأتی به ولم یسبقه به أحد الشعراء من قبل، ثمّ شرع فی الکلام فقال: إنّه عرف الدار وتأکّد منها بعد فترة من الشکّ والظنّ فوقف فیها بناقته الضخمة لیؤدّی حقّها- وقد رحلت عنها عبلة وصارت بعیدة عنه- فحیّا الطلل الّذی قدم العهد به وطال ...

فیقول:

هل غادر الشعراء من متردّمِ أم هل عرفت الدار بعد توهُّمِ

یا دار عبلة بالجواء تکلّمی وعمیصباحاً دار عبلة واسلمی

فوقفت فیها ناقتی وکأنّها فدن لأقضی حاجة المتلوّمِ

حُیّیتَ من طللٍ تقادمَ عهدهُ أقوی وأقفر بعد امّ الهیثمِ

ولقد نزلت فلا تظنّی غیره منّی بمنزلةِ المحبّ المکرمِ

إن کنت أزمعت الفراق فإنّما زمّت رکابکمُ بلیلٍ مظلمِ

ما راعنی إلّاحمولة أهلها وسط الدیار تسفّ حبّ الخمخَمِ ثمّ سرد طرفاً من أسباب هیامه، فقال:

إنّها ملکت شغاف قلبه بفم جمیل، أبیض الأسنان طیّب الرائحة، یفوح العطر

۱- ۱ جمهرة أنساب العربص ۴۰۰.

۲- ۲ المفصل ۹: ۵۶۱ عن أسماء المغتالینص ۱۲۰ مخطوط.

ص: ۲۵۹

من عوارضه:

إذ تستبيك بذى غروب واضح عذب مقبّله لذيذ المطعم ثمّ قارن بين حاله وحالها؛ فهى تعيش منعّمة، وهو يعيش محارباً، وتمنّى أن توصله إليها ناقة قويّة لا تحمل ولا ترضع وتضرب الآثار بأخفافها فتكسرها ...

فقال:

تمسى وتصبح فوق ظهر حشيّة وأبيت فوق سراة أدهم ملجمِ

وحشيتى سرج على عبل الشوى نهد مراكله نبيل المحزمِ

هل تبلغنّى دارها شدنيّة لعنت بمحروم الشرابِ مصوّمِ ثمّ يتجّه بالحديث إلى الحبيبة يسرد أخلاقه وسجاياه قائلًا:

إن ترخى قناع وجهك دونى فإنّى خبير ماهر بمعاملة الفرسان اللابسين الدروع، وأنا كريم الخلق لين الجانب إلّاإذا ظُلمت فعند ذلك يكون ردّى عنيفاً مرّاً:

إن تغدفى دونى القناع فإنّنى طبّ بأخذ الفارس المستلئم

أثنى علىّ بما علمت فإنّنى سهل مخالقتى إذا لم اظلم

فإذا ظُلمت فإنّ ظلمى باسل مرّ مذاقته كطعم العلقمِ ثمّ يستمرّ البطل فى وصف بطولته لحبيبته، فيحثّها أن تسأل عنه فرسان الوغى الّذين شهدوه فى معترك الوغى وساحات القتال ليخبروها بأنّ لعنترة من الشجاعة ما تجعله لا يهاب الموت بل يقحم فرسه فى لبّة المعركة، ويقاتل، وبعد الحرب- وكعادة الجيش المنتصر- فإنّ أفراده ينشغلون بجمع الغنائم، امّا هو فيده عفيفة عن أخذ الغنائم، فقتاله لا للغنيمة وإنّما لهدف أبعد وهو أن يكسب لقومه شرف الانتصار.

ويستمرّ فى مدح نفسه فيذكر فى شعره معان نبيلة، وهى معان ارتفعت عنده إلى أروعصورة للنبل الخلقى حتّى لنراه يرقّ لأقرانه الّذين يسفك دماءهم، يقول وقد أخذه التأثّر والانفعال الشديد لبطشه بأحدهم:

ص: ۲۶۰

فشككت بالرمح الطويل ثيابَهُ ليس الكريم على القنا بمحرّمِ فهو يرفع من قدر خصمه، فيدعوه كريماً، ويقول إنّه مات ميتة الأبطال الشرفاء فی ساحهٔ القتال.

وكان يجيش بنفسه إحساس عميق نحو فرسه الّذی يعايشه ويعاشره حين تنال منه سيوف أعدائه ورماحهم، يقول مصوّراً آلامه وجروحه الجسديّهٔ وقروحه النفسيهٔ:

فأزورّ من وَقْعِ القَنا بِلبَانهِ وشكا إلیّ بعبرةٍ وتَحَمْحُمِ

لو كان يدری ما المحاورةُ اشتكی ولكان لو عَلِمَ الكلامَ مكلِّمی وكأنّما فرسه بضعهٔ من نفسه.

ثمّ يختم قصيدته بأنّه يعرف كيف يسوس أمره ويصرف شؤونه، فعقله لا يغرب عنه، ورأيه محكم، وعزيمتهصادقهٔ، ولا يخشی الموت إلّاقبل أن يقتصّ من غريمه:

ذلّل ركابی، حيث شئت مشايعی لبّی وأحفره بأمر مبرمِ

ولقد خشيت بأن أموت ولم تكن للحرب دائرةٌ علی ابنی ضمضمِ

الشاتمَی عرضی ولم أشتمهما والناذرَينِ إذا لم ألقِهما دمی

إن يفعلا فلقد تركت أباهما جزر السباعِ وكلّ نسرٍ قشعمِ

ص: ۲۶۱

ص: ۲۶۲

ص: ۲۶۳

ص: ۲۶۴

الوضع الاجتماعى فى الجزيرة العربية

ص: ۲۶۵

الوضع الاجتماعی فی الجزیرة العربیة

أحمد الواسطی

إنّ النظم الاجتماعیة لعرب الجاهلیة هی حصیلة التفاعل بینهم وبین البیئة التی عاشوا فیها. فقد خضعوا لشروط بیئتهم ولاءموا حیاتهم الاجتماعیة مع الظروف الطبیعیة التی نشأوا فیها.

والجدیر بالذکر أنّ الظروف المعیشیة الصعبة والأرض الصحراویة القاحلة أوجبت أن یکون الأساس فی حیاة العرب، وبخاصة عرب الشمال، البداوة، والبداوة تعنی الحیاة القبلیة المتنقلة، إذ إن طبیعة البلاد الصحراویة تفرض علی ساکنیها أن یعانوا حیاة شاقة لا مجال فیها للقرار واستیطان الارض.

والقبیلة هی الوحدة التی یتجمع حولها الأفراد، والأفراد لا یعرفون سوی قبیلتهم ملاذاً لهم، خلافا لأهل الحضر الذین یکرّسون ولاءهم للدولة فی أیامنا الحاضرة.

وإذا کانت القبیلة تقوی بأفرادها، وکانت قوة الأفراد من قوة الجماعة، وجب علی الفرد فی القبیلة أن یتضامن مع قبیلته علی الخیر والشر، وأن ینصر

ص: ۲۶۶

أخاه ظالماً أو مظلوماً، وأن یکون أفراد القبیلة یداً واحدة علی من سواهم:

لا ـ یسألون أخاهم حین ینـدبهم فی النائبـات علی ماقال برهانا فالناظر الی مجتمعات شـبه الجزیرة العربیـة، سواء فی ذلک المجتمعات القبلیـة البدویـة أو مجتمعات الحضـر التی تظهر علی أوضـحها فی التکوینات السیاسـیة الکبیرة، یجـد أنها تشترک جمیعا فی عنصـرین أساسیین:

العنصر الأول: عوامل التماسک التی تبدو وکأنها تشدّ المجتمع الی بعضه.

والعنصر الثانی: عوامل الانقسام الطبقی التی تسیر فی موازاة العوامل الأولی.

عوامل التماسک:

وفیما یخصّ عوامل التماسک فإننا نجـد عـدداً واضـحاً منها فی التکوینات القبلیـة تهدف الی إشاعة التماسک، حسب تصور معین فی المجتمع القبلی، ومن هذه العوامل: عامل العصبیة وعامل آخر مکمّل له وهو الثأر.

وتتولـد العصبیـة القبلیـة عنـد الأـفراد عن وعی أو غیر وعی، وتسـتمر بتعاقب الأجیال علی نمط عاطفـة عمیقـة وفکرة ثاقبـة. فهی بمثابة الرباط الذی یشدّ بطون القبیلة وأفرادها بعضهم الی بعض، فیجعلهم یداً واحدة.

ولولا هذا الشعور لما کان فی وسعهم أن یدافعوا عن أنفسهم ومصالحهم.

فالعصبیة القبلیة بهذا المعنی هی البدیل الذی لابد منه للرابطة القومیة، ولکن فی حیّزها المتطرف (۱).

ویقترن بالعصبیـة القبلیـة عادة الثأر، إذ تقضـی تقالید البادیة أن یطالب أهل المقتول بقاتله لیقتلوه به، وهو الأمر المعروف باسم (القَوَد) إلّاإذا رضوا بدیة القتیل.

والدیــة تختلـف باختلاـف مرکز القتیـل مـن الناحیــة الاجتماعیـة، فالدیـة واجبـة عـن الملـوک والزعمـاء، وتختلـف عـن دیـة الأـفراد والصعالیک، ودیة الصریح ضعف

۱- ۱ الآلوسی: بلوغ الارب فی معرفة احوال العرب: ۳/ ۲۲. د. جواد علی: تاریخ العرب قبل الاسلام ۱/ ۳۶۷- ۳۶۸.

ص: ۲۶۷

دیة الحلیف. والذی جری علیه العرب أن یأخذوا مائة من الإبل دیة القتیل من عامتهم، ودیة الأشـراف تزید عن ذلک، بینما تکون دیة الملوک ألف بعیر.

أما إذا لم یحصل القَوَد، ولم یرضَ ذوو القاتل أو عشـیرته بـدفع الدیـة، ویکون القاتل قـد لاذ بالفرار، عندئـذ یصـبح الأخذ بثأره واجباً محتماً، إذ یصـمم ولی المقتول، ویکون عادةً أقرب الناس إلیه، علی الأخـذ بثأره، وغالباً ما یحرم علی نفسه أن یشـرب الخمر أو یقرب النساء أو یمس رأسه غسل حتی یدرک ثأره (۱)، وقد یستغرق طلب الثأر عشرات السنین.

والعرب یعتقدون أن القتیل تخرج من رأسه هامة تنادی علی قبره (اسقونی فإنیصدیة)، ولا ینقطع نداؤها إلّاحین یؤخد بثأره (۲).

وحتی أدرک أولیاء القتیل ثأرهم، ورأوا أنّ من قتلوه کفؤ لقتیلهم، نام الثأر فیصدورهم، وعندئذ یسـمی (الثأر المنیم). أما الذی یتوانی عن طلب الثـأر لقـتیله فیلحقه العـار. وقـد یلحق العـار القبیلـة بأسـرها إذا نـامت عن ثأرهـا ولم تسعَ إلیه، فینظر العرب إلیهـا نظرة ازدراء واحتقار. وحتی من یقبل دیـة قتیله ینظر إلیه بمثل هذه النظرة. وکثیراً ما یتولد عن الانتقام للدم المسـفوح ثأر جدید، یجرُ وراءه سلسـلة من الثارات المتبادله، أشـبه ما یکون بالحلقة المفرغة وقد یسـتغرق ذلک أجیالًا. کما قد تسوی الأمور، بأن یسـلّم القاتل طوعاً أو کرهاً الی أهل القتیل کی یقتلوه به، فلا یبقی مجال لطلب الثأر. لکن القبیلة التی تفعل ذلک تکون قد جلبت علی نفسها عاراً لا یمحی.

لذلک فإنّ القبائل تفضل أن تقتل القاتل بدلًا من تسلیمه طوعاً للمطالبین به، دفعا للعار.

وقـد تتفق قبیلتان متحاربتان علی تسویة الثارات بینهما لحقن الدماء فترضـیان بالتحکیم، یتولاه شـخص معین أو هیئة محکمین، یرضـی بهم الطرفان، یحکمون بأن تدفع القبیلة التی یکون قتلاها أقل من الثانیة فضل الدیات لها. وقد

۱- ۱ الآلوسی: ۳/ ۲۴.

۲- ۲ الآلوسی: ۲/ ۳۱۲.

ص: ۲۶۸

یحکمون بإبطال المطالبهٔ ببعض الدماء، باعتبارها لا تستوجب دفع الدیهٔ، ویقال لذلک (الشرخ). والمثال علی ذلک: الحکم الذی أصدره (یعمر بن عوف) بین قصی وخزاعهٔ، فحکم بأن کلّ دم أصابه قصی من خزاعهٔ موضوع، یشدخه قصی تحت قدمیه، فسمی یعمر لذلک باسم (یعمر الشداخ) (۱).

وحقیقهٔ إنّ العصبیهٔ والثأر قد أدّیا الی مناسبات کثیرهٔ من الصراع بین قبائل شبه الجزیرهٔ فی العصر السابق للإسلام، وکان هذا الصراع یصل فی بعض الأحیان الی فترات من العداء الصریح الذی یستمر عقوداً بأکملها بین توتر أو مناوشات أو غارات کثیفهٔ متبادلهٔ حفظ التراث العربی لنا عدداً من مواقعها وهی التی تسمی أیام العرب (۲).

ولکن من الجانب الآخر فإن کلًّا من هذین العاملین کان أمراً حیویاً بالنسبهٔ للقبیلهٔ حتی لا یذوب کیانها فی مجال العلاقات بین القبائل فی ظلّ الظروف القاسیهٔ، التی سادت مجتمع البادیهٔ فی شبه الجزیرهٔ. فالعصبیهٔ التی تنتج عن تصور حقیقی أو مفترض لرابطهٔ القرابهٔ أو الدم کانت وسیلهٔ التکتل الأساسیهٔ بین أفراد القبیلهٔ فی غیاب أیهٔ وسائل أخری ثابتهٔ لإشاعهٔ هذا التکتل. وهی وسیلهٔ تجمع بین هؤلاء الأفراد بغض النظر عن الاعتبارات الأخری المطروحهٔ مثل اعتبارات الحق والباطل أو الظلم والعدل، بحیث یصبح هذا التکتل هو القیمهٔ الأولی فی حیاهٔ القبیلهٔ، التی کثیراً ما کان یدفعها السعی وراء الکلإ الی التنقل، وهو ظرف قد یؤدی الی التشتت ومن ثم الاندثار کوحدهٔ اجتماعیهٔ، أو الی التصارع مع قبائل أخری فی سبیل الحصول علی هذا الکلإ أو علی عین ماء إذا أدخلنا فی اعتبارنا قلهٔ الماء فی شبه الجزیرهٔ الی درجهٔ الندرهٔ فی بعض الأحیان.

والجدیر بالذکر أن العصبیهٔ والثأر هماصنوان متلازمان وأمران طبیعیان فی الصحراء، حیث لا قوهٔ أو دولهٔ تحمی الفرد إذا ضعف، أو تنتقم له إذا اعتدی علیه أحد، اللهم إلّاعشیرته أو قبیلته. ولذا فرضت تقالید البادیهٔ أن یثأر الفرد لنفسه

۱- ۱ جواد علی/ ۱/ ۳۶۹.

۲- ۲ جرجی زیدان/ العرب قبل الاسلام: ۲۵۴- ۲۷۴، عمر فروخ/ تاریخ الجاهلیهٔ: ۷۷- ۸۶، السید عبدالعزیز سالم/ تاریخ العرب فی العصر الجاهلی: ۴۲۶- ۴۴۳، سعد زغلول عبدالحمید/ تاریخ العرب قبل الاسلام: ۳۱۱- ۳۱۸.

ص: ۲۶۹

أو لذويه من كلّ من يلحق الأذى به أو بذويه. ويتضامن معه أفراد عشيرته، أو بطون قبيلته فى الوصول الى حقّه ضد أى فرد أو جماعة تعتدى عليه من خارج قبيلته.

عوامل الانقسام:

ولكن مع كلّ العوامل المؤشرة الى التماسك سواء فى مجتمع التكوينات القبلية، أو فى مجتمع التكوينات الكبيرة، فإنّ عوامل الانقسام كانت موجودة فى داخل هذه التكوينات فى الوقت ذاته. ففى المجتمع القبلى رغم ماكانت عليه العصبية من رسوخ يدفع القبيلة الى أن تخفّ للدفاع عن أى فرد من أفرادها إذا تعرّض لأذى أو اعتداء أو إهانة من قبيلة أخرى، فإن نداء العصبية هذا لم يكن يمارس بنفس الحماس فى حالة كلّ الاشخاص.

ولعل الأقرب الى الواقع فى هذا الصدد هو أن هذا الحماس فى الاستجابة لنداء العصبية كان يشتد أو يخفّ أو حتى ينعدم حسب وضع الشخص فى القبيلة، فإذا كان من الوجهاء أو الاعيان أو السادة فإن القبيلة تهب فى استجابة فورية لهذا النداء، كما حدث على سبيل المثال، فيما يرويه (ابن الاثير) من غضب (عمرو بن كلثوم) حين أحسّ أن إهانة قد لحقت بأمّه على يدى أمّ الأمير اللخمى (عمرو بن هند) فنادى آل قبيلته تغلب، واستجابت القبيلة للنداء، وكان بعدهاصدام مسلح انتهى لصالح التغلبيين (۱).

ونحن نستطيع أن نقابل بين هذا وبين ما نستنتجه من شعر قاله (قريط بن أنيف) أحد بنى العنبر (وهو شاعر مخضرم) وكان عدد من أفراد (بنى ذهل بن شيبان) قد نهبوا عدداً من إبله فاستغاث بقومه فلم يغيثوه، فندّد بموقفهم هذا فى أبياته. والتفسير المنطقى هنا هو أن قريطاً ربما كان من (طبقة العوام) فى قبيلته، ومن ثم لم يكن ما أصابه من أذى (سواء بالحق أو بالباطل) مدعاة للاهتمام بين أفرادها ليهبّوا لمساندته، وهو يشرح لنا هذا الموقف بكلّ وضوح حين يقول:

۱- ۱ ابن الأثير: الكامل فى التاريخ: ج ۱/ ۳۳۱.

ص: ۲۷۰

لو کنت من مازن لم تُستبح إبلی بنو اللقیطة من ذهل بن شیبانا

إذن لقام بنصری معشر خشن عند الحفیظة إن ذو لوثةٍ هانا

قومٌ إذا الشرُّ أبدی ناجذیه لهم طاروا إلیه زرافات ووحدانا

لا یسألون أخاهم حین یندبهم فی النائبات علی ما قال برهانا

لکنّ قومی وإن کانوا ذوی عدد لیسوا من الشر فی شیء وإن هانا (۱) وهکذا تتکون بالتدریج داخل کلّ قبیلة فئة أو طبقة لا تشعر بالانتماء الکامل لها، ویمکن أن تصبح عنصر انقسام بدلًا من أن تکون عنصر تماسک.

والشیء ذاته نجده فی أفراد القبیلة الذین تخلعهم القبیلة؛ لتصرف أتَوه ولم ترضَ القبیلة عنه. إن القبیلة تعلن عن لسان سیدها أو شیخها أنها غیر مسؤولة عن تصرفاته، وبالتدریج تتکون مجموعة من المنبوذین عن المجتمع القبلی تشکل بدورها عنصراً من عناصر الانقسام.

رتب الأنساب:

وتشمل الشعب، القبیلة، العمارة، البطن، الفخذ، والفصیلة (۲). وکلّها أصول وفروع للنسب القبلی تقابل أسماء من أعضاء الجسم.

الشعب:

وهی تشمل النسب الأبعد کعدنان وقحطان، ونسل کلّ منهما شعب فهما شعبان. وفی القاموس: الشاعبان هما: المنکبان لتباعدهما. وفیه أیضا: الشعب:

موصل قطع الرأس (فی أعلاه) وربما سمی الشعب بهذا الاسم؛ لانه أعلی مرتبة من مراتب النسب، مثلما الشعب (موصل قطع الرأس) فی أعلی رأس.

القبائل:

والقبائل العربیة تتفرع من الشعب کما تتفرع قبائل الرأس، (وهی قطع عظم الرأس المشعوب بعضها الی بعض) من أعلی الرأس (أی الشعب).

۱- ۱ دیوان الحماسة مختارات أبی تمام، طبعة الرافعی، القاهرة، أولی قصائد الدیوان.

۲- ۲ الآلوسی: ۳/ ۱۸۸.

ص: ۲۷۱

یقول القلقشندی: القبیلهٔ هی ما انقسم فیه الشعب کربیعهٔ ومضر.

ربما سمیت القبائل باسم جماجم أیضاً: «جماجم العرب هی القبائل التی تجمع البطون».

العمارهٔ:

وهی بمثابهٔ العنق والصدر من الإنسان. وهی ما انقسمت فیه أقسام القبیلهٔ کقریش أو کنانهٔ.

البطن:

وهو ما انقسمت فیه أقسام العمارهٔ کبنی عبد مناف وبنی مخزوم.

الفخذ:

وقد جعلوها بعد البطن؛ لأن الفخذ من الإنسان بعد البطن. والفخذ ما انقسمت فیه أقسام البطن کبنی أمیهٔ علی سبیل المثال.

الفصیلهٔ:

وقد جعلوها بعد الفخذ؛ لأنها النسب الأدنی الذی یفصل عنه الرجل بمثابهٔ الساق والقدم، والفصیلهٔ ما انقسمت فیه أقسام الفخذ کبنی العباس (۱).

والعصبیهٔ القبلیهٔ هی فی الأصل الشعور بصلهٔ النسب الی جد واحد، وتختلف شدهٔ رباطها باختلاف درجات الالتحام فی النسب. غیر أن هنالک من الدلائل ما یشیر الی أن النسب أمر عرضی، الی جانب کونه أمراً طبیعیاً، إذ یدخل فیه الأفراد الذین یصاهرون القوم وینتسبون الیهم بالولاء ولو کانوا من قبائل أخری.

ویکون للعصبیهٔ القبلیهٔ قیمهٔ أعظم من حیث الرباط الذی یجمع بین القبائل التی ترجع الی نسب واحد، إذا رفد رابط النسب رابط من المصلحهٔ والجوار، وقد لا یکون للنسب شأن کبیر أحیاناً إذا تضارب مع المصلحهٔ وحسن الجوار.

ویبلغ الشعور بوحدهٔ النسب فی القبیلهٔ درجهٔ من القوهٔ بحیث تعتبر أن کلّ من لا ینتمی إلیها إنما هو غریب، وأحیانا وفی ظروف معینهٔ عدو، ذلک أن القبائل

۱- ۱ القلقشندی: نهایهٔ الارب فی معرفهٔ أنساب العرب:ص ۱۳- ۱۴، الآلوسی: بلوغ الارب فی معرفهٔ أحوال العرب: ۳/ ۱۸۸- ۱۸۹، وراجع المنجد عن معانی کلّ کلمهٔ من الکلمات التی تطلق علی مراتب الأنساب.

ص: ۲۷۲

العربیة کانت تألف مجتمعاً یسوده التفکک وعدم الشعور بالروابط القومیة الجامعة.

العناصر التی تتألف منها القبیلة:

والقبیلة تتألف فی العادة من عناصر کثیرة:

۱- الصـرحاء: وهم أبناء القبیلة الذین یجری فی عروقهم دمها النقی، کما أنهم ینحدرون من الجد الذی تنتسب إلیه، وهؤلاء هم الذین یسودون القبیلة، ویؤلفون بیوتات الشرف فیها.

۲- ابناء القبیلة بالنقلة: فقد کان جائزاً نقل رجل نسبه من قبیلة الی قبیلة أخری، فیصبح من أفرادها.

۳- أبناء القبیلة بالاستلحاق: فقد تُزوّج القبیلة عبداً من عبیدها امرأة من القبیلة، فیصبح مع الزمن فرداً من أفرادها یحمل نسبها. أما أولاد العربی من زواج غیر شرعی أو من جواریه، فله الخیار فی أن یلحقهم بنسبه أو لا یلحقهم، وإذا فعل أصبحوا یحملون نسب القبیلة (۱).

۴- العبیـد: وهم علی نوعین: عرب وأجانب، ومصـدر الرقیق العربی بین القبائل العربیـة، إذْ أن العربی الـذی یقاتل فی الحرب ذوداً عن قبیلته، کان علیه أن یواجهإحدی حالات ثلاث: إمّا أن یُقتل أو یَفِر أو یُجرح، وحینئذ یؤسر فیُستَرَقّ.

أمّا الناس فغالباً ما کنّ یؤخـذن أسـیرات وسـبایا فی عقب القتال. وربما کان هـدف الغارة سبی النساء، وهـذا ما کان یدعو القبائل إلی أخذ الحیطة الشدیدة لحمایتهن.

وتمنـح القبیلـة من یقوم بهـذه المهمـة بشـجاعة ألقاباً بطولیـة (کحامی الظعینـة)، أو (فارس الظعینة)، وکثیراً ما کانت القبائل تبیع سبیها واسراها (أم عمرو بن العاص کانت سبیّة، ثم بیعت فی سوق عکاظ).

أما مصـدر الرقیق الأجنبی فکان الشـراء، حیث کان العرب یرتادون أسواق الروم وفارس، فیشترون الأرقاء الـذین کانت کلّ من دولتی الروم والفرس

۱- ۱ د. فروخ: تاریخ الجاهلیة:ص ۱۵۰.

ص: ۲۷۳

المتعادیتین تأسرهم من الأخری اثناء الحروب الکثیرة، التی کانت تجری بین الطرفین. کما کان العرب یعتبرون أبناء جواریهم، الـذین لا یعترفون ببنونتهم رقیقاً لهم.

والرقیق أصـناف یختلف ثمن العبـد باختلافها، فهناک: الرقیق الأسود، وکان فی منزلة غایة فی الانحطاط بالنسـبة للرقیق الأبیض، ذلک أن العرب کـانوا یتعشّـقون البیـاض ویحتقرون السواد، حتی لیطلقون علی العبیـد السود اسم (الاغربـة) تشبیها لهم بطائر الغراب البغیض المشؤوم (۱).

أمّا الرقیق الأبیض فهو ذو مکانة أعلی وثمن أغلی وهو من جنسیات مختلفة:

فارسیة أو بیزنطیة أو من بعض الشعوب الأوربیة.

وبالرغم من أن الرقیق قـد اعتُبر کالآلـة، یؤمر فیسـتجیب ویعمل، غیر أن أثره کان عظیماً علی أهل مکة من حیث کثرة أفراده إذْ ندر ما خلا دار من دور مکة من عبید یقتنیهم رب الدار.

وقـد اسـتخدمهم مالکوهم، لما لهم من معرفـة وخبرة ومهارة فنیة، لا سـیما الرقیق الأبیض فی الحرف المختلفة، کأعمال البناء والتجارة والتعدین وغیرها، یشـتغلون لحساب أسـیادهم، کما اسـتخدموهم کحرس لهم ومشـرفین علی إدارة مبیعاتهم، وقد روی أن عاملًا رومیاً عمل فی بناء الکعبة، فی حیاة الرسول قبل البعثة.

کما رسم بعض العمال المسـیحیینصوراً للأنبیاء والملائکـة ومریم العـذراء، وغیر ذلک من قصـص الوحی الـدینی علی جدران الکعبة، حتی إذا فتح الرسولُ مکةَ طمسها مثلما حطم الأصنام، التی کانت هذه الصور قد أقحمت معها للزینة وربما تقدیساً لها.

وکـان لهؤلاء الأرقاء سـهم فی إدخال بعض الألفاظ الفارسـیة والإغریقیـة والحبشـیة الی اللغـة العربیـة، منـذ عهـد ما قبل الإسـلام، کما استخدموا فی الترفیه من

۱- ۱ أحمد ابراهیم الشریف: مکة والمدینة فی الجاهلیة وعهد الرسول:ص ۳۷- ۳۹.

ص: ۲۷۴

رقص وغناء وضرب على الأوتار. وكان بوسع العبد أن يسترد حريته بأن يؤدى لسيده خدمة عظيمة، أو يظهر شجاعة فائقة فى موقعة حربيـة، أو يتفق مع سيده على أن يشترى حريته بمبلغ من المال، ويعرف ذلك باسم (المكاتبة). والرقيق الذى يتحرر بهذه الطريقة يعرف باسم (المكاتب) (۱).

۵- الموالى: وهناك أيضا الموالى، ويرجعون الى مصدرين:

الأول: أن الرقيق عندما يعتق يصبح من الموالى، إذا أراد البقاء فى القبيلة.

والثانى: أن يلتجئ فرد من إحدى القبائل الى قبيلة أخرى بسبب خلع قبيلته له، فيعتبر مولى من مواليها، ويطبق عليه التقليد المعروف باسم (الجوار)، وهو: إمّا جوار ضد عدو معين، أو جوار عام، وفى هذه الحالة يصبح للمستجير ما لأفراد القبيلة من حقوق، من حيث حمايته والأخذ بثأره إذا قتل، ويطلق عليه اسم (حليف) (۲). وقد يصل الأمر بالمجير أن يقتل أعزّ الناس إليه إذا قتل حليفاً مستجيراً، كما فعل أوفى بن مطر المازنى الذى قتل أخاه؛ لأنه فتك بمستجير به طمعاً فى زوجته الجميلة التى كانت ترافقه.

وقد ينزل رجلصريح من غير الحلفاء على زعيم قبيلة فيصبح حليفه ويعقد بين الاثنين عهد وميثاق، يشهد عليه الملأ، وينصّ على بنود تقول: «دمى دمك، وثأرى ثأرك، وحربى حربك، وسلمى سلمك، ترثنى وأرثك، وتطلب بى وأطلب بك، وتعقل عنى وأعقل عنك» (۳).

وللحليف واجبات: ألا يسىء مادياً أو معنوياً الى القبيلة المجيرة وإلّا خلعته، وتحللت من التزاماتها نحوه، ومع ذلك لم يكن للحليف منزلة كمنزلة أبنائها الصرحاء، ذلك أن ديته نصف دية الفرد الصريح منها.

الخلع والخلعاء:

وفى مقابل ما يرفد القبيلة من عناصر خارجة عنها، هناك من التقاليد المعروفة عند العرب ما يقضى بأن القبيلة تستطيع أن تخلع أى فرد من أفرادها ولو

۱- ۱ أحمد إبراهيم الشريف/ المصدر نفسه/ص ۳۷- ۳۹.

۲- ۲ فى لسان العرب: الحليف هو من انضم الى شخص فعزّ بعزه وامتنع بمنعته.

۳- ۳ أحمد إبراهيم الشريف: المصدر نفسه:ص ۴۳- ۴۴.

ص: ۲۷۵

کانوا من الصرحاء، ویسمی هؤلاء بالخلعاء (مفردها خلیع ویطلق علیه ایضا اسم لعین).

والخَلْع فی المجتمع القبلی شبیه باسقاط الجنسیة عن المواطن فی عصرنا الحاضر، ویجری الخلع لأسباب:

۱- إذا قتل فرد ما شخصاً آخر من قبیلة، ورفض ذوو المقتول قبول الدیة، عندئذ تصبح القبیلة، بشخص زعیمها مضطرة لقتل القاتل، أو خلعه حفاظاً علی وحدة القبیلة.

۲- لما کانت القبیلة مسؤولة عن أعمال أفرادها، تضطر أحیانا الی خلع من یسیء منهم الیها، بکثرة اعتدائه وجرائره ضد القبائل الأخری، التی تَحملُها أفعاله علی شن الغارات الثأریة ضدها مفضلة أن تضحی بفرد بدلًا من جماعات منها.

۳- وتخلع القبیلة کلّ من یلحق بها العار بأعماله اللاأخلاقیة والمشینة، التی تعتبرها لوثة فی جبینها.

یذاع الخلع بطرق عدیدة فی المواسم والأسواق بالمناداة أو الکتابة. وکان الرجل یأتی بابنه الی المواسم ویقول: «ألا إنی قد خلعت ابنی هذا فإن جُرَّ (أی أخذ بجریرة) لم أضمن، وإن جُرَّ علیه (أی قتل) لم أطلب» (۱) فلا یؤخذ الأب بجرائر ابنه الخلیع. ومن وقتها تصبح قبیلته فی حلّ من أعماله، وتسقط حقوقه علیها، ویحرم علیه البقاء فیها، فیذهب ملتجئاً الی غیرها.

وأما إذا کانت شروره ومآثمه کثیرة فنادراً ما یلقی مجیراً ویصبح الأمر خطیراً بالنسبة إلیه، إذ یجد نفسه فی موقف حرج ووضع شاذ (۲).

وقد یتکتل الخلعاء، ویطلق علیهم أیضا اسم (ذُؤبان العرب) بضروب من الشجاعة والإقدام وعدم المبالاة بالحیاة، بحیث کان بعض الرؤساء والزعماء یستخدمونهم للفتک بخصومهم، وقد انضم قسم منهم الی امریء القیس الشاعر الکندی عندما نهض مع قبیلة بکر للأخذ بثأر أبیه من قبیلة أسد.

۱- ۱ الآلوسی: ۳/ ۲۷.

۲- ۲ أحمد إبراهیم الشریف: المصدر نفسه:ص ۳۱- ۳۶.

ص: ۲۷۶

کما کانوا متحللین من العصبیـة القبلیة، لا یفرّقون بین قبیلتهم وغیرها، من حیث الإغارة علیه والسـطو علی أموالها، وإن کانوا فی أغلب الأحیـان یؤثرون التمرکز فی المناطق المجاورة للأسواق التجاریـة أو طرق القوافل التجاریـة، بحیث یغیرون علیها، ویُعملون یـد السـلب والنهب فیها (۱).

وقد اشـتهر منهم عدد من الشـعراء الذین اطلق علیهم اسم (الشـعراء الصعالیک)، والذین مارسوا هذه الأعمال، مثل (الشنفری) و (عروة بن الورد)، الذی اشتهر بعلوّ الأخلاق والجود والکرم، ینفق مایسلبه علی الفقراء والمعوزین.

ومنهم (تأبط شرا) و (السلیک بن السلکة) و (جعفر بن علیة).

والشـعراء الصـعالیک کانوا علی العموم کرماء یتصـفون بالشـهامة والمروءة والأنفـة. وفی شـعر (للشـنفری) ما یبسط لنا بعض الصـفات الخلقیة لهؤلاء الشعراء، حیث یخاطب بنی قومه الذین آذوه، بأبیات من قصیدته المعروفة باسم (لامیة العرب) (۲).

الأسرة:

إن الوحـدة الاجتماعیـة فی البادیة والحضـر معاً هی القبیلة، ورکن القبیلة هی الأسـرة، والرجل هو عماد الأسـرة وربّها وصاحب نسـبها، والعلاقة الاجتماعیة بین أفراد الأسرة کانت قائمة علی أساس التضامن الوثیق بین أفرادها کتضامن أسر القبیلة ضد القبائل الأخری.

فالعلاقـات فی المجتمع العربی تقوم علی أساس التضامن المتسـلسل الصاعـد، اعتبارا من أفراد الأسـرة ثم الأفخاذ فالبطون فالعشائر، ثم الأحلاف، وللنسب دخل کبیر فی هذا التضامن، وهو الذی نسمیه بالعصبیة القبلیة.

الزواج:

کانت الأسـرة تقوم علی أساس الزواج بعقـد وبمهر معین، یدفعه الزوج بعد رضا أولیاء الفتاة ورضاها فی بعض الأحیان، وهو مایسـمی بزواج المهر، أو زواج

۱- ۱ جواد علی: المصدر السابق: ۱/ ۳۶۹.

۲- ۲ أقیموا بنی قومیصـدور مطیّکم فـإنی الی قوم سواکم لأمیـلُ فقـد خمّت الحاجات واللیل مقمر وشُـدّت لطیّات مطایا وأرحُلُ وفی الأرض منأی للکریم عن الأذی وفیها لمن خاف القلی متعزّلُ لعمرک مافی الأرض ضیق علی امرئ سری راغباً أو راهباً وهو یعقلُ

ص: ۲۷۷

البعولـهٔ، وقـد يغالى بعض الآباء فى قيمـهٔ المهر مغالاهٔ شديدهٔ، على أنه ذكرت الى جانب هذا أنواع أخرى من الزواج منها زواج السبى من نساء العـدو الأسـيرات، ولا يشترط فيه رضا الفتاهٔ أو المهر، ثم زواج الإماء، ويكون بشـراء أمـهٔ تكون هى وأولادها منه ملك يمينه إلّاإذا أعتقهم. وهذه الانواع من الزواج كان يقرّها المجتمع الجاهلى، وقد أقرّها المجتمع الإسلامى بعد ذلك مع شىء من التعديل، من حيث تحديد تعدّد الزوجات، والتشجيع على عتق الإماء.

ومن أنواع الزواج التى عرفت فى الجاهلية (زواج الشغار)، وذلك بأن يتفق رجلان على أن يتزوج كلّ منهما قريبهٔ الآخر، ممن له عليها حقّ الولايهٔ كالأخت أو الابنهٔ، وبدون مهر (۱) وفى ذلك ما فيه من عدم احترام المرأهٔ وحقوقها، ولم يكن شائعاً شـيوعاً كبيراً. وقريب منه (نكاح البدل) كأن ينزل رجلان كلّ منهما للآخر عن زوجته، وهو لا يقتضى المهر.

وقد عرف فى الجاهلية نكاح (الخدن) (المخادنهٔ) كأن يتخذ رجلصديقهٔ له (خليلهٔ).

ومن انواع الزواج التى اسـتهجنها المجتمع الجـاهلى أيضـاً، (زواج المقت)، ويكون بـأن يرث الابـن الأـكبر زوجـهٔ أبيه، إذا لم يكن لها أولاد منه، كما يرث المتاع، إلّا إذا افتدت نفسـها من الورثهٔ برضا منهم، وإذا أراد زوّجها من أحد إخوته بمهر جديد، وما ذلك إلّالأن الزواج كان يعنى أن تقطع المرأهٔصـلتها بأبيها واخوتها، فإذا لم تكن ذات ولـد ساءت حالتها ولم تجـد من يعيلها (۲) والمعتقد أن هذا النوع من الزواج كان نادر الوقوع، ومقصوراً على فئات خاصهٔ ضئيلهٔ من السكان.

وقد سـمى باسم «زواج المقت» لأنه كان ممقوتاً، والولد الذى يكون ثمرته يسـمى (مقيت). أما الرجل الذى يخلف أباه على امرأته إذا طلقها أومات عنها أو يزاحم أباه على امرأته فكانوا يطلقون عليه اسم (الضيزن) أى الشريك أو المزاحم

۱- ۱ الآلوسى: مصدر سابق: ۲/ ۳- ۵.

۲- ۲ د. أحمد شلبى: التاريخ الاسلامى والحضارهٔ الإسلاميهٔ: ۱/ ۷۹. د. جواد على: مصدر سابق: ۵/ ۲۷۴.

ص: ۲۷۸

عند الاستسقاء. وقد حرّم المجتمع الجاهلی زواج الاب بابنته، والزواج بالأمهات والأخوات والعمات والخالات وبنات الاخت وزوجات الأبناء. لکن زواج الرجل باختین تکونان معاً فی عصمته کان مباحاً.

ویضاف الی العادات التی کانت معروفة عند العرب فی الجاهلیة أن أحدهم إذا تقابل مع آخر من غیر قبیلته ومعه ظعینة قاتَلهُ علیها، وإن تمکّن أخذها منه، واستحلّها لنفسه.

کما أن الجاهلیین قد اعتبروا الاتصال الجنسی بین الرجل والمرأة بدون عقد ضرباً من الزنی، فیقولون للمرأة عندئذ إنها بغی وزانیة وفاجرة وعاهرة ومسافحة (۱).

ولم یکن عدد الزوجات محدّداً، بل کان للجاهلی أن یعدد من الزوجات ما یشاء، مدفوعاً الی ذلک بعوامل شتی، قد تکون شخصیة بحتة أو إنسانیة، کأن یدخل فی عصمته نساء لا معیل لهنّ، أو سیاسیة بأن یُصهر الی عدد کبیر من القبائل، تناصره عند الحاجة.

الطلاق:

کان الطلاق من حقّ الرجل یستعمله متی شاء، لأیسبب أو حتی بدون سبب. وکان العرف یقضی بأن الرجل إذا طلّق زوجته واحدة کان أحق الناس بها.

أما إذا استوفی الثلاث انقطع السبیل عنها، فالطلاق ثلاثاً معناه الفرقة التامة بین الزوجین (۲) علی ان هناک من النسوة من کنّ یشترطن عند الزواج أن یکون لهنّ الحق فی الطلاق إذا أردن.

وکانت المرأة إذا أرادت أن تطلّق زوجها غیّرت باب قبائها، فإن کان قِبَل المشرق جعلته قِبَل المغرب، فإذا رأی الزوج ذلک عرف أنها قد طلقته فلم یأتها، لکنّ ذلک لم یکن لیحصنهنّ من تطلیق أزواجهنّ لهنّ إذا أرادوا.

وإذا طُلقت الزوجة أو مات عنها زوجها أُلزمت بقضاء العدة حتی یتبیّن ما

۱- ۱ جواد علی: ۵/ ۲۵۴- ۲۵۸.

۲- ۲ الآلوسی: ۲/ ۴۹.

ص: ۲۷۹

إذا کانت حاملًا أم غیر حامل، خوفاً من أن تختلط الأنساب فیما لو تزوجت قبل انقضاء العدة (۱).

العلاقات ضمن الأسرة:

لقـد اختلف الباحثون المحـدثون حول وضع المرأة الاجتماعی فی العهـد الجاهلی، وقد اسـتنتج بعضـهم (۲) من الآیات القرآنیـة التی تدعو الی إحقاق حقوق المرأة، وعدم إمساکها ضـراراً إذا طُلّقت- کقوله تعالی: وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهنّ (۳) ویا أیها الذین آمنوا لا یحلّ لکم أن ترثوا النساء کرهاً ولا تعضلوهنّ لتذهبوا ببعض ما آتیتموهنّ... (۴)

- أنها کانت مضـطهدة، یُبْغی علیها ویستهان شأنها، بینما استنتج آخرون من اخبار الجاهلیة التی وصلت إلینا فی کتب التاریخ والآداب القدیمة، أنها کانت تتمتع بمکانة مرموقة فی المجتمع الجاهلی.

لکن الواقع أن موضوع مکانـة المرأة فی العصـر الجاهلی، یحتاج الی دراسة عمیقة وشاملة، ولا یمکن للباحث أن یعطی أحکاماً مطلقة موجزة عنه فی ثنایـا البحوث العامـة. ومن الأخبـار المتنـاثرة فی بعض کتـب الأـدب نلمس أن علاقـة الرجل بالمرأة فی العهـد الجاهلی کانت قائمة علی الاحترام المتبادل فی کثیر من الأحیان، إذ کانت تستشار فی بعض الأمور وتشارک الرجل أکثر أعماله، وتتمتع بقسط من الحریة. وبعض الآباء یستشیرون بناتهم فی أمر زواجهنّ واختیار بعولتهنّ (۵).

لا نکران بأن الرجل فی الأسـرة الجاهلیة کان له المرکز الممتاز، فهو قوام الأسرة وربّها والمسؤول عن حیاتها ورزقها ومختلف شؤونها، والمحـارب المـدافع عنها، والمطالب بالثأر والغرامات، وصاحب الکلمـة النافـذة، والمرأة کانت تابعـة له، ومنسوبـة إلیه، وتحت حمایته ومسؤولیته، غیر أنها کانت تشاطر الرجل کثیراً من مسؤولیاته. وإذا کانت لا تغنی غناء الرجل فی الحروب، والحروب هی أساس الحیاة فی المجتمع الجاهلی، ولذلک تدنّت منزلتها عن منزلته، إلّاأنها کانت خیر

۱- ۱ جواد علی: ۳/ ۲۷۳.

۲- ۲ محمد عزة دروزة: عصر النبی وبیئته قبل البعثة: ۱۳۱- ۱۳۵.

۳- ۳ البقرة: ۲۳۲.

۴- ۴ النساء: ۱۹.

۵- ۵ د. أحمد شلبی: مصدر سابق:ص ۷۷. والشیخ محمد الخضری: محاضرات تاریخ الأمم الإسلامیة: ۱/ ۱۷- ۲۰.

ص: ۲۸۰

رفیق له وخیر عون، وکانت تجید من الفنون ما یجعلها فی مستوی یلائمه، بالاضافة الی قیامها بواجباتها کأمّ ومربیة للأطفال، وکانوا یسمونها ربة المنزل تکریماً لها (۱).

وفی الروایات القدیمة أن المرأة مارست الکهانة والعرافة کالرجل، وکان الرجال یلجأون الی رأیها فی معضلات الامور.

والمرأة الجاهلیة فوق ذلک کانت تشعر بسخصیتها وبمکانتها فی المجتمع، وتحرص علی مکانتها من أن تُهان.

ومما تجدر الإشارة إلیه أن العرب لم یکونوا یزوّجون بناتهم من غیر العرب، وأن الفتیات البدویات لم یکنّ یُحبِبن الزواج فی الحضر، وأن المرأة المرغوب فیها هی الولود التی تنجب کثیراً من البنین؛ لأنهم عماد الأسرة العربیة، التی اعتادت أن تعیش فی حراسة السواعد المفتولة والرماح السمهریة.

کان العربی یغار علی نسائه، ویحرص علیهن، ویعتبر العرض أغلی من النفس والمال والولد (۲).

ولذلک کان الرجال یصطحبون نساءهم فی الغزوات والحروب، ویجعلونهن فی مؤخرة الجیش، خوفا من مباغتة العدو لهنّ فی مضارب القبیلة والرجال غائبون، وکی یدرک المحارب، بأن هزیمته ستجعل عرضه مباحاً لأعدائه فیستمیت فی القتال؛ لیُجنّب نساءه السبی. وفضلًا عن ذلک فإن النساء فی المؤخرة کنّ یعنین بالمرضی ویضّمدن جراح المصابین، کما یشجعن المحاربین، ویأخذن بتلابیب الفارّین من ساحة القتال.

معاملة الأولاد:

إن أولویة الرجل فی الأسرة الجاهلیة، قد جعلت للأب سلطة علی أفراد عائلته، وقد تصل الی حدّ تجعل للآباء علی أولادهم حقّ التصرف بمصائرهم، ففی بعض الأحیان، کانوا یجعلون أولادهم رهائن فی أیدی خصومهم، فیؤدی ذلک

۱- ۱ یقول أحدهم: یا ربة البیت قومی غیرصاغرة ضمّی إلیک رحال القوم والقربا

۲- ۲ المعتقد أن الجاهلیین یعاقبون الزانیة بالرجم فجاء الإسلام وأقرّ ذلک.

ص: ۲۸۱

أحیانا الی قتل هؤلاء لهم، وإذا استثنینا هذه الحالة الشاذة، ومثلها ما کان من وأد البنات، فإن العربی کان یعامل أبناءه معاملة تنطوی علی اللطف والحنان والمحبة (۱) مع حرصه علی تربیتهم تربیة خشنة، تؤدی بهم الی استکمال أسباب القوة، لیکونوا درعاً حصیناً له ولقبیلته. وکان الآباء یتخیّرون لأبنائهم الأسماء التی تدل علی الخشونة، أو توحی بالتفاؤل بالظفر علی الأعداء مثل: کلب، أسد، فهر،صخر، غلاب، ضرار، حنظلة، حرب، بینما کانوا یتخیّرون لأرقائهم أسماء جمیلة مثل: سهیل، میسور، وهانیء، نجاح، فلاح ونحو ذلک.

کان الجاهلیون یُفضلون من الموالید البنین علی البنات، وقد دعاهم الی ذلک عوامل عدیدة، فالأولاد یصبحون فی المستقبل محاربین، تعتمد علیهم القبیلة فی الدفاع عن حوزتها، وفی الکسب، بینما تکون البنت عبئاً ثقیلًا تحتاج الی حمایة، أو قد تجلب العار الی قبیلتها، فیما إذا تعرّضت للسبی. تقول الآیة الکریمة: وإذا بُشّر أحدهم بالأنثی ظلّ وجهه مسوداً وهو کظیم* یتواری من القوم من سوء ما بُشر به أیمسکه علی هون أم یدسّه فی التراب ألا ساء ما یحکمون (۲)

.

وکذلک جاء فی قوله تعالی: وإذا بُشّر أحدُهم بما ضرب للرحمن مثلًا ظلّ وجهه مسوداً وهو کظیم أوَ مَن یُنَشَّؤا فی الحِلیة وهو فی الخصام غیرُ مبین.. (۳) وإذا الموؤدة سئلت* بأی ذنب قُتلت (۴)

.

یتضح لنا من هذه الآیات أن العرب کانوا یفضلون البنین علی البنات، وأنهم کانوا یئدون البنات، وقد لمس الباحثون أسباباً أخری للوأد منها الإملاق کما فی الآیة: ولا تقتلوا أولادکم من إملاق نحن نرزقکم وإیاهم (۵)

، وعدم القدرة علی إعالة الأولاد، أو الحرص علیصیانة العرض، وخشیة أن یلحق القبیلة عار من السبی.

وعلی کلّ حال لم یکن الوأد شاملًا، بل اقتصر علی بعض الأوساط المتردیة مادیاً واجتماعیاً، ولا سیما فی سنی القحط والمجاعة، وفی البوادی القاحلة، ویروی

۱- ۱ کقول احد شعراء الجاهلیة: وانما أولادنا بیننا أکبادنا تمشی علی الارضِ

۲- ۲ النحل: ۵۸- ۵۹.

۳- ۳ الزخرف: ۱۷- ۱۸.

۴- ۴ التکویر: ۸- ۹.

۵- ۵ الأنعام: ۱۵۱.

ص: ۲۸۲

أنه قـد اقتصـر علی بعض الحالات فی بعض بطون قبیلتی تمیم وأسد (۱)، کحالـهٔ ولادهٔ مولود مشوّه، أو إذا کان الوالـد فقیراً، أو کثیر العیال، أو کان مع فقره مئناثاً، وفوق ذلک لا یستطیع الدفاع عن حریمه لضعفه.

ومع ذلک کان هناک ما یحدّ من هذه العادهٔ السیئهٔ، کإقدام ذوی الشهامهٔ والمروءهٔ علی تبنی أولاد لیسوا منصلبهم، یجعلون لهم مثلما لأولادهم من حقوق، وانقاذ المجتمع من عادهٔ الوأد. فالشاعر الفرزدق کان یفتخر بأن جدّه (غالب بنصعصعهٔ)، کان یُعرف فی الجاهلیهٔ أنه محیی الموؤدات.

الإرث:

کـان الإرث من حقّ الرجل فقط، وقـد حُرمت منه المرأهٔ والأولاد الصـغار والجواری والبنات. ویظهر أن هـذا الحق قـد خُصّ به الـذین یرکبون الخیل ویحملون السلاح، وقاعدتهم فی ذلک «لا یرث الرجلَ من ولده إلّامن أطاق القتال» (۲).

وللرجـال أن یرثوا من النسـاء، وأن یرثوهن أنفسـهن، کما یرثون المتاع (یرث الابن الأکبر زوجات أبیه). ومَن مات عن بنات ولم یکن له أبنـاء ذکور یرثه إخوته، وتحرم بنـاته من میراثه. ولکن یظهر أن حرمـان المرأهٔ من المیراث، لم یکن عامـاً فی جمیع القبائـل، بل إن بعضها کانت تعطی النساء الحق فی الإرث (۳).

الهوامش:

۱- ۱ محمد الخضری: مصدر سابق:ص ۲۱.

۲- ۲ د. جواد علی: مصدر سابق: ۲۷۴.

۳- ۳ د. جواد علی: مصدر سابق: ۶: ۳۲۸- ۳۲۹.

ص: ۲۸۳

ص: ۲۸۴

معجم ما کتب فی الحجّ والزیارهٔ و المعالم المشرفه فی الحجاز (۷)

ص: ۲۸۵

معجم ما كتب فی الحجّ والزيارة و المعالم المشرفه فی الحجاز (۷)

عبدالجبار الرفاعی

۱۱۶۳- الرحلة المكّية

عليخان الصغير بن مطلب بن عليخان الكبير بن خلف بن عبد المطلب المشعشعی العويزی الموسوی

ظ: الذريعة ۱۰/ ۱۷۰- ۱۷۱

۱۱۶۴- (ارجوزة طويلة فيها بيان لرحلة المؤلف من هجر إلی مكّة وغيرها)

ناصر بن هاشم بن أحمد بن الحسين الموسوی الأحسائی (۱۲۹۱- ۱۳۵۸ ه)

ظ: الذريعة ۱۰/ ۱۷۱.

۱۱۶۵- الرحلة المكّية المدنية

معتوق مكی البعاج

النجف: مط الآداب، د. ت، ۳۵ص.

۱۱۶۶- الرحلة المكّية والنخلة المسكية

(ارجوزة فی ألف بيت أنشأها الناظم فی سفره إلی الحج ۱۲۹۲ ه، وذكر فيها ما جری عليه من خروجه من بغداد الی عودته إليها، وكتب عليها مجموعة من العلماء والشعراء عدّة تقريضات)

ص: ٢٨٦

محمد حسن بن محمدصالح كبة البغدادى ت ١٣٣۶ ه.

ظ: الذريعة ١٠/ ١٧٠.

١١۶٧- الرحلة النجدية

عاتق بن غيث البلادى

جدة: دار المجمع العلمى، ط ١، ١۵٧ص، ٢۴ سم.

١١۶٨- الرحلة الوهبية الى الاقطار الحجازية

(تحقيق مختصر حول سفر لفريضة الحج)

أحمد على شاذلى

٨۶ص.

١١۶٩- رحلة الوزير الشرقى الاسحاقى المغربى الى الحج

الوزير الاسحاقى الشرقى ت بعد ١١۴٣ ه.

العرب. س ١٩: ع ١١- ١٢ (۵، ۶/ ١۴٠۵ ه/ ٢، ٣/ ١٩٨۵ م)ص ٧٣۶- ٧۵٧.

س ٢٠: ع ١- ٢ (٧، ٨/ ١۴٠۵ ه/ ۴، ۵/ ١٩٨۵)ص ١٠٨- ١١٩.

ع ٣- ۴ (٩، ١٠/ ١۴٠۵ ه/ ۶، ٧/ ١٩٨۵ م)ص ٢۶۴- ٢٧٢.

ع ۵- ۶ (١١، ١٢/ ١۴٠۵ ه/ ٨، ٩/ ١٩٨۵ م)ص ٣٨٧- ۴٠٢.

ع ٧- ٨ (١، ٢/ ١۴٠۶ ه/ ٩، ١٠/ ١٩٨۵ م)ص ۵٢٨- ۵٣٨.

ع ٩- ١٠ (٣، ۴/ ١۴٠۶ ه/ ١١، ١٢/ ١٩٨۵ م)ص ۶۴٧- ۶۴٩ (حمد الجاسر).

١١٧٠- رد شبهات المستشرقين عن الحج

نذير حمدان

التضامن الإسلامى (مكة المكرمة) س ٣٣: ع ٩ (۴/ ١٣٩٩ ه- ٣/ ١٩٧٩ م)ص ۴١- ۵١.

١١٧١- الرد على الاخنائى واستحباب زيارة خير البرية الزيارة الشرعية

أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام

ابن تيمية (۶۶١- ٧٢٨ ه)

القاهرة: المكتبة السلفية ومطبعتها، ١٣۴۶ ه، ۴٠٠ص.

القاهرة: ط ٢، ١٩۵٠ م، ٢٣٢ص (تحقيقات: عبدالرحمن بن يحيى المعلمى اليمانى، عنى بنشره:

عبدالملك بن إبراهيم ومحمد بن

ص: ۲۸۷

حسين نصيف).

القاهرة: المكتبة السلفية ومطبعتها، ۱۹۷۶ م.

۱۱۷۲- الرّد على الوهّابية

(فى تحريم بناء القبور)

عبدالكريم الزّين، ت ۱۳۶۰ ه.

ظ: تراثنا: ع ۱۷ (۱۴۰۹ ه)ص ۱۶۳، معجم ما كتب عن الرسول وأهل البيت عليهم السلام ۹/ ۴۹۳.

۱۱۷۳- ردّ الفتوى بهدم قبور الأئمة فى البقيع

محمد جواد البلاغى، ت ۱۳۵۲ ه.

مطبوع

ظ: معجم المؤلفين العراقيين ۳/ ۱۲۴، معجم ما كتب عن الرسول وأهل البيت عليهم السلام ۹/ ۴۹۳.

۱۱۷۴- رسائل فى تاريخ المدينة

جمعها ونشرها: حمد الجاسر.

وهى تتضمن:

۱- وصف المدينة المنورة فى مطلع القرن الرابع عشر، لعلى بن موسى.

۲- التحفة اللطيفة فى عمارة المسجد وسور المدينة الشريفة، لمحمد بن خضر الرومى.

۳- الوفا بما يجب لحضرة المصطفى، للسمهودى، على بن عبدالله.

۴- حوادث تتعلق بالحجرة النبوية.

۵- بناء سور المدينة.

۶- وضع الأهله فوق القبة ومنائر الحرم النبوى

طبعت فى:

الرياض دار اليمامة ۱۹۷۲ م، ۲۴۵ص، ۲۴ سم (نصوص وأبحاث جغرافية وتاريخية عن جزيرة العرب ۱۶).

۱۱۷۵- رساله اركان حج وعمره

(بالفارسية)

محمود حسينى

سنندج: المؤلف، ۱۳۶۵ ش، ۱۵ص.

۱۱۷۶- رسالة اعلام العامة فيصحة الحج مع العامة

عبدالنبى العراقى

مطبوع سنة ۱۳۴۶ ه.

۱۱۷۷- رسالة أقانيم العلى فى أحوال أمّ القرى

(فى تاريخ مكة بالفارسية)

أحمد بن الحسين اليزدى المشهدى ت ۱۳۱۰ ه.

ص: ۲۸۸

ظ: الذریعة ۱۱/ ۱۰۱.

۱۱۷۸- رسالة الی قبر النبیّصلی الله علیه و آله

عبداللَّه بن السید البطلیوسی ت ۵۲۱ ه.

ظ: فهرست ابن خیر الاشبیلی ۴۲۰، معجم ما کتب عن الرسول وأهل البیت ۲/ ۴۴.

۱۱۷۹- رساله‌ای در آداب حج

(بالفارسیة)

سلطان العلماء علاء الدین حسین ابن رفیع الدین محمد بن أمیر شجاع الدین محمود الحسینی ت ۱۰۶۴ ه.

۱۱۸۰- رساله‌ای در مناسک حج

(بالفارسیة)

محمد إبراهیم بن محمد حسن خراسانی کرباسی ت ۱۳۶۳ ه.

۱۱۸۱- رساله‌ای در مناسک حج

(بالفارسیة)

محمد بن أبی القاسم حبیب اللَّه واعظ اصفهانی

خ: ملی بتبریز، برقم ۷۲۲.

ظ: فهرس المکتبة ۳/ ۳۲۳۰.

۱۱۸۲- رساله‌ای در کفارات احرام حج

(بالفارسیة)

محمد باقر بن محمد تقی المجلسی

خ: المرعشی بقم، ضمن مجموعة برقم ۴۲۹، ۲۲ ورقة.

۱۱۸۳- رسالة بشأن هل یجوز التوسل بجاه النبیصلی الله علیه و آله؟

سلیمان بن عبداللَّه بن محمد بن عبدالوهاب النجدی ت ۱۲۳۳ ه.

خ: جامعة الملک سعود ۳۴۲۲/ ۱۵ م،صفحة ۵۰- ۵۵، سنة ۱۳۴۵ ه.

ظ: الاعلام ۳/ ۱۹۱، مشاهیر علماء نجد ۲۹، معجم المؤلفین ۴/ ۲۶۸، فهرس مخطوطات جامعة الملک سعود (اصول الدین والفرق الإسلامیة) ۵/ ۷۵- ۷۶، معجم ما کتب عن الرسول وأهل البیت ۲/ ۴۴.

۱۱۸۴- رسالة تفسیر آیة: إنّ أوّل بیت وضع للناس للّذی ببکّة مبارکاً

زین العابدین خان کرمانی ت ۱۳۶۰ ه.

کتبها سنة ۱۳۴۶ ه.

۱۱۸۵- رسالة تفسیر آیة: إنّ أوّل

ص: ٢٨٩

بيت وضع للناس للذى ببكّة مباركاً

كاظم الرشتى

١١٨۶- الرسالة الثانية فى حكم التوسل بالأنبياء والأولياء عليهم السلام

محمد حسنين مخلوف العدوى المالكى ت ١٣۵٢ ه.

القاهرة: مطبعة المعاهد، ١٣۴٨ ه، ٧٢ص.

١١٨٧- رسالة الحج

(بالفارسية)

مجهولة المؤلف

خ: آستان قدس رضوى، برقم ٨٢١۵، تاريخها ١٢١٣ ه.

١١٨٨- رسالة الحج

حسين الخوانسارى

خ: مدرسة آخوند بهمدان، برقم ١١٣١.

١١٨٩- رسالة حجية

(فى فقه الحج، بالفارسية)

المحقق الأردبيلى وأبو الحسن المطلبى

ميقات حج: ع ١۵ (بهار ١٣٧۵ ش)ص ٢۴- ۴۴.

١١٩٠- رسالة در احوال مكه معظمه ومدينه مشرفه

(بالفارسية)

آقا محمد على كرمانشاهى

ظ: مرآة الاحوال ١/ ١٣۵، ١۴٩.

١١٩١- رساله در افعال حج وعمره

(بالفارسية)

حبيب اللّٰه شريف كاشانى ت ١٣۴٠ ه.

١١٩٢- رساله در حج

(بالفارسية)

محمد جعفر الاسترآبادى

خ: سيه سالار.

ظ: فهرست المكتبة، ۴/ ٨۶ م ٢.

١١٩٣- رسالة دفع الشدة بجواز تأخير الأناقى الحرام الى جدة

جعفر بن أبى بكر اللبنى الحنفى المكى

بغداد: مط الأمة، ١٩٧١ م، ۶ص.

١١٩۴- رسالة ذرع الكعبة المعظمة ومساحة المسجد الحرام

ديار بكرى ت ٩۶۶ ه.

خ: برلين.

مكتبة الاسكندرية.

دار الكتب العربية بالقاهرة.

ص: ۲۹۰

مکتبة الحرم المکی.

المحمودیة بالمدینة المنورة.

ظ: المنهل (جدة) س ۵۶: ع ۴۷۵ (۳- ۴/ ۱۴۱۰ ه/ ۱۰- ۱۱/ ۱۹۸۹ م)ص ۲۰۵.

۱۱۹۵- رسالة رئیس منظمة الحج والزیارة الی وزیر حج المملکة العربیة السعودیة

میقات الحج: ع ۸ (۱۴۱۸ ه)ص ۱۴۱- ۱۵۶.

۱۱۹۶- رساله شریفه توضیح المناسک یا دستور حج

(بالفارسیة)

محمد حسینی الشاهرودی

قم: بهار، ط ۱، ۱۳۷۲ ش، ۱۰۳ص، ۱۷ سم.

۱۱۹۷- رسالة فی آداب الحج وکیفیة وضع المسجد الحرام

محمد یوسف بن پهلوانصفر القزوینی

۱۱۹۸- رسالة فی إجزاء حج مَن أدرک المشعرین بحکم العامة

عبدالنبی الوفی العراقی

۱۱۹۹- رسالة فی إجزاء المشعر الحرام اضطراراً فی تمامیة الحج

عبدالنبی الوفی العراقی

۱۲۰۰- رسالة فی أدعیة الطواف والسعی وطواف الوداع ودعاء عرفة وبهامشها مسائل الحج التی لابدّ منها إذا أراد ان یحرم

خ: الخدیویة بمصر.

۱۲۰۱- رسالة فی اشتراط الرجوع الی الکفار فی الحج

میرزا أبو المعالی

۱۲۰۲- رسالة فی أقل المدة بین العمرتین

محمد إسماعیل المازندرانی الخاجوئی ت ۱۱۷۳ ه.

تحقیق: مهدی الرجائی

قم: دار الکتاب الإسلامی، ط ۱، ۱۴۱۱ ه (الرسائل الفقهیة ۱: ۱۲۲- ۱۵۳).

۱۲۰۳- رسالة فی بیان العمارة الواقعة بعد سقوط الکعبة

علی عبدالقادر الطبری

ظ: المنهل (جدة) س ۵۶: ع ۴۷۵ (۳- ۴/ ۱۴۱۰ ه/ ۱۰- ۱۱/ ۱۹۸۹ م)ص ۲۰۵.

ص: ۲۹۱

۱۲۰۴- رسالة فی ترغیب سکنی المدینة

أحمد زرّوق

خ: عارف حکمت برقم ۵۶۷/ ۸۰ مجامیع

ظ: العرب. س ۲۱: ج ۵، ۶ (۱۱، ۱۲/ ۱۴۱۶ ه)ص ۳۴۹.

۱۲۰۵- رسالة فی جواب الشیخ محمد عبدالقادر الهلالی الوهابی فی اعتراضه علی الشیعة فی البناء علی القبور وتجدیدها والإسراج علیها وتجصیصها وزیارتها، وغیر ذلک.

محمد حسین بن کاظم الکشوان الکاظمی النجفی، ت ۱۳۵۶ ه.

ظ: الذریعة ۱۱/ ۱۶۵، معجم ما کتب عن الرسول وأهل البیت علیهم السلام ۹/ ۴۹۹.

۱۲۰۶- رسالة فی جواز التوسّل

(فی الرد علی محمد بن عبدالوهاب)

مفتی فاس مهدی الوازنانی

ظ: التوسّل بالنبی لابن مرزوق ۲۵۲، تراثنا: ع ۱۷ (۱۴۰۹ ه)ص ۱۶۴، معجم ما کتب عن الرسول وأهل البیت علیهم السلام ۹/ ۴۹۹.

۱۲۰۷- رسالة فی الحج

صدرالدین الصدر

۱۲۰۸- رسالة فی الحج

علی بن الحسین الکرکی ت ۹۴۰ ه.

تحقیق: محمد الحسون.

اشراف: محمود المرعشی.

قم: مکتبة السید المرعشی، ط ۱، ۱۴۰۹ ه (رسائل المحقق الکرکی ۲:

۱۴۷- ۱۶۵).

۱۲۰۹- رسالة فی الحج

محمد علی جعفر الکبیرت ۱۲۶۸ ه.

۱۲۱۰- رسالة فی حکم الاستیجار للحج من غیر بلد المیت

محمد إسماعیل المازندرانی الخاجوئی ت ۱۱۷۳ ه.

تحقیق: مهدی الرجائی

قم: دار الکتاب الإسلامی، ط ۱، ۱۴۱۱ ه (الرسائل الفقهیة ۱: ۲۲۷- ۲۳۲).

۱۲۱۱- رسالة فی حکم التوسل بالأنبیاء والأولیاء

محمد حنین مخلوق

مطبوعة

ص: ۲۹۲

ظ: تراثنا: ع ۱۷ (۱۴۰۹ ه)ص ۱۶۵.

۱۲۱۲- رسالة فى ذكر ما جاء فى زيارة الرسولصلى الله عليه و آله

خ: فى الجامع الكبير بصنعاء ضمن مجموع.

ظ: المورد مج ۳: ع ۲ (۱۹۷۴ م)ص ۲۸۸.

۱۲۱۳- رسالة فى زيارة أهل القبور

(بالفارسية)

محمد باقر بن محمد تقى المجلسى

ظ: الذريعة ۱۲/ ۷۸، معجم ما كتب عن الرسول وأهل البيت عليهم السلام ۹/ ۵۰۰.

۱۲۱۴- رسالة فى زيارة أولاد الأئمة والسادات والعلماء

محمد باقر بن إسماعيل الكجورى (۱۲۵۵- ۱۳۱۳ ه)

مطبوعة

ظ: الذريعة ۱۲/ ۷۸، معجم ما كتب عن الرسول وأهل البيت عليهم السلام ۹/ ۵۰۰.

۱۲۱۵- رسالة فى زيارة قبر النبيصلى الله عليه و آله

الكمال بن الهمام محمد بن عبدالواحد ت ۸۶۱ ه.

خ: أوقاف بغداد برقم ۱۴/ ۱۰۰۱۰ مجاميع

ظ: معجم ما ألّف عن رسول اللَّهصلى الله عليه و آله ۳۵۵، معجم ما كتب عن الرسول وأهل البيت ۲/ ۶۰.

۱۲۱۶- رسالة فى زيارة قبر النبيصلى الله عليه و آله وحكمها

محمد بن عبدالوهاب النجدى ت ۱۲۰۶ ه.

خ: فى أوقاف بغداد برقم ۵/ ۷۰۰۲ مجاميع

ط: معجم ما ألّف عن رسول اللَّهصلى الله عليه و آله ۳۵۵، معجم ما كتب عن الرسول وأهل البيت ۲/ ۶۰.

۱۲۱۷- رسالة فى سياق العمل بالتمتّع بالعمرة الى الحج

جمال الدين عبداللَّه بن على بن زهرة الحلبى

۱۲۱۸- رسالة فيصفة حج النبى

محمود شويل بن على

القاهرة: مكتبة المنار، ۱۹۳۱ م (مع:

ثلاث رسائل للمؤلف).

۱۲۱۹- رسالة فى العمرة المفردة

ص: ۲۹۳

لمستأجر الحج

محمد إسماعیل

۱۲۲۰- رسالهٔ فی فضل المدینهٔ وأهلها

عبدالکریم بن عبداللّه العباسی الخلیفتی المدنی ت ۱۱۳۳ ه.

خ: رضا برامبور فی الهند: الجامعهٔ الإسلامیهٔ بالمدینهٔ المنورهٔ، برقم ۹۲۹/ ۴۲، ۱۰ ورقهٔ، مصورهٔ عن النسخهٔ اعلاه.

ظ: العرب. س ۳۱: مج ۵، ۶ (۱۱، ۱۲/ ۱۴۱۶ ه)ص ۳۴۹.

۱۲۲۱- رسالهٔ فی فضل المدینهٔ وساکنها

شهاب الدین أحمد بن محمد بن عمر الخفاجی (۹۷۷- ۱۰۶۹ ه) (فرغ منها سنهٔ ۹۹۶ ه)

خ: المحمودیهٔ بالمدینهٔ المنورهٔ، برقم ۲۷۲۸ مجامیع.

ظ: العرب. س ۳۱: ج ۵، ۶ (۱۱، ۱۲/ ۱۴۱۶ ه)ص ۳۴۹.

۱۲۲۲- رسالهٔ فی الکلام علی الحجر الأسود

أحمد بن أحمد الفیّومی ت ۱۱۰۱ ه.

خ: الحرم المکی، تاریخ ۴۲/ ۱.

ظ: معجم ما ألّف عن رسول اللّهصلی الله علیه و آله ۱۸، معجم ما کتب عن الرسول وأهل البیت ۲/ ۶۶.

۱۲۲۳- رسالهٔ فی مسألهٔ الزیارهٔ: فی الرد علی ابن تیمیهٔ

محمد بن علی المازنی

ظ: معجم المؤلفین ۱۱/ ۳۱، معجم ما کتب عن الرسول وأهل البیت ۲/ ۶۶.

۱۲۲۴- رسالهٔ فی مناسک الحج

جعفر کاشف الغطاء ت ۱۲۲۷ ه.

۱۲۲۵- رسالهٔ فی مناسک الحج

(بالفارسیهٔ)

محمد باقر المجلسی ت ۱۱۱۱ ه.

خ: سپه سالار.

ظ: فهرست المکتبهٔ ۴/ ۲۸۵- ۲۸۶، ۳/ ۱۳.

۱۲۲۶- رسالهٔ فی مواقیت الحج

(معها خریطهٔ فی تعیین المواقیت)

محمد جواد البلاغی

ظ: الذریعهٔ ۲۳/ ۲۳۱.

۱۲۲۷- رسالهٔ فی نیّات حج التمتع وعمرته

ص: ۲۹۴

(بالفارسية)

خ: ملك بطهران، ضمن مجموع برقم ۲۱۴۷.

۱۲۲۸- رسالة فى هدم المشاهد

أبو تراب الخونسارى ت ۱۳۴۶ ه.

ظ: الذريعة ۲۵/ ۲۰۱، معجم ما كتب عن الرسول وأهل البيت عليهم السلام ۹/ ۵۰۲.

۱۲۲۹- رسالة فى وصف المدينة المنورة

على بن موسى الأفندى، ألّفها سنة ۱۳۰۳ ه.

حققها: حمد الجاسر

ظ: رسائل فى تاريخ المدينة ۴۳، العرب. س ۳۱: ج ۵، ۶ (۱۱، ۱۲/ ۱۴۱۶ ه)ص ۳۵۰.

۱۲۳۰- رسالة فى وصف مكة والمدينة وبيت المقدس

العرب س ۸:ص ۳۲۴، س ۲۲:

ص ۳۸۲.

۱۲۳۱- رسالة فى الوصية بالحج الواجب

محمد مولانا، ت ۱۳۶۰ ه.

۱۲۳۲- رسالة فى وقعة الحرّة سنة ۶۳ ه.

محمد بن عمر الواقدى (۱۳۰- ۲۰۷ ه)

ظ: العرب. س ۳۱: ج ۵، ۶ (۱۱، ۱۲/ ۱۴۱۶ ه)ص ۳۵۰.

۱۲۳۳- الرسالة المباركة

(تتناول جغرافية الحرمين، بالفارسية)

حاجى عبدالرحمن سمرقندى

ظ: الفهرس، المشترك ۳۹۸۲، العرب. س ۳۲: ج ۱، ۲ (۷، ۸/ ۱۴۱۷ ه/ ۱۱، ۱۲/ ۱۹۹۶ م)ص ۳۶.

۱۲۳۴- رسالة مختصرة فى مناسك الحج

ناصر الأحمد

البصرة: مط الأديب، د. ت.

۱۲۳۵- الرسالة المرضيّة فى الرد على مَن يُنكر الزيارة المحمدية

محمد السعدى المالكى

خ: شستربتى ضمن مجموعة برقم ۳۴۰۶، سنة ۸۳۰ ه.

ظ: المورد مج ۱، ع ۱، معجم ما كتب عن الرسول وأهل البيت ۲/ ۷۲.

۱۲۳۶- رسالة مفرحة الأنام فى

ص: ٢٩٥

تأسيس بيت اللَّه الحرام

(بالفارسية)

زين العابدين بن نور الدين على حسينى كاشانى

به ضميمه گزارشى از مدينهٔ وبقيع در سال ١٢٥٥

إسماعيل المرندى

إعداد: رسول جعفريان

ميقات مج س ٢: ع ٥ (پائيز ١٣٧٢ ش)ص ٩٥- ١٢٢. ١٢٣٧- رسالة المهدى الى أهل مكة

مجهولة المؤلف

خ: جامعة كمبرديج، برقم ۴۴ ق ق.

١٢٣٨- رسالة وجيزة فى واجبات الحج

أحمد بن محمد بن فهد الحلى (٧٥٧- ٨۴١ ه)

تحقيق: مهدى الرجائى، إشراف:

محمود المرعشى

قم: مكتبة السيد المرعشى، ط ١، ١۴٠٩ ه (الرسائل العشرص ٣٣١- ٣٣٧).

١٢٣٩- الرسول حول الكعبة

محمد السيد أحمد المسير

القاهرة، ط ١، ١٩٨۴، ١٧۶ص، (فلسفة السيرة، ٣).

١٢۴٠- الرسولصلى الله عليه و آله فى المدينة

على حسنى الخربوطلى

القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ١٩٧٣ م، ٢٧٩ص، ۵/ ٢٣* ١٧ سم.

١٢۴١- الرسول فى المدينة

محمد حسن شمس

الهداية (البحرين) س ١٣: ع ١۵٣ (۶/ ١٩٩٠ م)ص ٨۵- ٨٩.

١٢۴٢- الرسولصلى الله عليه و آله فى المدينة

محمد المهدى الحسينى الشيرازى

النجف الأشرف: مطبعة الآداب، ١٩۶۶ م/ ١٣٨۵ ه، ١١۶ص، ٢١ سم، (سلسلة المنابع ۵٢ و ۵٣).

١٢۴٣- الرسول ويهود يثرب

الهداية (تونس) س ١۵: ع ٢ (٩/ ١٩٩٠ م)ص ٢۵- ٣١.

١٢۴۴- الرسولصلى الله عليه و آله يعلم الناس مناسكهم فى حجة الوداع

على حسب اللَّه

القاهرة: مكتبةصبيح.

القاهرة: دار مطابع الشعب،

ص: ۲۹۶

۱۹۶۶ م، ۷۹ص.

۱۲۴۵- الرفيق الى البيت العتيق

محمد رأفت سعيد

القاهرة: دار الصحوة للنشر والتوزيع، ط ۱، ۱۹۸۵ م، ۹۶ص.

۱۲۴۶- رمضان فى الحرم المكى

عزة بدير

العربى (الكويت) ع ۴۵۸ (يناير ۱۹۹۷ م)ص ۳۸- ۳۹.

۱۲۴۷- رمضان فى مكة المكرمة والمدينة المنورة

صلاح أحمد البهنسي

المنهل (جدة) مج ۵۶: ع ۵۲۱ (۹/ ۱۴۱۵ ه)ص ۸- ۱۰.

۱۲۴۸- ره‌آورد مجاز

(بالفارسية)

حبيب اللَّهصابرى

طهران: دار الكتب الإسلامية.

۱۲۴۹- ره‌آوردى از ديار دوست

(بالفارسية)

محمد على مهدوى راد

ميقات حج: ع ۲۴ (تابستان ۱۳۷۷ ش)ص ۱۶۶- ۱۸۰.

۱۲۵۰- ره توشه حج مطابق با فتواى امام خمينى

(بالفارسية)

على محمد اسدى

قم: انتشارات جهان آرا، ط ۱، ۱۳۶۵ ش، ۱۲۰ص، ۲۱ سم.

۱۲۵۱- رهنماى حج

(بالفارسية)

محمد آصفى

تبريز: مطبعة حافظ، ط ۱، ۱۳۶۶ ش، ۲۴۷ص، ۱۷ سم.

۱۲۵۲- رهنماى حج: براى حجاج افغان

(بالفارسية)

ع. ر. ف

ترجمة: ج. ر

كابل: وزارة العدل، ط ۱، ۱۳۵۹ ش.

۱۲۵۳- رؤى الإمام الخمينى فى الحج الابراهيمى

محمد محمدی ری شهری

میقات الحج: ع ۱ (۱۴۱۵ ه)ص ۶۷- ۷۶.

۱۲۵۴- روائع مختارهٔ من الحج

محمد حسن النائینی

۱۲۵۵- روافد الشعور عند المسلم

ص: ۲۹۷

الحاج

محمد علی التسخیری

التوحید (طهران) ع ۱۱ (۱۱- ۱۲/ ۱۴۰۴ ه)ص ۱۱۴.

۱۲۵۶- الروایات المشترکة: کتاب الحج

محمد قانصوه

التوحید (طهران) ع ۲۳ (۱۱- ۱۲/ ۱۴۰۶ ه)ص ۲۱، ع ۲۴ (۱- ۲/ ۱۴۰۶ ه)ص ۲۷، ع ۲۵ (۳- ۴/ ۱۴۰۱ ه)ص ۳۹، ع ۳۲ (۵- ۶/ ۱۴۰۸ ه)ص ۲۳، ع ۳۳ (۷- ۸/ ۱۴۰۸ ه)ص ۲۲.

۱۲۵۷- روایت حج خونین

(بالفارسیة)

اعداد: وزارة الثقافة والارشاد الإسلامی

انتشارات پیام آزادی، ط ۱، ۱۳۶۷ ش، ۳۲۰ص.

۱۲۵۸- روزنامه سفر از تهران الی کربلا

(بالفارسیة)

ناصر الدین شاه

(۱۲۶۴- ۱۳۱۳ ه)

طهران: ۱۸۷۰ م.

ظ: استوری ۱/ ۳۴۱، آثار ملی ۱۸ «سفرنامه کربلا ناصر الدین شاه» فی ۱۲۹۹ ه، فهرستواره منزوی ۱/ ۸۱.

۱۲۵۹- روزنامه سفر عتبات

(رحلة ناصر الدین شاه فی محرم سنة ۱۲۷۳ ه، وفیها ذکر مشاهداته بشکل یومی، بالفارسیة)

عبدالعلی أدیب الملک بن حاج لیخان حاجب الدولة

ط: نسخه‌ها ۶/ ۴۰۰۶، ملک ۹/ ۳۴۰ «سفرنامه عتبات» فهرستواره منزوی ۱/ ۸۳.

۱۲۶۰- روزنامه سفر مدینة السلام وبیت اللّه الحرام

(بالفارسیة)

معتمد الدولة فرمانفرمای فارس

ظ: به سوی ام القری ۱۵.

۱۲۶۱- روزنامه وقایع سفر کربلا/ سفرنامه کربلا

(رحلة الی کربلاء، سجل فیها مشاهداته وذکریاته عن علماء الشیعة، بالفارسیة)

ص: ۲۹۸

مجهولة المؤلف

ظ: نسخه‌ها ۶/ ۴۰۰۷، مشار ۳/ ۳۰۲۵ «سفرنامه كربلا» ملى ۱/ ۳۸۶، فهرستواره منزوى ۱/ ۸۵.

۱۲۶۲- روشى نوين در بيان مناسك حج مطابق با فتواى امام خمينى

(بالفارسية)

على محمد احمدى

قم: دفتر انتشارات اسلامى، ط ۱، ۱۳۴۶ ش.

۱۲۶۳- الروضة الفردوسية والحضيرة القدسية فى أسماء من دفن بالبقيع

محمد بن أحمد بن أمية الأقشهرى (۶۶۵- ۷۳۳ ه)

انتهى من تأليفها سنة ۷۱۸ ه.

ظ: الاعلان بالتوبيخ ۲۷۵، التحفة اللطيفة ۳/ ۴۶۳.

العرب. س ۳۱: ج ۵، ۶ (۱۱، ۱۲/ ۱۴۱۶ ه)ص ۳۵۱- ۳۵۲.

۱۲۶۴- الروضة المستطابة فى من دفن فى البقيع من الصحابة

مجهول، من علماء القرن الحادى عشر.

خ: الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، فلمية، برقم ۶۲۳۵/ ۴، ۲۲ ورقة (۴۴ص).

ظ: العرب. س ۳۱: ج ۵، ۶ (۱۱، ۱۲/ ۱۴۱۶ ه)ص ۳۵۲.

۱۲۶۵- الروضة المقدسة

محمد جواد الطبسى

ميقات الحج ع ۱ (۱۴۱۶ ه)ص ۲۵۷- ۲۷۰.

۱۲۶۶- رياض الجنّة فى زيارات الأئمة

مجهول المؤلف

ظ: كشف الحجب والأستار ۲۹۹، مرآة الكتب ۳/ ۳۸، الذريعة ۱۱/ ۳۲۳، معجم ما كتب عن الرسول وأهل البيت عليهم السلام ۹/ ۵۰۷.

۱۲۶۷- الرياض المستطابة فى فضل سكان طابة

جلال الدين بن الياس بن خير الدين المدنى، من علماء القرن العاشر

ظ: تحفة المحبين والأصحاب ۳۹، العرب. س ۳۱: ج ۵، ۶ (۱۱، ۱۲/ ۱۴۱۶ ه)ص ۳۵۲.

۱۲۶۸- الزائرية فى المزار

ص: ۲۹۹

(بالفارسیة)

میر محمد مهدی الرضوی

فرغ منه سنة ۹۵۴ ه.

خ: الرضویة، وقف الخواجة شیر أحمد.

ظ: الذریعة ۱۲/ ۱، معجم ما کتب عن الرسول وأهل البیت علیهم السلام ۹/ ۵۱۱.

۱۲۶۹- زاد الحاج والمعتمر

عبداللّه إبراهیم الأنصاری

الدوحة. دار إحیاء التراث الإسلامی، ۱۹۸۸ م، ۱۸۶ص.

۱۲۷۰- زاد الحاج من الأحکام والأدعیة والزیارات

مصطفی قصیر

بیروت: ۱۴۰۴ ه، ۱۱۰ص، ۱۷ سم.

۱۲۷۱- زاد الحجیج

(بالفارسیة)

خ: مسجد گوهرشاد، برقم ۸۹۸ فی ۱۰۶ ورقة.

۱۲۷۲- زاد الحجیج

(بالفارسیة)

علی بن میرزا محمد رشتی گیلانی

خ: مکتبة رشت برقم ۳۰۶، فی ۱۵۷ ورقة.

۱۲۷۳- زاد الزائرین

(مجموعة زیارات)

النجف الأشرف: المطبعة العلمیة، ۱۳۵۶ ه، ۳۲ص، حجریة.

۱۲۷۴- زاد الزائرین

(بالفارسیة)

عبداللّه بن محمد رضا الشبر الحلّی الکاظمی

ظ: الذریعة ۱۲/ ۲، معجم ما کتب عن الرسول وأهل البیت علیهم السلام ۹/ ۵۱۱.

۱۲۷۵- زاد الزائرین فی الزیارات

عبدالوهاب بن محمد الرضوی الحسینی الطوسی

ظ: فهرس جامعة طهران ۱/ ۱۲، الذریعة ۱۲/ ۲، معجم ما کتب عن الرسول وأهل البیتصلوات اللّه علیهم ۹/ ۵۱۱.

۱۲۷۶- زاد الزائرین وجامع الزیارة

محمد حسن العسکری السمنانی

خ: الرضویة، ۳۳۶۰

ظ: معجم ما کتب عن الرسول

ص: ۳۰۰

وأهل البيتصلوات اللّه عليهم ۹/ ۵۱۲.

۱۲۷۷- زاد السفينة فى أحوال المدينة

(بالفارسية)

ظ: فهرست مشترك باكستان ۱۰/ ۲۶.

العرب س ۳۲: ج ۱، ۲ (۷/۸۰/ ۱۴۱۷ ه/ ۱۱، ۱۲/ ۱۹۹۶ م)ص ۳۶.

۱۲۷۸- زاد السفينة فى أسامى المدينة

(فى ذكر فضائل المدينة وعدد أسمائها، كتب فى سنة ۱۱۳۳ ه، بالفارسية)

محمد هاشم بن عبدالغفور تتوى

(۱۱۰۴- ۱۱۷۴ ه)

ظ: مشترك ۱۰/ ۲۶ و ۲۹۲، تكملة مقالات ۵۶، پاكستان مين ۳/ ۸۰۹، فهرستوارى منزوى ۱/ ۲۲۳.

۱۲۷۹- زاد الناسكين

(مناسك الحج مطابقة فتاوى مراجع التقليد، بالفارسية)

حبيب اللّه القمى ت ۱۳۵۹ ه.

۱۲۸۰- زبدة الأعمال وخلاصة الأفعال

(رسالة فى تاريخ مكة والمدينة)

سعد الدين محمد بن محمد بن عمر ابن محمد الإسفرائينى

من علماء القرن الثامن

خ: الحرم المكى برقم ۳۴۹۶.

الجامعة الإسلامية، مصورة برقم ۷۷۰۵.

طوپ قپوسراى برقم ۶۰۶۷۸۲۹۹۴، فى ۸۱ ورقة، تاريخها القرن العاشر الهجرى.

ظ: العرب. س ۳۱: ج ۵، ۶ (۱۱، ۱۲/ ۱۴۱۶ ه)ص ۳۵۲.

۱۲۸۱- زبدة الأقوال الشريفة فى أحوال مكة المنيفة

رحمة اللّه الشاهجهانپورى

(كان حيّاً سنة ۱۲۶۸ ه).

ظ: الثقافة الإسلامية فى الهند ۷۶.

۱۲۸۲- زبدة الفكر فى زيارة سيد البشر

على خيرى الكوتاهيه‌وى الرومى الحنفى

(كان حياً سنة ۱۰۳۷ ه).

ظ: ايضاح المكنون ۱/ ۶۱۲.

۱۲۸۳- زبدة المناسك در بيان

ص: ۳۰۱

واجبات ومحرمات حج

(بالفارسیة)

محمد رضا عبدالحمیدی

طهران: ۱۳۵۲ ش، ۳۲ص.

۱۲۸۴- الزحف الی مکة

تألیف: عبد الودود شلبی

رسالة الجهاد (باولا- مالطا) س ۹:

ع ۹۳ (۱۱/ ۱۹۹۰)،ص ۱۱۴- ۱۲۰.

۱۲۸۵- الزراعة فی المدینة عوامل سقوطها وکیف نرقیها

حسین حسن

المنهل (جدة) مج ۱: ج ۹ (۸/ ۱۳۵۶ ه/ ۱۰/ ۱۹۳۷ م)ص ۳۷.

۱۲۸۶- الزلف والقربة فی تعمیر ما سقط من الکعبة

تاج الدین بن أحمد المصری ت ۱۰۴۰ ه.

ظ: المنهل (جدة) س ۵۶: ع ۴۷۵ (۳- ۴/ ۱۴۱۰ ه/ ۱۰- ۱۱/ ۱۹۸۹ م)ص ۲۰۵.

۱۲۸۷- زمزم، طعام طعم وشفاء سقم

یحیی حمزة کوشک

جدة: دار العلم، ط ۱، ۱۴۰۳ ه.

۱۲۸۸- زمزم فی الشعر العربی

میقات الحج ع ۳ (۱۴۱۶ ه)ص ۱۶۱- ۱۶۷.

۱۲۸۹- زمزمه زمزم

(بالفارسیة)

علی قاضی عسکر

میقات حج. س ۳: ع ۱۰ (زمستان ۱۳۷۳ ش)ص ۸۴- ۱۰۵.

۱۲۹۰- زهر الربا فی فضل مسجد قبا

محمد علی بن علان الصدیقی المکی ت ۱۰۵۷ ه.

ظ: خلاصة الأثر ۴/ ۱۸۷، حسن النبا ۲۶، العرب.

س ۳۱: ج ۵، ۶ (۱۱، ۱۲/ ۱۴۱۶ ه)ص ۳۵۲.

۱۲۹۱- زهر الریاض وزلال الحیاض

الحسن بن علی بن شدقم المدنی (۹۴۲- ۹۹۹ ه)

خ: المتحف البریطانی برقم ADD ۹۴۳۷، ج ۳ فی ۳۱۷ ورقة، ۹۹۵ ه.

الخزانة التیموریة، برقم ۶۳۷، جزء منه.

الرضویة، الجزء الثالث منه،

ص: ٣٠٢

برقم ۴٢۴٢.

مدرسة الفاضل الشريبانى بالنجف، ج ٣.

جامعة طهران.

ظ: إيضاح المكنون ١/ ۶١٨، هدية العارفين ١/ ٢٩٠، تاريخ آداب اللغة العربية ٣/ ٣٣٧، الذريعة ١٢/ ٧٠، رياض العلماء ٢/ ٣۴، معجم المؤلفين ٣/ ٢۵١، العرب. س ٣١:

ج ۵، ۶ (١١، ١٢/ ١۴١۶ ه)ص ٣۵۶ (نقلًا عن حمد الجاسر).

١٢٩٢- الزهرة فى أعمال الحج والعمرة

محمد بن هبة اللّه الطرابلسى

١٢٩٣- زهرة المزارات وعزّة الزيارات

محمد بن أحمد البصرى الكاظمى ت ١٢۴۶ ه.

ظ: الذريعة ١٢/ ٧۵، معجم ما كتب عن الرسول وأهل البيتصلوات اللّه عليهم ٩/ ۵١۶.

١٢٩۴- كتاب الزهور المقتطفة من تاريخ مكة المشرفة

لتقى الدين الفاسى

أحمد على محمد

عالم المخطوطات والنوادر (الرياض) ع ١ (١۴١٧ ه)

المنهل (جدة) س ۵۶: ع ۴٧۵ (٣- ۴/ ١۴١٠ ه- ١٠، ١١/ ١٩٨٩ م)ص ٢٠۵.

١٢٩۵- كتاب الزيارات

أحمد بن محمد بن الحسين بن الحسن بن ذول القمّى، ت ٣۵٠ ه.

ظ: رجال النجاشى ٩٠، الذريعة ١٢/ ٧٧، معجم ما كتب عن الرسول وأهل البيت عليهم السلام ٩/ ۵١۶.

١٢٩۶- كتاب الزيارات

الحسن بن على بن فضّال الكوفى

ظ: رجال النجاشى ٣۶، الذريعة ١٢/ ٧٧، معجم ما كتب عن الرسول وأهل البيتصلوات اللّه عليهم ٩/ ۵١٧.

١٢٩٧- كتاب الزيارات

الحسين بن سعيد بن حمّاد بن مهران مولى على بن الحسين عليه السلام.

ظ: رجال النجاشى ۵٨، فهرست الطوسى ۵٨، ذكره باسم: كتاب المزار، معجم ما كتب عن الرسول وأهل البيت ٩/ ۵١٧.

ص: ۳۰۳

۱۲۹۸- کتاب الزیارات

الحسین بن علی الخزّاز القمّی، أبو عبداللَّه

ظ: رجال النجاشی ۶۸، الذریعة ۱۲/ ۷۷، معجم ما کتب عن الرسول وأهل البیت علیهم السلام ۹/ ۵۱۷.

۱۲۹۹- کتاب الزیارات

محمد بن علی بن الفضل بن تمّام بن سُکین

ظ: رجال النجاشی ۳۸۵، الذریعة ۱۲/ ۷۷، ۲۰/ ۳۲۱، ذکره بعنوان المزار، معجم ما کتب عن الرسول وأهل البیت علیهم السلام ۹/ ۵۱۷.

۱۳۰۰- کتاب الزیارات

المنصور عبداللَّه بن حمزة، ت ۶۱۴ ه.

خ: الجامع الکبیر بصنعاء، برقم ۶۵۹، فی ۱۰ ورقات، تاریخها ۱۱۹۸ ه.

ظ: معجم ما کتب عن الرسول وأهل البیت علیهم السلام ۹/ ۵۱۷.

۱۳۰۱- زیارات أولاد الأئمة والعلماء

(بالفارسیة)

باقر الواعظ الکجوری

طبع بایران

ظ: الذریعة ۱۲/ ۷۷، معجم ما کتب عن الرسول وأهل البیت علیهم السلام ۹/ ۵۱۷.

۱۳۰۲- کتاب زیارات قبور الأئمة علیهم السلام

الشیخ الصدوق محمد بن علی بن الحسین بن موسی بن بابویه القمّی، ت ۳۸۱ ه.

ظ: رجال النجاشی ۳۹۰، الذریعة ۱۲/ ۷۸، معجم ما کتب عن الرسول وأهل البیت علیهم السلام ۹/ ۵۱۷.

۱۳۰۳- الزیارات المخصوصة فی الأیام الشریفة

مرتبة علی أربعة فصول

مجهولة المؤلف، تاریخها ۱۱۷۴ ه.

ظ: الذریعة ۱۲/ ۷۸، معجم ما کتب عن الرسول وأهل البیت علیهم السلام ۹/ ۵۱۸.

۱۳۰۴- زیارات مفاتیح الجنان

عباس القمی

طهران: اقبال، ۱۳۲۸ ش، ۳۵۰ص.

۱۳۰۵- کتاب الزیارات منصحیح الروایات

ص: ٣٠۴

على بن أبى بكر الهروى

ظ: ايضاح المكنون ٢/ ٣٠١، معجم ما كتب عن الرسول وأهل البيتصلوات اللَّه عليهم ٩/ ۵١٨.

١٣٠۶- زيارات وأدعية الحرمين

نبيل شعبان

طهران: مؤسسة الهدى، ١٧١ص.

١٣٠٧- كتاب الزيارات والمناسك

أبو يعلى حمزة بن القاسم بن على بن حمزة بن الحسين بن عبيد اللَّه بن العباس بن أمير المؤمنين عليهما السلام

ظ: رجال النجاشى ١۴٠، الذريعة ١٢/ ٧٨، معجم ما كتب عن الرسول وأهل البيتصلوات اللَّه عليهم ٩/ ۵١٨.

١٣٠٨- كتاب زيارات

(مجموعة زيارات الأئمة المعصومين عليهم السلام، بالفارسية)

خ: المرعشى ٧٣٩٨، ١٨٣ ورقة، سنة ١٢٣١ ه.

ظ: فهرس المرعشى ١٩/ ١٩۶، ١٩٧، معجم ما كتب عن الرسول وأهل البيتصلوات اللَّه عليهم ٩/ ۵١٨.

١٣٠٩- زيارت

(بالفارسية)

جواد محدثى

طهران: نشر مشعر، ط ١، ١٣٧١ ش، ١۶٨ص.

١٣١٠- زيارت

(بالفارسية)

محمد مهدى ركنى

مشهد: المؤتمر العالمى للإمام الرضا عليه السلام، ١٣۶۴ ه، ۴٠ص، ٢۴ سم.

١٣١١- زيارت حضرت رسولصلى الله عليه و آله وحضرت فاطمة عليها السلام وائمه بقيع

(بالفارسية)

اعداد: معاونيت التعليم والتحقيق فى بعثة السيد القائد.

طهران: نشر مشعر، ١٣٧١ ش، ٣۶ص.

١٣١٢- زيارت خرافه يا حقيقت

(بالفارسية)

غلام حسين رحيمى اصفهانى

طهران: شركت سهامى انتشار، ١٣۴٧ ش، ١٠۴ص (مع مقدّمة:

د. محمد مفتّح).

ص: ٣٠٥

١٣١٣- الزيارة الجامعة

طبعت فی:

تبريز: ١٣١۵ ه (جمع الشيخ النوری).

النجف الأشرف: المطبعة العلوية، ١٣۴٠ ه، ٣٢ص، ٢١ سم.

١٣١۴- الزيارة فی الكتاب والسنة

تحليل لمفهوم الزيارة وآثارها وأحكامها

جعفر السبحانی

[د. م]: [د. ن]، د. ت، ٨٨ص (علی مائدة العقيدة، ٩).

١٣١۵- زيارة المراقد الشريفة فی سوريا وفلسطين

نبيل شعبان

طهران: الهدی، ١٣۶٨ ش، ١٠٠ص.

زيارة المصطفی المجاهد (القاهرة) س ٩: ع ٩١ (٧/ ١٩٨٨ م)ص ٣٧.

١٣١۶- الزيارة النبويّة عند دعاة السلفية

محمد علوی المالكی

الإسلام وطن (القاهرة) س ٣: ع ٣۶ (٣/ ١٩٩٠ م)ص ١۴- ١۵.

١٣١٧- الزيارة والبشارة

أحمد بن رضی الموسوی المستنبط

النجف الأشرف: مطبعة العزی الحديثة، ١٣٨١ ه، ج ١، ٢۶٠ص، ج ٢، ۴۵٢ص.

تعریف مرکز

بسم الله الرحمن الرحیم

جاهِدُوا بِأَمْوالِکُمْ وَ أَنْفُسِکُمْ فی سَبیلِ اللَّهِ ذلِکُمْ خَیْرٌ لَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علیّ بْنُ موسَی الرِّضا – علَیهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْیَا أمْرَنَا... یَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ یُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ کَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنـادِرُ البِحـار – فی تلخیص بحـار الأنـوار، للعلاّمـة فیض الاسـلام، ص ۱۵۹؛ عُیونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشـّیخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائمیّة" الثّقافیّ بأصبَهانَ – إیرانَ: الشهید آیة الله "الشمس آباذی" – رَحِمَهُ اللهُ – کان أحداً من جَهابذة هذه المدینة، الذی قدِ اشتهَرَ بشَغَفِهِ بأهل بَیت النبیّ (صلواتُ اللهِ علَیهِم) و لاسیَّما بحضرة الإمام علیّ بن موسَی الرِّضا (علیه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرجَهُ الشَّریفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درایته، فی سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجریّة الشمسیّة (=۱۳۸۰ الهجریّة القمریّة)، مؤسَّسةً و طریقةً لم یَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَی و أحسَنِ مَوقِفٍ کلَّ یوم.

مرکز "القائمیّة" للتحرّی الحاسوبیّ – بأصبَهانَ، إیرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریّة القمریّة) تحتَ عنایة سماحة آیة الله الحاجّ السیّد حسن الإمامیّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّیجی الحوزات العلمیّة و طلاب الجوامع، باللیل و النهار، فی مجالاتٍ شتّی: دینیّة، ثقافیّة و علمیّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشیعة و تبسیط ثَقافة الثَّقَلَین (کتاب الله و اهل البیت علیهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزیز دوافع الشَّباب و عموم الناس إلی التَّحَرِّی الأدَقّ للمسائل الدّینیّة، تخلیف المطالب النّافعة – مکانَ البَلاتیثِ المبتذلة أو الرّدیئة – فی المحامیل (=الهواتف المنقولة) و الحواسیب (=الأجهزة الکمبیوتریّة)، تمهید أرضیّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافیّةٍ علی أساس معارف القرآن و أهل البیت –علیهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققین و الطّلاّب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِجِ العلوم الإسلامیّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهیل رفع الإبهام و الشّبُهات المنتشرة فی الجامعة، و...

- مِنها العَدالة الاجتماعیّة: التی یُمکِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحدیثة متصاعدةً، علی أنّه یُمکِن تسریعُ إبراز المَرافِق و التسهیلاتِ – فی آکناف البلد - و نشرِ الثّقافةِ الاسلامیّة و الإیرانیّة – فی أنحاء العالَم - مِن جهةٍ اُخرَی.

- من الأنشطة الواسعة للمرکز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ کتبٍ، کتیبة، نشرة شهریّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقیقیّة و مکتبیة، قابلة للتشغیل فی الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثّلاثیّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّکة و... الأماکن الدینیّة، السیاحیّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتی "القائمیّة" www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضیّة، الخَطابات و... للعرض فی القنوات القمریّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعیّة، الاخلاقیّة و الاعتقادیّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسیم النظام التلقائیّ و الیدویّ للبلوتوث، ویب کشک، و الرّسائل القصیرة SMS

ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراکزَ طبیعیّة و اعتباریّة، منها بیوت الآیات العِظام، الحوزات العلمیّة، الجوامع، الأماکن الدینیّة کمسجد جَمکرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفیذ مشروع "ما قبلَ المدرسة" الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِکین فی الجلسة

ی) إقامة دورات تعلیمیّة عمومیّة و دورات تربیة المربّی (حضوراً و افتراضاً) طیلة السَّنَةِ

المکتب الرّئیسیّ: إیران/أصبهان/ شارع"مسجد سیّد/ "ما بینَ شارع"پنج رَمَضان "ومُفترَق"وفائی/"بنایة"القائمیّة"

تاریخ التأسیس: ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریة القمریّة)

رقم التسجیل: ۲۳۷۳

الهویّة الوطنیّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البرید الالکترونی: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتی: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاکس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مکتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التِّجاریّة و المَبیعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمین ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

المیزانیّة الحالیّة لهذا المرکز، شَعبیّة، تبرّعیّة، غیر حکومیّة، و غیر ربحیّة، اقتُنِیَت باهتمام جمع من الخیّرین؛ لکنّها لا تُوافِی الحجمَ المتزاید و المتّسِعَ للامور الدّینیّة و العلمیّة الحالیّة و مشاریع التوسعة الثّقافیّة؛ لهذا فقد ترجّی هذا المرکزُ صاحِبَ هذا البیتِ (المُسمَّی بالقائمیّة) و مع ذلک، یرجو مِن جانب سماحة بقیّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرَجَهُ الشَّریفَ) أن یُوفِّقَ الکلَّ توفیقاً متزائداً لِإعانتهم - فی حدّ التّمکّن لکلّ احدٍ منهم – إیّانا فی هذا الأمر العظیم؛ إن شاءَ اللهُ تعالی؛ و اللهُ ولیّ التوفیق.